



الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

خيركم من تعلم القرآن وعلمه
حديث شريف

٢١

دار الشعب
[illegible]

اذا كان « القرطبي » سيجلد في مجلد واحد فتنزع هذه الورقة

« مَنْ يَصْرِفْ » بفتح الياء فتقديره : من يصرف الله عنه العذاب ، وإذا قرئ « مَنْ يُصْرَفْ عنه » فتقديره : من يُصرَف عنه العذابُ . ﴿ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ أى النجاة البيّنة .

قوله تعالى : وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ المسّ والكشف من صفات الأجسام، وهو هنا مجاز وتوسّع، والمعنى : إن تنزل بك يا محمد شدّة من فقر أو مرض فلا رافع وصارف له إلا هو ، وإن يصبك بعافية ورخاء ونعمة ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من الخير والضر ؛ روى ابن عباس قال : كنتُ رَدِيفَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : "يا غلام — أو يا بنيّ — ألا أعلّمك كلماتٍ ينفعك الله بهنّ" ؟ فقلت : بلى ؛ فقال : "احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرّف إلى الله فى الرّخاء يعرفْك فى الشدّة إذا سألتَ فاسأل الله وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله فقد جفّ القلم بما هو كائنٌ فلو أنّ الخلق كلهم جميعا أرادوا أن يضروك بشىء لم يَقضه الله لك لم يقدروا عليه واعمل لله بالشكر واليقين واعلم أنّ فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا وأنّ النصر مع الصّبر وأن الفرَجَ مع الكَرْب وأنّ مع العسر يسرا" أخرجه أبو بكر بن ثابت الخطيب فى كتاب « الفصل والوصل » وهو حديث صحيح ؛ وقد خرّجه الترمذى ، وهذا أتم .

قوله تعالى : وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ القهر الغلبة، والقاهر الغالب، وأقهر الرجل إذا صير بحال المقهور الذليل ؛ قال الشاعر[1] :

تَمَنَّى حُصَيْنٌ أن يَسُودَ جِذاعُه * فأمسى حُصَينٌ قد أذلّ وأقْهَرا

وقُهِر غُلب . ومعنى « فَوْقَ عِبَادِهِ » فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم ؛ أي هم تحت تسخيره لا فوقية مكان ؛ كما تقول : السلطان فوق رعيته أي بالمنزلة والرفعة . وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد . ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ في أمره ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بأعمال عباده ، أي من اتصف بهذه الصفات يجب ألا يُشرَكَ به .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ وذلك أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : من يشهد لك بأنك رسول الله فنزلت الآية ؛ عن الحسن وغيره . ولفظ « شيء » هنا واقع موقع اسم الله تعالى ؛ المعنى الله أكبر شهادة أي انفراده بالربوبية ، وقيام البراهين على توحيده أكبر شهادة وأعظم ؛ فهو شهيد بيني وبينكم على أني قد بلّغتكم وصَدَقت فيما قلته وادّعيته من الرسالة .

قوله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ ﴾ أي والقرآن شاهد بنبوّتي . ﴿ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ ﴾ يا أهل مكة . ﴿ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ أي ومن بلغه القرآن . فحذف « الهاء » لطول الكلام . وقيل : ومن بلغ الحُلُم . ودلّ بهذا على أن من لم يبلغ الحُلُم ليس بمخاطَب ولا مُتعبَّد . وتبليغ القرآن والسنة مأمور بهما ، كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتبليغهما ؛ فقال : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ »[2] . وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم "بلّغوا عني ولو آية وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج ومن كَذَب عليّ متعمِّدا فليتبوّأ مقعده من النار". وفي الخبر أيضا ؛ من بَلَغته آية من كتاب الله فقد بَلَغه أمر الله أَخَذَ به أو تَرَكه . وقال مُقاتل : من بَلَغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له . وقال القُرَظي : من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمدا صلى الله عليه وسلم وسَمِع منه . وقرأ أبو نَهِيك : « وَأَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ » مسمى الفاعل؛ وهو معنى قراءة الجماعة . ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى ﴾ استفهام توبيخ

---

(١) هو المخبل السعدي ، يهجو الزبرقان وقومه ، وجذاع الرجل قومه . (٢) راجع ص ٢٤٢ من هذا الجزء .

وتقريع . وقرئ « أَئِنَّكُم » بهمزتين على الأصل . وإن خفّفت الثانية قلت : « أَيِنَّكُمْ » . وروى الأصمعيّ عن أبي عمرو ونافع « آئِنَّكُمْ » ؛ وهذه لغة معروفة ، تُجعل بين الهمزتين ألفٌ كراهة لالتقائهما ؛ قال الشاعر[1] :

أَيَا ظَبيةَ الوَعْساءِ بين جَلَاجِلٍ ... وبَيْنَ النَّقَا آأَنْتِ أَمْ أُمُّ سَالِمِ

ومن قرأ « إِنَّكُمْ » على الخبر فعلى أنه قد حقق عليهم شركهم . وقال: «آلهةً أُخْرَى » ولم يقل : «أُخَر» ؛ قال الفرّاء : لأن الآلهة جمعٌ والجمع يقع عليه التأنيث ؛ ومنه قوله : « وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا[2] » وقوله « فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى[3] » ولو قال : الأوّل والآخر صحّ أيضا[4] . ﴿ قُلْ لَا أَشْهَدُ ﴾ أي فأنا لا أشهد معكم حذف لدلالة الكلام عليه ، ونظيره « فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ[5] » .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ . يريد اليهود والنصارى الذين عرفوا وعاندوا وقد تقدّم معناه في « البقرة[6] » . و « الذين » في موضع رفع بالابتداء . ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ في موضع الخبر ؛ أي يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم ؛ عن الحسن وقَتَادة ، وهو قول الزجاج . وقيل : يعود على الكتاب ، أي يعرفونه على ما يدلّ عليه ، أي على الصفة التي هو بها من دلالته على صحة أمر النبي صلى الله عليه وسلم وآله . ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ في موضع النعت ؛ ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾

---

(١) هو ذو الرمة ؛ والوعساء رملة لينة ، وجلاجل « بفتح الجيم » وفي كتاب سيبويه « بضمها » موضع بعينه . والنقا الكثيب من الرمل . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٢ . (٣) راجع جـ ١١ ص ٢٠٥ .

(٤) أي في غير القرآن . (٥) راجع جـ ٧ ص ١٢٩ . (٦) راجع جـ ٢ ص ١٦٢ وما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ ابتداء وخبر أى لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنِ ٱفْتَرَى ﴾ أى اختلق ﴿ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ يريد القرآن والمعجزات . ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ قيل : معناه فى الدنيا ؛ ثم آستأنف فقال : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ على معنى واذكر «يوم نحشرهم» . وقيل : معناه أنه لا يفلح الظالمون فى الدنيا ولا يوم نحشرهم ؛ فلا يوقف على هذا التقدير على قوله : «الظَّالِمُونَ» لأنه متصل . وقيل : هو متعلق بما بعده وهو «آنظر» أى انظر كيف كذبوا يوم نحشرهم ؛ أى كيف يكذبون يوم نحشرهم ؟ . ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ ﴾ سؤال إفضاح لا إفصاح[1] . ﴿ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أى فى أنهم شفعاء لكم عند الله بزعمكم ، وأنها تقربكم منه زُلْفَى ؛ وهذا توبيخ لهم . قال ابن عباس : كل زعم فى القرآن فهو كذبٌ .

قوله تعالى : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ ﴾ الفتنة الاختبار أى لم يكن جوابهم حين آختبروا بهذا السؤال ، ورأوا الحقائق ، وآرتفعت الدواعى[2] ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ تبرءوا من الشرك وآنتفوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للؤمنين . قال ابن عباس : يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم ، ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره ، فإذا رأى المشركون ذلك ؛ قالوا إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك فتعالوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين ؛ فقال الله تعالى : أما إذ كتموا الشرك فاختموا على أفواههم ، فيختم على أفواههم ، فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ، فعند ذلك يعرف المشركون أن الله لا يكتم حديثا ؛ فذلك قوله : « يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا[3] » . وقال أبو إسحق الزجاج : تأويل هذه الآية لطيف جدا ، أخبر الله عز وجل بقصص المشركين وآفتتانهم بشركهم ، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حين رأوا الحقائق إلا أن آنتفوا من الشرك ، ونظير هذا فى اللغة أن ترى إنسانا يُحبُّ غاويًا فإذا وقع

(١) فى ك : لا إيضاح . (٢) فى ه وب و ج وع : الدعاوى . (٣) راجع جـ ٥ ص ١٩٨ .

فى هَلَكَة تبرأ منه ، [فيقال] [1] : ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه . وقال الحسن : هذا خاص بالمنافقين جروا على عادتهم فى الدنيا ، ومعنى « فِتْنَتُهُمْ » عاقبة فتنتهم أى كفرهم . وقال قَتادة : معناه معذرتهم . وفى صحيح مسلم من حديث أبى هُريرة قال : " فيلقى العبد فيقول أى فُلْ [2] ألم أكرمك وأسودك [وأزوجك] [3] وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع فيقول بلى [أى رب] [3] فيقول أفظننت أنك ملاقى فيقول لا فيقول إنى أنساك كما نسيتنى ثم يلقى الثانى فيقول له ويقول هو مثل ذلك بعينه ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصليت وصمت وتصدقت ويثنى بخير ما استطاع قال فيقال ها هنا إذًا ثم يقال له الآن نبعث شاهدا عليك ويتفكر فى نفسه من ذا الذى يشهد على فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقى فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى سخط الله عليه " .

قوله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٢٤)

قوله تعالى . ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ كذب المشركين قولهم : إن عبادة الأصنام تقربنا إلى الله زُلْفَى ، بل ظنوا ذلك وظنهم الخطأ لا يعذرهم ولا يزيل اسم الكذب عنهم ، وكذب المنافقين باعتذارهم بالباطل ، وجحدهم نفاقهم . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى فانظر كيف ضل عنهم افتراؤهم أى تلاشى وبطل ما كانوا يظنونه من شفاعة آلهتهم . وقيل : « وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى فارقهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلم يغن عنهم شيئا ؛ عن الحسن . وقيل : المعنى عَزَب عنهم افتراؤهم لدهشتهم ، وذهول عقولهم .

---

(١) فى الأصول « فيقول » والتصويب عن تفسير الفخر والألوسى . (٢) « أى فل » قال النووى : (بضم الفاء وسكون اللام) ومعناه يا فلان وهو ترخيم على خلاف القياس ؛ وقيل : ليس ترخيما بل هى لغة بمعنى فلان لأنه لا يقال إلا بسكون اللام ، ولو كان ترخيما لفتحوها أو ضموها . و« تربع » أى تأخذ ربع الغنيمة ؛ يريد ألم أجعلك رئيسا مطاعا ؛ لأن الملك كان يأخذ ربع الغنيمة فى الجاهلية دون أصحابه . وقيل : إن معناه تركتك مستريحا لا تحتاج إلى كلفة وطلب . (٣) الزيادة عن صحيح مسلم .

والنظر فى قوله : « ٱنظر » يراد به نظر الاعتبار؛ ثم قيل : « كَذَبُوا » بمعنى يكذبون، فعبر عن المستقبل بالماضى؛ وجاز أن يكذبوا فى الآخرة لأنه موضع دَهَش وحَيْرة وذهول عقل . وقيل : لا يجوز أن يقع منهم كذب فى الآخرة ؛ لأنها دار جزاء على ما كان فى الدنيا ــ وعلى ذلك أكثر أهل النظر ــ وإنما ذلك فى الدنيا؛ فمعنى ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ على هذا : ما كنا مشركين عند أنفسنا؛ وعلى جواز أن يكذبوا فى الآخرة يعارضه قوله : « وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا »؛ ولا معارضة ولا تناقض؛ لا يكتمون الله حديثا فى بعض المواطن إذا شهدت عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بعملهم،و يكذبون على أنفسهم فى بعض المواطن قبل شهادة الجوارح على ما تقدّم . والله أعلم . وقال سعيد بن جُبَير فى قوله تعالى : « وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » قال : ٱعتذروا وحلفوا ؛ وكذلك قال ابن أبى نَجيح وقَتَادة : وروى عن مجاهد أنه قال : لما رأوا أن الذنوب تغفر إلا الشرك بالله والناس يخرجون من النار قالوا : « وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » وقيل : « وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » أى علمنا أن الأحجار لا تضر ولا تنفع،وهذا وإن كان صحيحا من القول فقد صدقوا ولم يكتموا ، ولكن لا يُعذَرون بهذا؛ فإن المعاند كافر غير معذور . ثم قيل فى قوله : « ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ » خمس قراءات : قرأ حمزة والكسائى « يكن » بالياء « فِتْنَتَهُمْ » بالنصب خبر « يكن » « إِلَّا أَنْ قَالُوا » ٱسمها أى إلا قولُهم؛ فهذه قراءة بيّنة . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو « تكن » بالتاء « فِتْنَتَهُمْ » بالنصب « إِلَّا أَنْ قَالُوا » أى إلا مقالتُهم . وقرأ أُبَىّ وابن مسعود « وما كان ــ بدل [قوله][(1)] « ثم لم تكن » ــ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا » . وقرأ ٱبن عامر وعاصم من رواية حفص، والأعمش من رواية المفضّل، والحسن وقَتَادة وغيرهم « ثُمَّ لَمْ تَكُنْ » بالتاء « فِتْنَتُهُمْ » بالرفع ٱسم « تكن » والخبر « إِلَّا أَنْ قَالُوا » فهذه أربع قراءات . الخامسة ــ « ثُمَّ لَمْ يَكُنْ » بالياء « فِتْنَتُهُمْ »؛ [رفع][(1)] ويذكر الفتنة لأنها بمعنى الفتون ، ومثله « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَٱنْتَهَى »[(2)] . « وَٱللَّهِ » [الواو][(3)] واو القسم « رَبِّنَا » نعت لله عز وجل،أو بدل . ومن نصب فعلى النداء أى يا ربّنا وهى قراءة حسنة؛ لأن فيها معنى الاستكانة والتضرع ، إلا أنه فصل بين القسم وجوابه بالمنادى .

(١) من ب وح وك وع . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٤٧ . (٣) من ك .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ . [أفرد][1] على اللفظ يعنى المشركين كفار مكة . ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أى فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم . وليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينقادون إلى الحق كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم . والأكنّة الأغطية جمع كِنان مثل الأسنّة والسِّنان ، والأعنّة والعِنان . كَنَنْتُ الشيء فى كِنه إذا صنته فيه . وأكننت الشيء أخفيته . والكِنانة معروفة[2] . والكَنّة (بفتح الكاف والنون) آمرأة أبيك؛ ويقال : آمرأة الآبن أو الأخ؛ لأنها فى كِنّه . ﴿ أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ أى يفهموه وهو فى موضع نصب ؛ المعنى كراهية أن يفهموه[3]، أو لئلا يفهموه . ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ عطف عليه أى ثقلا؛ يقال منه : وَقِرت أذنُه (بفتح الواو) تَوْقَر وَقْرا أى صَمّت ، وقياس مصدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين . وقد وَقَر الله أذنَه يقِرها وَقْرا ؛ يقال : اللهم قِرْ أذنَه . وحكى أبو زيد عن العرب : أذنٌ موقورة على ما لم يُسمّ فاعله ؛ فعلى هذا وُقِرت (بضم الواو) . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « وِقْرًا » بكسر الواو؛ أى جعل فى آذانهم ما سدّها عن آستماع القول على التشبيه بوِقْر البعير، وهو مقدار ما يطيق أن يحمل، والوِقْر الحمل؛ يقال منه : نخلة مُوقِر ومُوقِرة إذا كانت ذات ثمر كثير . ورجل ذُو قِرة إذا كان وَقورا بفتح الواو؛ ويقال منه : وَقُر الرجل (بضم القاف) وقارا، ووَقَر (بفتح القاف) أيضا .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ أخبر الله تعالى بعنادهم لأنهم لما رأوا القمر منشقا قالوا : سحر؛ فأخبر الله عز وجل بردّهم الآيات بغير حجة .

---

(١) الزيادة عن ابن عطية ؛ أبو حيان : وحد الضمير فى «يستمع» حملا على لفظ «من» وجمعه فى «على قلوبهم» حملا على معناها . (٢) يعنى جعبة السهام، وقبيلة من مضر وبها سميت أرض الكنانة . (٣) فى ج : يفقهوه .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ ﴾ مجادلتهم قولهم : تأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله؛ عن ابن عباس . ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى قريشا؛ قال ابن عباس : قالوا للنضر بن الحرث : ما يقول محمد ؟ قال : أرى تحريك شفتيه وما يقول إلا أساطير الأولين، مثل ما أحدثكم عن القرون الماضية؛ وكان النضر صاحب قصص وأسفار، فسمع أقاصيص فى ديار العجم مثل قصة رُسْتُم واسفنديار فكان يحدثهم . وواحد الأساطير أسْطَار كأبيات وأبابيت[1]؛ عن الزجاج . قال الأخفش : واحدها أُسْطُورة كأحدوثة وأحاديث . أبو عُبيدة : واحدها إسْطَارة . النحاس : واحدها أسْطُور مثل عُثْكُول[2] . ويقال : هو جمع أسْطَار، وأسْطار جمع سَطْر؛ يقال: سَطْر وسَطَر . والسَّطر الشيء الممتد المؤلف كسطر الكتاب . القُشيرى : واحدها أسْطِير . وقيل : هو جمع لا واحد له كمذاكير وعَبَاديد[3] وأبابيل أى ما سطره الأولون فى الكتب . قال الجوهرى وغيره : الأساطير الأباطيل والتُّرهات .

قلت : أنشدنى بعض أشياخى :

تَطاولَ ليلِى واعترتنى وَسَاوِسى ◦ لِآتٍ أَتَى بالتُّرهات الأباطيل

قوله تعالى : وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ النَّهى الزجر، والنأْى البعد، وهو عام فى جميع الكفار أى ينهون عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وينأون عنه؛ عن ابن عباس والحسن . وقيل : هو خاص بأبى طالب ينهى الكفار عن أذاية محمد صلى الله عليه وسلم ، ويتباعد عن الإيمان به؛ عن ابن عباس أيضا . وروى أهلُ السِّير قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم قد خرج إلى الكعبة يوما وأراد أن يصلى ، فلما دخل فى الصلاة قال أبو جهل

---

(١) كذا فى أ و ب و ه و ك . وفى ز و ح : أنياب وأنابيب . وكلاهما جمع وجمع الجمع فليتأمل .

(٢) العثكول : العذق، وقيل : الشمراخ وهو ما عليه البسر من عيدان الكباسة .

(٣) العباديد والعبابيد بلا واحد من لفظهما : الفرق من الناس ، والخيل الذاهبون فى كل وجه ، والآكام والطرق البعيدة .

—لعنه الله— : من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته . فقام ابن الزِّبَعْرَى فأخذ فَرْثا ودما فلطّخ به وجه النبي صلى الله عليه وسلم؛ فٱنفتل النبيّ صلى الله عليه وسلم من صلاته، ثم أتى أبا طالب عمّه فقال : " يا عمّ ألا ترى إلى ما فُعِل بى" فقال أبو طالب: من فعل هذا بك؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : عبد الله بن الزِّبَعْرَى ؛ فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم ؛ فلما رأوا أبا طالب قد أقبل جعل القوم ينهضون ؛ فقال أبو طالب : والله لئن قام رجل لجلّلته بسيفي فقعدوا حتى دنا إليهم ، فقال : يابنيّ من الفاعل بك هذا ؟ فقال : " عبد الله بن الزِّبَعْرَى " ؛ فأخذ أبو طالب فَرْثا ودما فلطّخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول؛فنزلت هذه الآية « وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "يا عمّ نزلت فيك آية" قال : وما هى ؟ قال : " تمنع قريشا أن تؤذيني وتأبى أن تؤمن بى " فقال أبو طالب :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم * حتّى أُوسَّدَ فى التراب دَفِينَا
فٱصدَعْ بأمرك ما عليكَ غضاضةٌ * وٱبشر بذاك وَقَرَّ منك عُيونَا
ودَعوتَنى وزعمت أنك ناصحى * فلقد صَدَقتَ وكنتَ قبلُ أَمينَا
وَعرضتَ دِينًا قد عرفتُ بأنّهُ * مِن خَيرِ أَديانِ البريّةِ دِينَا
لولا المَلامةُ أو حِذارُ مَسَبّةٍ * لوجدْتَني سَمْحًا بذاك يَقِينَا (١)

فقالوا : يا رسول الله هل تنفع أبا طالب نصرته ؟ قال : "نعم دفع عنه بذاك الغُلّ ولم يُقرَن مع الشياطين ولم يَدخل فى جُبّ الحيّات والعقارب إنما عذابه فى نعلين من نار [فى رجليه] (٢) يَغلى منهما دماغه فى رأسه وذلك أهون أهل النار عذابا " . وأنزل الله على رسوله « فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ (٣) » . وفى صحيح مسلم عن أبى هُرَيرة قال قال رسول صلى الله عليه وسلم لعمه : " قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة " قال : لولا تُعيِّرنى قريش يقولون : إنما حمله على ذلك الجَزَع لأقررتُ بها عينك؛ فأنزل الله تعالى : « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (٤) » كذا الرواية المشهورة « الجزع » بالجيم والزاى ومعناه

(١) فى الواحدى وغيره : مبينا . (٢) من ج و ك و ع و ل و ه . (٣) راجع ج١٦ ص ٢٢٠ .
(٤) راجع ج١٣ ص٢٩٩ .

الخوف. وقال أبو عُبيد[1]: «الخَرع» بالخاء المنقوطة والراء المهملة. [قال][2] يعنى الضَّعف والخَوَر. وفى صحيح مسلم أيضا عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أهون أهل النار عذابا أبو طالب وهو منتعل بنعلين من نار يغلى منهما دماغه". وأما عبد الله ابن الزِّبَعْرى فإنه أسلم عام الفتح وحَسُن إسلامه، واعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبل عذره؛ وكان شاعرا مجيدا؛ فقال يمدح النبيّ صلى الله عليه وسلم، وله فى مدحه أشعار كثيرة ينسخ بها ما قد مضى فى كفره؛ منها قوله:

مَنع الرُّقادَ بَلابلٌ وهُمومُ * والليلُ مُعْتَلِجُ الرِّواقِ بَهِيمُ

مِمّا أتانى أنّ أحمد لامَنِى * فيه فبِتُّ كأنّنى مَحْمُومُ

يا خيرَ من حَمَلَتْ على أوصالِها * عَيْرانةٌ[3] سُرُحُ اليدينِ غَشُومُ

إنّى لمُعتذرٌ إليكَ من الذى * أسْدَيْتُ إذْ أنا فى الضَّلالِ أهِيمُ

أيامَ تأمُرُنى بأغْوَى خُطَّةٍ * سَهْمٌ وتأمُرُنى بها مَخْزُومُ

وأَمُدُّ أسبابَ الرَّدَى ويَقودُنى * أمرُ الغُواةِ وأمرُهم مَشْئُومُ

فاليومَ آمنَ بالنبيّ مُحمّدٍ * قلبى ومُخطئُ هذه مَحْرُومُ

مَضَتِ العداوةُ فانقضتْ أسبابُها * وأتتْ أواصرُ بيننا وحُلُومُ

فاغفرْ فِدًى لكَ والدايَ كلاهُما * زَلَلِى[4] فإنّكَ راحمٌ مَرْحُومُ

وعليكَ من سِمَةِ المليكِ علامةٌ * نُورٌ أغرُّ وخاتمٌ مَخْتُومُ

أعطاكَ بعدَ مَحبّةٍ بُرهانَهُ * شَرَفًا وبُرهانُ الإلهِ عَظيمُ

ولقد شَهِدتُ بأنّ دِينكَ صادقٌ * حَقًّا وأنّكَ فى العبادِ جَسيمُ

واللهُ يَشهدُ أنّ أحمدَ مُصطفًى * مُستقبَلٌ فى الصالحين كَريمُ

قَرْمٌ[5] علا بنيانُه من هاشمٍ * فَرْعٌ تَمكَّنَ فى الذُّرَى وأرُومُ

---

(١) فى ك و ى: أبو عبيدة. (٢) من ب و ح و ك و ب و ز و ه. (٣) الناقة ذات السرعة والنشاط، والناقة الصلبة. راجع ج ٥ ص ٢٠٦. (٤) فى ب و ح و ج و ك و ز و ه: وارحم. (٥) السيد العظيم.

وقيل : المعنى « يَنْهَوْنَ عَنْهُ » أى هؤلاء الذين يستمعون ينهون عن القرآن « وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ » . عن قَتَادة ؛ فالهاء على القولين الأوّلين فى « عنه » للنبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى قول قَتادة للقرآن . ﴿ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ « إن » نافية أى وما يهلكون إلا أنفسهم بإصرارهم على الكفر، وحملهم أوزار الذين يَصدُّونهم .

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ [أى إذ][1] وُقفوا غدًا ، و« إذْ » قد تستعمل فى موضع « إذا » و « إذا » فى موضع « إذْ » وما سيكون فكأنه كان ؛ لأن خبر الله تعالى حق وصدق ، فلهذا عُبِّر بالماضى . ومعنى « إِذْ وُقِفُوا » حبِسوا يقال : وَقَفته وَقْفا فوَقَف وُقوفا . وقرأ ابن السَّمَيْقع « إذْ وَقَفُوا » بفتح الواو والقاف من الوقوف . « عَلَى النَّارِ » أى هم فوقها على الصراط وهى تحتهم . وقيل : «على» بمعنى الباء ؛ أى وَقَفوا بقربها وهم يُعاينونها . وقال الضّحاك : جُمعوا ؛ يعنى على أبوابها . ويقال : وُقفوا على مَتْن جهنم والنار تحتهم . وفى الخبر : أن الناس كلهم يُوقفون على مَتْن جهنم كأنها مَتْن إهَالة[2] ، ثم يُنادِى منادٍ خُذى أصحابك ودَعِى أصحابى . وقيل : « وقفوا » دخلوها — أعاذنا الله منها — فعلى بمعنى « فى » أى وقفوا فى النار . وجواب « لو » محذوف ليذهب الوهم إلى كل شىء فيكون أبلغ فى التخويف ؛ والمعنى : لو تراهم فى تلك الحال لرأيت أسوأ حال، أو لرأيت منظرا هائلا ، أو لرأيت أمرا عجبا وما كان مثل هذا التقدير .

قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالرفع فى الأفعال الثلاثة عطفا قراءة أهل المدينة والكسائى ؛ وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بالضم[3] . ابن عامر على رفع « نكذّبُ » ونصب « ونكونَ » وكله داخل فى معنى التمنى ؛ أى تَمَنَّوا الرّدّ

---

(١) من ب و جـ و ع و ى . (٢) الإهالة الشحم المذاب ؛ ومتن الإهالة ظهرها إذا سكبت فى الإناء ؛ فشبه سكون جهنم قبل أن يصير فيها الكفار بذلك . « اللسان » . (٣) أى بالرفع فى كلها كما فى ابن عطية .

والّا يكذبوا وأن يكونوا من المؤمنين . واختار سيبويه القطع فى « ولا نكذبُ » فيكون غير داخل فى التمنى ؛ المعنى : ونحن لا نُكذّبُ على معنى الثبات على ترك التكذيب ؛ أى لا نكذبُ رُددنا أو لم نُرَدّ؛ قال سيبويه : وهو مثل قوله دعنى ولا أعود أى لا أعود على كل حال تركتنى أو لم تتركنى . واستدل أبو عمرو على خروجه من التمنى بقوله : «وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» لأن الكذب لا يكون فى التمنى إنما يكون فى الخبر . وقال من جعله داخلا فى التمنى : المعنى وإنهم لكاذبون فى الدنيا فى إنكارهم البعث وتكذيبهم الرسل . وقرأ حمزة وحفص بنصب « نكذب » و « نكون » جوابا للتمنى ؛ لأنه غير واجب، وهما داخلان فى التمنّى على معنى أنهم تمنّوا الرد وترك التكذيب والكون مع المؤمنين . قال أبو إسحق : معنى « ولا نكذّب » أى إن رُددنا لم نكذب . والنصب فى « نكذب » و « نكون » بإضمار « أَنْ » كما ينصب فى جواب الاستفهام والأمر والنهى والعَرْض؛ لأن جميعه غير واجب ولا واقع بعد ، فينصب الجواب مع الواو كأنه عطف على مصدر الأول ؛ كأنهم قالوا : ياليتنا يكون لنا ردٌّ ، وانتفاءٌ من الكذب ، وكونٌ من المؤمنين؛ فحملا على مصدر « نُرَدّ » لانقلاب المعنى إلى الرفع، ولم يكن بدّ من إضمار « أنْ » فيه يتم النصب فى الفعلين . وقرأ ابن عامر « وَنَكُونَ » بالنصب على جواب التمنى كقولك : ليتك تصير إلينا ونكرمك ، أى ليت مصيرك يقع وإكرامنا يقع ، وأدخل الفعلين الأولين فى التمنى، أو أراد: ونحن لا نكرمك(1) على القطع على ما تقدّم ؛ يحتمل . وقرأ أبىّ « ولا(2) نكذب بآياتِ ربنا أبدا » . وعنه وابن مسعود « يَالَيْتَنَا نُرَدُّ فَلَا نُكَذِّبَ » بالفاء والنصب ، والفاء ينصب بها فى الجواب كما ينصب بالواو ؛ عن الزجاج . وأكثر البصريين لا يجيزون الجواب إلا بالفاء .

قوله تعالى : بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٧﴾

---

(1) فى ك . (2) كذا فى الأصول ؛ والذى فى البحر : وقرأ أبى « فلا نكذب بآيات ربنا أبدا » .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ بل إضراب عن تمنيهم وادعائهم الإيمان لو رُدّوا . واختلفوا فى معنى « بَدَا لَهُمْ » على أقوال بعد تعيين مَن المراد ؛ فقيل : المراد المنافقون لأن اسم الكفر مشتمل عليهم ، فعاد الضمير على بعض المذكورين ؛ قال النحاس : وهذا من الكلام العَذْب الفصيح . وقيل : المراد الكفار وكانوا إذا وعظهم النبيّ صلى الله عليه وسلم خافوا وأخفوا ذلك الخوف لئلا يَفْطَن بهم ضعفاؤهم ، فيظهر يوم القيامة ؛ ولهذا قال الحسن : « بَدَا لَهُمْ » أى بدا لبعضهم ما كان يُخفيه عن بعض . وقيل : بل ظهر لهم ما كانوا يجحدونه من الشرك فيقولون : « وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » فينطق الله جوارحهم فتشهد عليهم بالكفر فذلك حين « بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ » . قاله أبو رَوْق[1] . وقيل : « بَدَا لَهُمْ » ما كانوا يكتمونه من الكفر؛ أى بدت أعمالهم السيئة كما قال : « وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ[2] » . قال المبرّد : بدا لهم جزاء كفرهم الذى كانوا يخفونه . وقيل : المعنى بل ظهر للذين اتبعوا الغُواة ما كان الغُواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة ؛ لأن بعده « وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا ﴾ قيل : بعد معاينة العذاب . وقيل : قبل معاينته . ﴿ لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ أى لصاروا ورجعوا إلى ما نُهوا عنه من الشّرك لعلم الله تعالى فيهم أنهم لا يؤمنون؛ وقد عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند . قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ إخبار عنهم ، وحكاية عن الحال التى كانوا عليها فى الدنيا من تكذيبهم الرسل ، و إنكارهم البعث ؛ كما قال : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ[3] » بجعله حكاية عن الحال الآتية . وقيل : المعنى وإنهم لكاذبون فيما أخبروا به عن أنفسهم من أنهم لا يكذبون و يكونون من المؤمنين . وقرأ يحيى ابن وثّاب « وَلَوْ رِدُّوا » بكسر الراء ؛ لأن الأصل رُدِدوا فنقلت كسرة الدال على الراء .

قوله تعالى : وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾

---

(١) أبو روق : (بفتح الراء وسكون الواو بعدها قاف) هو عطية بن الحرث الهمدانى الكوفى ؛ ذكره ابن سعد فى الطبقة الخامسة وقال : هو صاحب التفسير . (التهذيب) .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٤ .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٩٩ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ ابتداء وخبر و « إن » نافية « وَمَا نَحْنُ » «نحن» اسم « ما » و ﴿ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ خبرها ؛ وهذا ابتداء إخبار عنهم عما قالوه فى الدنيا . قال ابن زيد : هو داخل فى قوله : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ » « وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » أى لعادوا إلى الكفر ، واشتغلوا بلذة الحال . وهذا يحمل على المعاند كما بيّناه فى حال إبليس ، أو على أن الله يَلْبِس[(1)] عليهم بعد ما عَرَفوا ، وهذا شائع فى العقل .

قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ « وُقِفُوا » أى حُبِسوا « عَلَى رَبِّهِمْ » أى على ما يكون من أمر الله فيهم . وقيل : « على » بمعنى « عند » أى عند ملائكته وجزائه ؛ وحيث لا سلطان فيه لغير الله عز وجل ؛ تقول : وقفت على فلان أى عنده ؛ وجواب « لو » محذوف لعظم شأن الوقوف . ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ تقرير وتوبيخ أى أليس هذا البعث كائنا موجودا ؟ ! ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ ويؤكدون اعترافهم بالقَسَم بقولهم : ﴿ وَرَبِّنَا ﴾ . وقيل : إن الملائكة تقول لهم بأمر الله أليس هذا البعث وهذا العذاب حقا ؟ فيقولون : « بَلَى وَرَبِّنَا » إنه حق . ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾ قيل : بالبعث بعد الموت وبالجزاء ؛ دليله قوله عليه السلام : " مَن حلَف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقى اللهَ وهو عليه غضبان " أى لقى جزاءه ؛ لأن من غضب عليه لا يرى الله عند مثبتى الرؤية ، ذهب

(1) فى ب و ج و ه و ع : الرب .

إلى هذا القفّال وغيره ؛ قال القُشَيْرِى : وهذا ليس بشيء ؛ لأن حمل اللقاء فى موضع على الجزاء لدليل قائم لا يوجب هذا التأويل فى كل موضع ، فليحمل اللقاء على ظاهره فى هذه الآية ؛ والكفار كانوا ينكرون الصانع ، ومنكر الرؤية منكر للوجود !.

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها . ومعنى « بغتة » فجأة؛ يقال : بَغَتَهم الأمرُ يَبْغَتُهم بَغْتًا وبَغْتَةً . وهى نصب على الحال؛ وهى عند سيبويه مصدر فى موضع الحال ، كما تقول : قتلته صَبْرًا . وأنشد : (١)

فَلَأْيًا بِلَأْيٍ ما حَمَلْنا وَلِيدَنا * على ظَهْرِ مَحْبُوكٍ ظِمَاءٍ مَفَاصِلُهُ

ولا يجيز سيبويه أن يقاس عليه ؛ لا يقال : جاء فلان سُرْعَةً .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا ﴾ وقع النداء على الحسرة وليست بمنادى فى الحقيقة، ولكنه يدل على كثرة التحسر ، ومثله ياللعجب و ياللرخاء وليسا بمنادين فى الحقيقة ، ولكنه يدل على كثرة التعجب والرخاء ؛ قال سيبويه : كأنه قال يا عجبُ تعالَ فهذا زمن إتيانك ؛ وكذلك قولك يا حسرتى [أى يا حسرتا] (٢) تعالى فهذا وقتك ؛ وكذلك مالا يصح نداؤه يجرى هذا المجرى ، فهذا أبلغ من قولك تعجبت . ومنه قول الشاعر :

* فيا عجبًا من رَحْلِها المتحمَّلِ * (٣)

وقيل : هو تنبيه للناس على عظيم ما يحل بهم من الحسرة ؛ أى يأيها الناس تَنَبَّهوا على عظيم ما بى من الحسرة ، فوقع النداء على غير المنادى حقيقة ؛ كقولك : لا أرينَّك هاهنا . فيقع النهى على غير المنهى فى الحقيقة .

---

(١) البيت لزهير بن أبى سلمى ، والشاهد فيه قوله : (لأيا بلأى) ونصبه على المصدر الموضوع فى موضع الحال ، والتقدير حملنا وليدنا مبطئين مائتين . وصف فرسا بالنشاط وشدّة الخلق فيقول : إذا حملنا الغلام عليه ليصيد امتنع لنشاطه فلم نحمله إلا بعد إبطاء وجهد ؛ واللأى الإبطاء ، المحبوك الشديد الخلق ، والظماء هنا القليلة اللحم — وهو المحمود منها — وأصل الظمأ العطش . (شواهد سيبويه) . (٢) من ب ، جـ ، ك ، ع .

(٣) شطر بيت من معلقة امرئ القيس وصدره : * ويوم عقرت للعذارى مطيّتى *

قوله تعالى : ﴿ عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ أى فى الساعة ، أى فى التقدمة لها ؛ عن الحسن . و « فَرَّطْنَا » معناه ضيعنا وأصله التقدّم ؛ يقال : فَرَط فلانٌ أى تقدّم وسبق إلى الماء ، ومنه " أنا فَرَطكم على الحوض " . ومنه الفَارط أى المتقدّم للماء ، ومنه — فى الدعاء للصبيّ — اللهم اجعله فَرَطا لأبويه ؛ فقولهم : « فَرَّطْنَا » أى قدمنا العجز . وقيل : « فَرَّطْنَا » أى جعلنا غيرنا الفارط السابق لنا إلى طاعة الله وتخلّفنا . « فيها » أى فى الدنيا بترك العمل للساعة . وقال الطّبَريّ : (الهاء) راجعة إلى الصَّفْقة ، وذلك أنهم لما تبيّن لهم خسران صَفْقتهم ببيعهم الإيمان بالكفر ، [والآخرة بالدنيا] (١) ، « قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا » أى فى الصَّفْقة ، وترك ذكرها لدلالة الكلام عليها ؛ لأن الخسران لا يكون إلا فى صفقة بيع ؛ دليله قوله : « فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ » (٢) . وقال السُّدّيّ : على ما ضيّعنا أى من عمل الجنة . وفى الخبر عن أبى سعيد الخُدْرِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية قال : " يرى أهل النار منازلهم فى الجنة فيقولون : « يَا حَسْرَتَنَا » "

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ ﴾ أى ذنوبهم جمع وِزر . ﴿ عَلَى ظُهُورِهِمْ ﴾ مجاز وتوسّع وتشبيه بمن يحمل ثقلا ؛ يقال منه : وَزَر يَزِر ، ووُزِر يُوزَر فهو وازرٌ وموزور ؛ وأصله من الوَزَر وهو الجبل . ومنه الحديث فى النساء اللواتى خرجن فى جنازة " ارجعن مَوْزورات غير مأجورات " قال أبو عبيد : والعامة تقول : « مأزورات » كأنه لا وجه له عنده ؛ لأنه من الوزر . قال أبو عبيد : ويقال للرجل إذا بسط ثوبه فجعل فيه المتاع احمل وِزْرك أى ثِقْلك . ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال ما يُسنَد إليه من تدبير الولاية : والمعنى أنهم لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها . ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أى ما أسوأ الشيء الذى يحملونه .

قوله تعالى : وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

(١) فى الأصول : والدنيا بالآخرة .
(٢) راجع جـ ١ ص ٢١٠ .

فيـه مسئلتان :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أى لقصر مدّتها كما قال :

أَلَا إنما الدُّنْيا كأحـلام نائم * وما خيرُ عيش لا يكونُ بدائم

تَأَمَّلْ إذا ما نلتَ بالأمس لَذَّةً * فأفنيتَها هـل أنت إلاّ كحالم

وقال آخر :

فاْعمل على مَهَـلٍ فإنك ميّتٌ * واْكدحْ لنفسك أيّها الإنسانُ

فكأنّ ما قد كان لم يكُ إذ مَضَى * وكأنّ ما هـو كائنٌ قـد كانا (١)

وقيل : المعنى متاعُ الحياة الدنيا لعبٌ ولهـو ؛ أى الذى يشتهونه فى الدنيا لا عاقبة له ، فهـو بمنزلة اللعب واللهو . ونظر سليمان بن عبد الملك فى المـرآة فقال : أنا الملك الشابّ ؛ فقالت له جارية له :

أنتَ نِعْمَ المتـاعُ لو كنتَ تَبْقَى * غير أنْ لا بقـاءَ للإنسانِ

ليس فيما بَدَا لنـا منكَ عيبٌ * كان فى النّـاس غير أنّك فانى (٢)

وقيل : معنى «لَعِبٌ وَلَهْوٌ» باطل وغرور، كما قال : «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» (٣) فالمقصد بالآية تكذيب الكفّار فى قولهم : «إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا» . واللعب معروف ، والتِّلعابة الكثير اللّعب ، والمَلْعَب مكان اللّعب ؛ يقال : لَعِب يلْعَب . واللّهو أيضا معروف ، وكل ماشَغَلك فقد ألهـاك ، ولهوتُ من اللهو ، وقيل : أصـله الصّرف عن الشىء ؛ من قولهم : لَهَيتُ عنه ؛ قال المهدوىّ : وفيه بُعـدٌ ؛ لأن الذى معناه الصّرف لامه ياء بدليـل قولهم : لِهْيَانُ ، ولام الأول واو .

الثانيـة ـ ليس من اللّهـو واللّعب ما كان من أمور الآخرة ، فإن حقيقة اللّعب مالا ينتفع به واللّهو ما يُلتهى به ، وما كان مرادا للآخرة خارج عنهما ؛ وذمّ رجل الدنيا عند علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه فقال علىّ : الدنيا دار صدق لمن صَدَقها ، ودار نجاة لمن فَهِم عنها ، ودار غِنًى لمن تزود منها (٤) . وقال محمود الورّاق :

(١) فيه إقواء . (٢) فى هامش ب : عابه الناس . (٣) راجع جـ ١٧ ص ٢٥٥ .

(٤) فى ك : تجارة .

لا تُتبِع الدُّنيا وأيامَها * ذمًّا وإنْ دارتْ بك الدائرهْ
من شرفِ الدُّنيا ومن فضلِها * أن بها تُستدركُ الآخرهْ

وروى أبو عمر بن عبد البر عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ مافيها إلا ما كان فيها من ذكر الله أو أدَّى إلى ذكر الله والعالم والمتعلم شريكان فى الأجر وسائر الناس هَمَجٌ لا خير فيه" وأخرجه الترمذى عن أبى هريرة وقال : حديث حسن غريب . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من هَوانِ الدنيا على الله ألّا يُعصَى إلا فيها ولا يُنالُ ما عنده إلا بتركها" . وروى الترمذى عن سَهْل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو كانت الدنيا تَعدِل عند الله جناحَ بَعوضة ما سَقَى كافرا منها شَرْبةَ ماء" . وقال الشاعر :

تَسمَّعْ(1) من الأيام إن كنتَ حازمًا * فإنّك منها بين ناهٍ وآمرِ
إذا أبقتِ الدنيا على المرء دِينَه * فما فات من شيء فليس بضائرِ
ولن تَعدِلَ الدنيا جناحَ بَعوضةٍ * ولا وَزْن زِفٍّ(2) من جَناحٍ لطائرِ
فما رَضِىَ الدنيا ثوابا لمؤمنٍ(3) * ولا رضى الدنيا جزاءً لكافرِ

وقال ابن عباس : هذه حياة الكافر لأنه يُزجيها(4) فى غرور وباطل، فأما حياة المؤمن فتنطوى على أعمال صالحة ، فلا تكون لهوا ولعبا .

قوله تعالى : ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ أى الجنة لبقائها، وسميت آخرة لتأخرها عنا ، والدنيا لدنوها منا .

وقرأ ابن عامر « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ » بلام واحدة ، والإضافة على تقدير حذف المضاف وإقامة الصفة مقامه، التقدير : ولدار الحياةِ الآخرةِ . وعلى قراءة الجمهور « وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ » اللام لام الابتداء، ورفع الدار بالابتداء، وجعل الآخرة نعتا لها والخبر « خَيْرٌ لِلَّذِينَ » يقويه

---

(1) كذا فى الأصول . وهو المعنى المراد . وفى ط الأولى : تمتع . (2) الزف (بالكسر) : صغير الريش ، وخص بعضهم به ريش النعام ؛ وورد فى أدب الدنيا والدين (وزن ذر) . (3) كذا فى الأصول . بل الدنيا جزاء الكافر لقوله عليه الصلاة والسلام "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" . (4) يزجى الأيام يدافعها .

« تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ » [1] « وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ » [1] فأتت الآخرة صفة للدار فيهما . ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أى الشرك . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ قرئ بالياء والتاء؛ أى أفلا يعقلون أن الأمر هكذا فيزهدوا فى الدنيا . والله أعلم .

قوله تعالى : قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ ﴾ كسرت « إن » لدخول اللام . قال أبو ميسرة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرّ بأبى جهل وأصحابه فقالوا : يا محمد والله ما نُكذّبك وإنك عندنا لصادق، ولكن نُكذّب ما جئتَ به ؛ فنزلت هذه الآية ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ ثم آنسه بقوله : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الآية . وقرئ « يُكَذِّبُونَكَ » ، مخففا ومشددا ؛ قيل : هما بمعنى واحد كحزنته وأحزنته ؛ واختار أبو عُبيد قراءة التخفيف ، وهى قراءة علىّ رضى الله عنه ؛ وروى عنه أن أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم : إنا لا نكذّبك ولكن نكذّب ماجئت به ؛ فأنزل الله عز وجل « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ » . قال النحاس : وقد خولف أبو عُبيد فى هذا . وروى : لا نُكذبك . فأنزل الله عز وجل : « لَا يُكْذِبُونَكَ » . ويقوى هذا أن رجلا قرأ على ابن عباس « فَإِنَّهُمْ لَا يُكْذِبُونَكَ » مخففا فقال له ابن عباس : « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ » ؛ لأنهم كانوا يسمون النبى صلى الله عليه وسلم الأمين . ومعنى « يُكَذِّبُونَكَ » عند أهل اللغة ينسبونك إلى الكذب، ويردّون عليك ما قلت . ومعنى « لَا يُكْذِبُونَكَ » أى لا يجدونك تأتى بالكذب؛ كما تقول : أكذبته وجدته كذابا ، وأبخلته وجدته بخيلا ، أى لا يجدونك كذابا إن تدبّروا ما جئت به . ويجوز أن يكون المعنى : لا يثبتون عليك أنك كاذب؛ لأنه يقال : أكذبته

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٠ ، ص ٣٦١ .

التكذيب عليه وجهت أنه كاذب . وعلى التشديد : لا يكذبونك بحجة ولا برهان؛ ودل على هذا ﴿ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ . قال النحاس : والقول فى هذا مذهب أبى عبيد ، واحتجاجه لازم ؛ لأن عليا كرم الله وجهه هو الذى روى الحديث، وقد صح عنه أنه قرأ بالتخفيف ؛ وحكى الكسائى عن العرب : أكذبت الرجل إذا أخبرت أنه جاء بالكذب ورواه، وكذبته إذا أخبرت أنه كاذب ؛ وكذلك قال الزجاج : كذبته إذا قلت له كذبت، وأكذبته إذا أردت أن ما أتى به كذب .

قوله تعالى :﴿ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا ﴾ أى فاصبر كما صبروا .﴿ وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ أى عوننا ، أى فسيأتيك ما وعدت به . ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ مبين لذلك النصر ؛ أى ما وعد الله عز وجل به فلا يقدر أحد أن يدفعه ؛ لا ناقض لحكمه، ولا خلف لوعده؛ و « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ »[1] « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا »[2] « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ »[2] « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي »[3] . ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فاعل « جاءك » مضمر؛ المعنى: جاءك من نبإ المرسلين نبأ .

قوله تعالى : وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾ أى عظم عليك إعراضهم وتوليهم عن الإيمان . ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ ﴾ قدرت ﴿ أَن تَبْتَغِيَ ﴾ تطلب ﴿ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى سربا تخلص منه إلى مكان آخر، ومنه النافقاء[4] لجحر اليربوع[5]، وقد تقدم فى « البقرة » بيانه ، ومنه المنافق وقد تقدم . ﴿ أَوْ سُلَّمًا ﴾ معطوف عليه، أى سببا إلى السماء؛ وهذا تمثيل؛ لأن السلم الذى يرتقى عليه سبب إلى الموضع، وهو مذكر، ولا يعرف ما حكاه الفراء من تأنيث السلم. قال قتادة : السلم الدرج . الزجاج : وهو مشتق من السلامة كأنه[6] يسلمك إلى الموضع الذى

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٧ (٢) راجع جـ ١٥ ص ١٣٢ و ص ١٣٩ (٣) راجع جـ ١٧ ص ٣٠٦
(٤) راجع جـ ١ ص ١٧٨ . (٥) فى ك : « نافقه » . (٦) فى ك : « لأنه » .

تريد . ﴿ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ عطف عليه أى ليؤمنوا فافعل؛ فأضمر الجواب لعلم السامع . أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ألا يشتدّ حزنه عليهم إذا كانوا لا يؤمنون؛ كما أنه لا يستطيع هداهم .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ أى لخلقهم مؤمنين وطبعهم عليه؛ بين تعالى أن كفرهم بمشيئة الله ردًا على القدرية . وقيل المعنى : أى لأراهم آية تضطرهم إلى الإيمان، ولكنه أراد عز وجل أن يثيب منهم من آمن ومن أحسن . ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى من الذين اشتدّ حزنهم وتحسروا حتى أخرجهم ذلك إلى الجزع الشديد ، وإلى ما لا يحل ؛ أى لا تحزن على كفرهم فتقارب حال الجاهلين . وقيل : الخطاب له والمراد الأمة؛ فإن قلوب المسلمين كانت تضيق من كفرهم وإذايتهم .

قوله تعالى : إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ أى سماع إصغاء وتفهم وإرادة الحق، وهم المؤمنون الذين يقبلون ما يسمعون فينتفعون به ويعملون؛ قال معناه الحسن ومجاهد ، وتمّ الكلام . ثم قال : ﴿ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ﴾ وهم الكفار؛ عن الحسن ومجاهد؛ أى هم بمنزلة الموتى فى أنهم لا يقبلون ولا يصغون الى حجة . وقيل : الموتى كل من مات : «يبعثهم الله» أى للحساب ، وعلى الأول بعثهم هدايتهم الى الإيمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم . وعن الحسن : هو بعثهم من شركهم حتى يؤمنوا بك يا محمد — يعنى عند حضور الموت — فى حال الإلجاء فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ قال الحسن : «لولا» هاهنا بمعنى هلا ؛ وقال الشاعر[1] :

تعدّون عقر النيب أفضل مجدكم ⁂ بنى ضوطرى لولا الكمىّ المقنّعا

---

(١) هو الفرزدق يفتخر فى شعره بكرم أبيه غالب ، وعقره مائة ناقة فى معاقرة سحيم بن وثيل الرياحى فى موضع يقال له « صوأر » على مسيرة يوم من الكوفة ولذلك يقول جريرا أيضا :

وقد سرنى ألا تعدّ مجاشع ⁂ من المجد إلا عقر نيب بصوأر

وبنو ضوطرى تقال للقوم إذا كانوا لا يغنون عناء .

وكان هذا منهم تعنتا بعد ظهور البراهين، وإقامة الحجة بالقرآن الذى عجزوا أن يأتوا بسورة مثله لما فيه من الوصف وعلم الغيوب. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى لا يعلمون أن الله عز وجل إنما ينزل من الآيات ما فيه مصلحة لعباده، وكان فى علم الله أن يخرج من أصلابهم أقواما يؤمنون به ولم يرد استئصالهم. وقيل: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» أن الله قادر على إنزالها. الزجاج: طلبوا أن يجمعهم على الهدى أى جمع إلجاء.

قوله تعالى: وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ تقدم معنى الدابة والقول فيه فى «البقرة»[٢] وأصله الصفة، من دب يدب فهو داب إذا مشى مشيا فيه تقارب خطو. ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ بخفض «طائر» عطفا على اللفظ.

وقرأ الحسن وعبد الله بن أبى إسحق «وَلَا طَائِرٌ» بالرفع عطفا على الموضع، و «من» زائدة، التقدير: وما دابةٌ. «بِجَنَاحَيْهِ» تأكيد وإزالة للإبهام؛ فإن العرب تستعمل الطيران لغير الطائر، تقول للرجل: طِرْ فى حاجتى، أى أسرع؛ فذكر «بجناحيه» ليتمحض القول فى الطير، وهو فى غيره مجاز. وقيل: إن اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران، ولو كان غير معتدل لكان يميل؛ فأعلمنا أن الطيران بالجناحين و «مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ»[٣].

والجناح أحد ناحيتى الطير الذى يتمكن به من الطيران فى الهواء، وأصله الميل إلى ناحية من النواحى؛ ومنه جنحت السفينة إذا مالت إلى ناحية الأرض لاصقة بها فوقفت. وطائر الإنسان عمله؛ وفى التنزيل «وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ»[٣]. ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أى هم جماعات مثلكم فى أن الله عز وجل خلقهم، وتكفل بأرزاقهم، وعدل عليهم، فلا ينبغى

---

(١) فى ب وع: الرصف. وهو نظم الشىء بعضه إلى بعض. (٢) راجع جـ ٢ ص ١٩٦.
(٣) راجع جـ ١٠ ص ١٥١، ص ٢٢٩.

أن تظلموهم ، ولا تجاوزوا فيهم ما أمرتم به . و « دابة » تقع على جميع ما دب ؛ وخص بالذكر ما فى الأرض دون السماء لأنه الذى يعرفونه ويعاينونه . وقيل : هى أمثال لنا فى التسبيح والدلالة ؛ والمعنى : وما من دابة ولا طائر إلا وهو يسبح الله تعالى ، ويدل على وحدانيته لو تأمل الكفار . وقال أبو هريرة : هى أمثال لنا على معنى أنه يحشر البهائم غدا ويقتص للجماء من القرناء ثم يقول الله لها : كونى ترابا . وهذا اختيار الزجاج فإنه قال : « إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ » فى الخلق والرزق والموت والبعث والاقتصاص ، وقد دخل فيه معنى القول الأول أيضا . وقال سفيان بن عيينة : أى ما من صنف من الدواب والطير إلا فى الناس شبه منه ؛ فمنهم من يعدو كالأسد ، ومنهم من يشره كالخنزير ، ومنهم من يعوى كالكلب ، ومنهم من يزهو كالطاوس ؛ فهذا معنى المماثلة . واستحسن الخطابى هذا وقال : فإنك تعاشر البهائم والسباع فخذ حذرك . وقال مجاهد فى قوله عز وجل : « إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ » قال : أصناف لهن أسماء تعرف بها كما تعرفون . وقيل غير هذا مما لا يصح من أنها مثلنا فى المعرفة ، وأنها تحشر وتنعم فى الجنة ، وتعوض من الآلام التى حلت بها فى الدنيا وأن أهل الجنة يستأنسون بصورهم ؛ والصحيح « إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ » فى كونها مخلوقة دالة على الصانع محتاجة إليه مرزوقة من جهته ؛ كما أن رزقكم على الله . وقول سفيان أيضا حسن ؛ فإنه تشبيه واقع فى الوجود .

قوله تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث . وقيل : أى فى القرآن أى ما تركنا شيئا من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه فى القرآن ؛ إما دلالة مبينة مشروحة ، وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو من الإجماع ، أو من القياس الذى ثبت بنص الكتاب ؛ قال الله تعالى : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ »[1] وقال : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »[1] وقال : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »[2] فأجمل فى هذه الآية وآية « النحل » ما لم ينص عليه مما لم يذكره ، فصدق خبر الله بأنه ما فرط فى الكتاب من شىء إلا ذكره ، إما تفصيلا وإما تأصيلا ؛ وقال : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »[3] .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٦٤ ، ص ١٠٨ . (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٧ .

(٣) راجع ص ٦١ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ أى للجزاء، كما سبق فى خبر أبى هُريرة، وفى صحيح مسلم عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لتؤدَّنَّ(١) الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء(٢) من الشاة القرناء" . ودلّ بهذا على أن البهائم تحشر يوم القيامة؛ وهذا قول أبى ذر وأبى هريرة والحسن وغيرهم، وروُى عن ابن عباس؛ قال ابن عباس فى رواية : حشرُ الدوابّ والطير موتُها ؛ وقاله الضحاك ؛ والأوّل أصح لظاهر الآية والخبر الصحيح ؛ وفى التنزيل « وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ(٣) » وقول أبى هُريرة فيما روى جعفر بن بُرقان(٤) عن يزيد ابن الأصم عنه : يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطير وكل شىء؛ فيبلغ من عدل الله تعالى يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول : « كُونِى تُرَابًا » فذلك قوله تعالى : « وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا(٣) » . وقال عطاء : فإذا رأوا بنى آدم وما هم عليه من الجزَع قلن : الحمد لله الذى لم يجعلنا مثلكم، فلا جنة نرجو ولا نار نخاف ؛ فيقول الله تعالى لهن: «كُنَّ تُرَابًا» فحينئذ يتمنى الكافر أن يكون تُرابا . وقالت جماعة : هذا الحشر الذى فى الآية يرجع إلى الكفار وما تخلّل كلامٌ معترضٌ وإقامة حُجج ؛ وأما الحديث فالمقصود منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص والاعتناء فيه حتى يفهم منه أنه لا بد لكل أحد منه، وأنه لا محيص له عنه ؛ وعضدوا هذا بما فى الحديث فى غير الصحيح عن بعض رواته من الزيادة فقال : حتى يقاد للشاة الجلْحاء من القرْناء ، وللحجر لما ركب على الحجر، وللعود لما خدَش العود؛ قالوا : فظهر من هذا أن المقصود منه التمثيل المفيد للاعتبار والتهويل،لأن الجمادات لا يُعقَل خطابها ولا ثوابُها ولا عقابُها، ولم يصر إليه أحد من العقلاء، ومتخيله من جملة المعتوهين الأغبياء؛ قالوا : ولأن القلم لا يجرى عليهم فلا يجوز أن يؤاخذوا.

قلت : الصحيح القول الأوّل لما ذكرناه من حديث أبى هريرة ، وإن كان القلم لا يجرى عليهم فى الأحكام ولكن فيما بينهم يؤاخذون به؛ وروى عن أبى ذر قال : انتطحت شاتان عند النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : " يا أبا ذرّ هل تدرى فيما انتطحتا " ؟ قلت :

(١) لتؤدَّن (بفتح الدال المشددة) وفى بعض النسخ بضمها ؛ فالحقوق بالرفع على الأول والنصب على الثانى .

(٢) الجلحاء : التى لا قرن لها . (٣) راجع جـ ١٩ ص ٢٢٧ وص ١٨٦ .

(٤) برقان (بالكسر والضم) . (القاموس) .

لا . قال : " لكن الله تعالى يدرى وسيقضى بينهما " وهذا نص ، وقد زدناه بيانا فى كتاب « التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » . والله أعلم .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩) قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ ﴾ ابتداء وخبر ، أى عدموا الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم ؛ فكل أمة من الدواب وغيرها تهتدى لمصالحها والكفار لا يهتدون ؛ وقد تقدم فى « البقرة »[1] . ﴿ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ أى ظلمات الكفر . وقال أبو على : يجوز أن يكون المعنى « صم وبكم » فى الآخرة ؛ فيكون حقيقة دون مجاز اللغة . ﴿ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ ﴾ دلّ على أنه شاء ضلال الكافر وأراده لينفذ فيه عدله ؛ ألا ترى أنه قال : ﴿ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى على دين الإسلام لينفذ فيه فضله . وفيه إبطال لمذهب القَدَرية . والمشيئة راجعة إلى الذين كذبوا ، فمنهم من يضله ومنهم من يهديه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ ﴾ وقرأ نافع بتخفيف الهمزتين ، يلقى حركة الأولى على ماقبلها ، و يأتى بالثانية بَيْنَ بَيْنَ . وحكى أبو عُبيد عنه أنه يسقط الهمزة و يعوض منها ألفا . قال النحاس : وهذا عند أهل العربية غلط عليه ؛ لأن الياء ساكنة والألف ساكنة ولا يجتمع ساكنان . قال مكىّ : وقد روى عن وَرْش أنه أبدل من الهمزة ألفا ؛ لأن الرواية عنه أنه يمدّ الثانية ، والمد لا يتمكن إلا مع البدل ، والبدل فرع عن الأصول ، والأصل أن تجعل

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٤ .

الهمزة بين الهمزة المفتوحة والألف؛ وعليه كل من خفف الثانية غير ورش ؛ وحسن جواز البدل فى الهمزة وبعدها ساكن لأن الأول حرف مدّ ولين، فالمدّ الذى يحدث مع الساكن يقوم مقام حركة يوصل بها إلى النطق بالساكن الثانى .

وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة «أَرَأَيْتَكُمْ» بتحقيق الهمزتين وأتوا بالكلمة على أصلها، والأصل الهمز؛ لأن همزة الاستفهام دخلت على «رأيت» فالهمزة عين الفعل، والياء ساكنة لاتصال المضمر المرفوع بها .

وقرأ عيسى بن عمر والكسائى «أَرَيْتَكُمْ» بحذف الهمزة الثانية . قال النحاس : وهذا بعيد فى العربية، وإنما يجوز فى الشعر؛ والعرب تقول : أرأيتك زيدا ما شأنه . ومذهب البصريين أن الكاف والميم للخطاب، لا حظ لها فى الإعراب؛ وهو اختيار الزجاج . ومذهب الكسائى والفراء وغيرهما أن الكاف والميم نصب بوقوع الرؤية عليهما، والمعنى أرأيتم أنفسكم؛ فإذا كانت للخطاب ـ زائدة للتأكيد ـ كان « إن » من قوله ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ ﴾ فى موضع نصب على المفعول لرأيت ، وإذا كان آسما فى موضع نصب فـ « إن » فى موضع المفعول الثانى؛ فالأول من رؤية العين لتعدّيها لمفعول واحد، وبمعنى العلم تتعدّى إلى مفعولين . وقوله : ﴿ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ﴾ المعنى : أو أتتكم الساعة التى تبعثون فيها . ثم قال : ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ والآية فى محاجّة المشركين ممن آعترف أن له صانعا؛ أى أنتم عند الشدائد ترجعون إلى الله، وسترجعون إليه يوم القيامة أيضا فلم تصرّون على الشرك فى حال الرفاهية ؟ ! وكانوا يعبدون الأصنام ويدعون الله فى صرف العذاب .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ « بل » إضراب عن الأول وإيجاب للثانى . « إياه » نصب بـ « تدعون » ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾ أى يكشف الضرّ الذى تدعون إلى كشفه إن شاء كشفه . ﴿ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ قيل : عند نزول العذاب . وقال الحسن : أى تعرضون عنه إعراض الناسى، وذلك لليأس من النجاة من قبله إذ لا ضرر فيه ولا نفع . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى وتتركون . قال النحاس : مثل قوله : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ »[1] .

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٥١ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الآية تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وفيه إضمار، أى أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلا، وفيه إضمار آخر يدل عليه الظاهر، تقديره: فكذبوا فأخذناهم . وهذه الآية متصلة بما قبل آتصال الحال بحال قريبة منها ؛ وذلك إن هؤلاء سلكوا فى مخالفة نبيهم مسلك من كان قبلهم فى مخالفة أنبيائهم، فكانوا بعرض أن ينزل بهم من البلاء ما نزل بمن كان قبلهم . ومعنى ﴿ بِالْبَأْسَاءِ ﴾ بالمصائب فى الأموال ﴿ وَالضَّرَّاءِ ﴾ فى الأبدان؛ هذا قول الأكثر ، وقد يوضع كل واحد منهما موضع الآخر؛ ويؤدب الله عباده بالبأساء والضراء وبما شاء « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ »[١] . قال آبن عطية : آستدل العُبَّادُ فى تأديب أنفسهم بالبأساء فى تفريق الأموال ، والضراء فى الحمل على الأبدان بالجوع والعُرى بهذه الآية .

قلت : هذه جهالة ممن فعلها وجعل هذه الآية أصلا لها؛ هذه عقوبة من الله لمن شاء من عباده أن يمتحنهم بها ، ولا يجوز لنا أن نمتحن أنفسنا ونكافئها قياسا عليها ؛ فإنها المطية التى نبلغ عليها دار الكرامة، ونفوز بها من أهوال يوم القيامة؛ وفى التنزيل « يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا »[٢] وقال: « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ »[٣] . « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ »[٤] فأمر المؤمنين بما خاطب به المرسلين ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأكلون الطيبات ويلبسون أحسن الثياب ويتجملون بها ، وكذلك التابعون بعدهم إلى هلم جرا، على ما تقدّم بيانه فى « المائدة »[٥] وسيأتى فى « الأعراف »[٦] من حكم اللباس وغيره ؛ ولو كان كما زعموا وآستدلوا لما كان فى آمتنان الله تعالى بالزروع والجنات وجميع الثمار والنبات والأنعام التى سخرها وأباح لنا

---

(١) راجع جـ ١١ ص ٢٧٨ . (٢) راجع جـ ١٢ ص ١٢٧ . (٣) راجع جـ ٣ ص ٣٢٠ .
(٤) راجع جـ ٢ ص ٢١٥ . (٥) راجع ص ٢٦٢ وما بعدها من هذا الجزء . (٦) راجع جـ ٧ ص ١٩٥ .

أكلها وشرب ألبانها والدفء بأصوافها ــ إلى غير ذلك مما آمتن به ــ كبير فائدة؛ فلو كان ما ذهبوا إليه فيه الفضل لكان أولى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن بعدهم من التابعين والعلماء، وقد تقدّم فى آخر «البقرة»[1] بيان فضل المال ومنفعته والردّ على من أبَى من جَمْعه؛ وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الوصال مخافة الضَّعف على الأبدان، ونهى عن إضاعة المال ردّا على الأغنياء الجهال .

قوله تعالى : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أى يدعون ويذلّون، [مأخوذ[2]] من الضراعة وهى الذلّة؛ يقال : ضَرَع فهو ضارع .

قوله تعالى : فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ «لولا» تحضيض، وهى التى تلى الفعل بمعنى هَلّا؛ وهذا عتاب على ترك الدعاء، وإخبار عنهم أنهم لم يتضرّعوا حين نزول العذاب. ويجوز أن يكونوا تضرّعوا تضرّع من لم يُخلص، أو تضرعوا حين لا بَسهم العذابُ؛ والتضرع على هذه الوجوه غير نافع . والدعاء مأمور به حال الرّخاء والشّدة؛ قال الله تعالى : «ٱدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ»[3] وقال : «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى» أى دعائى «سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» وهذا وعيد شديد . ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى صَلُبت وغَلُظت؛ وهى عبارة عن الكفر والإصرار على المعصية، نسأل الله العافية . ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى أغواهم[4] بالمعاصى وحملهم عليها .

---

(١) راجع ج ٣ ص ٤١٧ وما بعدها . (٢) من ج، ح، ك، ع .
(٣) راجع ج ١٥ ص ٣٢٦ . (٤) فى ج، ح، ى، ك: أغراهم .

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ يقال : لم ذموا على النسيان وليس من فعلهم ؟ فالجواب — أن « نسوا » بمعنى تركوا ما ذكروا به ، عن ابن عباس وابن جُرَيْج ، وهو قول أبي علي ؛ وذلك لأن التارك للشيء إعراضا عنه قد صيره بمنزلة ما قد نسي ، كما يقال : تركه في النسي . جواب آخر — وهو أنهم تعرضوا للنسيان فجاز الذم لذلك ؛ كما جاز الذم على التعرض لسخط الله عز وجل وعقابه . ومعنى ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي من النعم والخيرات ، أي كثرنا لهم ذلك . والتقدير عند أهل العربية : فتحنا عليهم أبواب كل شيء كان مغلقا عنهم . ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ﴾ معناه بطروا وأشروا وأعجبوا وظنوا أن ذلك العطاء لا يبيد ، وأنه دال على رضاء الله عز وجل عنهم ﴿ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي استأصلناهم وسطونا بهم . و « بَغْتَةً » معناه فجأة ، وهي الأخذ على غرة ومن غير تقدم أمارة ؛ فإذا أخذ الإنسان وهو غارٌ غافل فقد أُخذ بغتةً ، وأنكى شيء ما يفجأ من البغت . وقد قيل : إن التذكير الذي سلف — فأعرضوا عنه — قام مقام الأمارة . والله أعلم . و « بَغْتَةً » مصدر في موضع الحال لا يقاس عليه عند سيبويه كما تقدم ؛ فكان ذلك استدراجا من الله تعالى كما قال : « وأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » [1] نعوذ بالله من سخطه ومكره . قال بعض العلماء : رحم الله عبدا تدبر هذه الآية « حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً » . وقال محمد بن النضر الحارثي : أمهل هؤلاء القوم عشرين سنة . وروى عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأيتم الله تعالى يعطي العباد ما يشاءون على معاصيهم فإنما ذلك استدراج منه لهم " ثم تلا « فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ » الآية كلها . وقال الحسن : والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها إلا كان قد نقص عمله ، وعجز رأيه . وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه خيرٌ له فيها [2] إلا كان قد نقص عمله ، وعجز رأيه . وفي الخبر أن الله تعالى أوحى إلى موسى صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيت الفقر مقبلا إليك فقل مرحبا بشعار الصالحين و إذا رأيت الغنى مقبلا إليك فقل ذنب عُجِّلت عقوبته » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ المبلس الباهت الحزين الآيس من الخير الذي لا يحير جوابا لشدة ما نزل به من سوء الحال ؛ قال العجاج :

(1) راجع ج ٧ ص ٣٢٩ . (2) في ج : في ذلك .

يا صاح هل تعرف رسما مُكرَسًا[1] * قال نعم أعرفه وأبلسا

أى تحيّر لهول ما رأى ، ومن ذلك اشتق اسم إبليس ؛ أبلس الرجل سكت ، وأبلست الناقة وهى مِبلاس إذا لم ترغ من شدة الضبعة ؛ ضَبعت الناقة تضبع ضَبعة وضَبعا إذا أرادت الفحل .

قوله تعالى : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الدابر الآخر ؛ يقال : دبر القوم يدبرهم دبرا إذا كان آخرهم فى المجىء . وفى الحديث عن عبد الله بن مسعود "من الناس من لا يأتى الصلاة إلا دبريا[2]" أى فى آخر الوقت ؛ والمعنى هنا قطع خلفهم من نسلهم وغيرهم فلم تبق لهم باقية . قال قُطْرُب : يعنى أنهم استؤصلوا وأهلكوا . قال أمية بن أبى الصلت :

فأهلِكوا بعذاب حصّ دابرهم * فما استطاعوا له صرفا ولا انتصروا

ومنه التدبير لأنه إحكام عواقب الأمور . ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ قيل : على إهلاكهم ، وقيل : تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه . وتضمنت هذه الآية الحجة على وجوب ترك الظلم ؛ لما يعقب من قطع الدابر ، إلى العذاب الدائم ، مع استحقاق القاطع الحمد من كل حامد .

قوله تعالى : قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (٤٧)

قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ . أى أذهب وانتزع . ووحد «سمعكم» لأنه مصدر يدل على الجمع . ﴿وَخَتَمَ﴾ أى طبع ، وقد تقدم فى «البقرة»[3] .

---

(١) المكرس : الذى صار فيه الكرس ، والكرس (بالكسر) : أبوال الإبل وأبعارها يتلبد بعضها على بعض فى الدار والدمن . وأبلس : سكت غما . (٢) دبريا : يروى (بفتح الباء وسكونها) وهو منسوب إلى الدبر آخر الشىء ؛ وفتح الباء من تغييرات النسب . (ابن الأثير) . (٣) راجع جـ ١ ص ١٨٥ .

وجواب «إنْ» محذوف تقديره : فمن يأتيكم به، وموضعه نصب؛ لأنها في موضع الحال، كقولك : اضربه إن خرج أي خارجا . ثم قيل : المراد المعاني القائمة بهذه الجوارح، وقد يذهب الله الجوارح والأعراض جميعا فلا يبقى شيئا ، قال الله تعالى : «مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا»[1] . والآية احتجاج على الكفار . ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ «من» رفع بالابتداء وخبرها «إله» و «غيره» صفة له ، وكذلك «يأتيكم» موضعه رفع بأنه صفة «إله» ومخرجها مخرج الاستفهام، والجملة التي هي منها في موضع مفعولي رأيتم . ومعنى «أَرَأَيْتُمْ» : علمتم ؛ ووحد الضمير في «به» — وقد تقدم الذكر بالجمع — لأن المعنى أي بالمأخوذ، فالهاء راجعة إلى المذكور . وقيل: على السمع بالتصريح؛ مثل قوله : «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ»[2] ودخلت الأبصار والقلوب بدلالة التضمين . وقيل : «مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ» بأحد هذه المذكورات . وقيل : على الهدى الذي تضمنه المعنى .

وقرأ عبد الرحمن الأعرج «بِهُ انْظُرْ» بضم الهاء على الأصل ؛ لأن الأصل أن تكون الهاء مضمومة كما تقول : جئت معه . قال النقاش : في هذه الآية دليل على تفضيل السمع على البصر لتقدمته هنا وفي غير آية ، وقد مضى هذا في أول «البقرة»[3] مستوفى . وتصريف الآيات الإتيان بها من جهات ؛ من إعذار و إنذار وترغيب وترهيب ونحو ذلك . ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي يعرضون . عن ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسُّدّي ؛ يقال : صدف عن الشيء إذا أعرض عنه صَدْفا وصُدُوفا فهو صادفٌ . وصادفته مصادفة أي لقيته عن إعراض عن جهته؛ قال ابن الرِّقاع :

إذا ذَكَرْنَ حديثا قُلْنَ أحسنه * وهُنّ عن كلّ سوءٍ يُتّقَى صُدُفُ

والصَّدَف في البعير أن يميل خُفُّه من اليد أو الرجل إلى الجانب الوَحْشيّ[4] ؛ فهم [يصدفون أي] مائلون معرضون عن الحجج والدلالات .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٤٤ . (٢) راجع جـ ٨ ص ١٩٣ . (٣) راجع جـ ١ ص ١٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة.
(٤) من ع .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾ الحسن : « بغتة » ليلا « أو جهرة » نهارا . وقيل : بغتة فجأة . وقال الكسائى : يقال بَغَتهم الأمرُ يَبغَتهم بَغْتًا وبغتة إذا أتاهم فجأة ، وقد تقدم . ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ نظيره « فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ »[(١)] أى هل يهلك إلا أنتم لشرككم ؛ والظلم هنا بمعنى الشرك ، كما قال لقمان لابنه : « يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »[(٢)] .

قوله تعالى : وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ أى بالترغيب والترهيب . قال الحسن : مبشرين بسعة الرزق فى الدنيا والثواب فى الآخرة ؛ يدل على ذلك قوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »[(٣)] . ومعنى « منذرين » مخوفين عقاب الله ؛ فالمعنى : إنما أرسلنا المرسلين لهذا لا لما يقترح عليهم من الآيات ، وإنما يأتون من الآيات بما تظهر معه براهينهم وصدقهم . وقوله : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . تقدم القول فيه .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩)

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى بالقرآن والمعجزات . وقيل : بمحمد عليه الصلاة والسلام . ﴿ يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أى يصيبهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى يكفرون .

قوله تعالى : قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٢٢ . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٦٢ . (٣) راجع جـ ٧ ص ٢٥٢ .

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ هـذا جواب لقولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ » فالمعنى ليس عندى خزائن قدرته فأنزل ما اقترحتموه من الآيات ، ولا أعلم الغيب فأخبركم به . والخزانة ما يُخزن فيه الشيء ، ومنه الحديث " فإنما تخزن لهم ضروعُ مواشيهم أطعماتهم أيحب أحدكم أن تؤتى مَشْرَبته فتكسر خزانتُه " . وخزائن الله مقدوراته ، أى لا أملك أن أفعل [كل ما][1] أريد مما تقترحون ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أيضا ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ وكان القوم يتوهمون أن الملائكة أفضل ، أى لست بملك فأشاهد من أمور الله ما لا يشهده البشر . واستدل بهذا القائلون بأن الملائكة أفضل من الأنبياء . وقد مضى فى « البقرة »[2] القول فيه فتأمله هناك .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ ﴾ ظاهره أنه لا يقطع أمرا إلا إذا كان فيه وحى . والصحيح أن الأنبياء يجوز منهم الاجتهاد ، والقياس على المنصوص ، والقياس أحد أدلة الشرع . وسيأتى بيان هذا فى « الأعراف »[3] وجواز اجتهاد الأنبياء فى « الأنبياء »[4] إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ أى الكافر والمؤمن ؛ عن مجاهد وغيره][5] . وقيل : الجاهل والعالم . ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أنهما لا يستويان .

قوله تعالى : وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾[2] أى بالقرآن . والإنذار الإعلام وقد تقدم فى « البقرة » . وقيل : « بِهِ » أى بالله . وقيل : باليوم الآخر . وخص ﴿ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا ﴾ لأن الحجة عليهم أوجب ، فهم خائفون من عذابه ، لا أنهم يترددون فى الحشر ؛ فالمعنى « يخافون »

---

(١) من ب و ج و ع . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ وص ١٨٤ . (٣) راجع جـ ٧ ص ١٧١ .
(٤) راجع جـ ١١ ص ٣٠٩ . (٥) من ب ، ج ، ك ، ع .

يتوقعون عذاب الحشر . وقيل : « يَخَافُونَ » يعلمون ، فإن كان مسلما أنذر ليترك المعاصى ، وإن كان من أهل الكتاب أنذر ليتبع الحق . وقال الحسن : المراد المؤمنون . قال الزجاج : كل من أقر بالبعث من مؤمن وكافر . وقيل : الآية فى المشركين أى أنذرهم بيوم القيامة . والأول أظهر . ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى من غير الله ﴿ شَفِيعٌ ﴾ هذا ردّ على اليهود والنصارى فى زعمهما أن أباهما يشفع لهما حيث قالوا : « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ » والمشركون حيث جعلوا أصنامهم شفعاء لهم عند الله ، فأعلم الله أن الشفاعة لا تكون للكفار . ومن قال الآية فى المؤمنين قال : شفاعة الرسول لهم تكون بإذن الله فهو الشفيع حقيقة إذن ، وفى التنزيل . « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى »(1) . « وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ »(2) . « مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ »(3) . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى فى المستقبل . وهو الثبات على الإيمان .

قوله تعالى : وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ [الآية](4) . قال المشركون : ولا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء ــ يعنون سلمان وصهيبا وبلالا وخبابا(5) ــ فاطردهم عنك ، وطلبوا أن يكتب لهم بذلك ، فهمّ النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، ودعا عليا ليكتب ، فقام الفقراء وجلسوا ناحية ، فأنزل الله الآية . ولهذا أشار سعد بقوله فى الحديث الصحيح : فوقع فى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع ، وسيأتى ذكره . وكان النبى صلى الله عليه وسلم إنما مال إلى ذلك طمعا فى إسلامهم ، وإسلام قومهم ، ورأى أن ذلك لا يفوت أصحابه شيئا ، ولا ينقص لهم قدرا ، فمال إليه فأنزل الله الآية ، فنهاه عما همّ به من الطرد لا أنه أوقع الطرد . روى مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال : كنا مع النبى صلى الله

(1) راجع جـ ١١ ص ٢٨١ . (2) راجع جـ ١٤ ص ٢٩٥ . (3) راجع جـ ٣ ص ٢٧٣ .
(4) من ح ، ب ، ك . (5) فى ب وح وك وه وز : حبان .

عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : أطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا؛ قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هُذَيل و بلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ» . قيل: المراد بالدعاء المحافظة على الصلاة المكتوبة في الجماعة؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن . وقيل : الذكر وقراءة القرآن . ويحتمل أن يريد الدعاء في أول النهار وآخره ؛ ليستفتحوا يومهم بالدعاء رغبة في التوفيق. ويختموه بالدعاء طلبا للمغفرة . ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أي طاعته، والإخلاص فيها، أي يخلصون في عبادتهم وأعمالهم لله ، ويتوجهون بذلك إليه لا لغيره . وقيل : يريدون الله الموصوف بأن له الوجه كما قال : «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»[1] وهو كقوله : «وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ»[2] . وخص الغداة والعشي بالذكر؛ لأن الشغل غالب فيهما على الناس، ومن كان في وقت الشغل مقبلا على العبادة كان في وقت الفراغ من الشغل أعمل. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يصبر نفسه معهم كما أمره [الله][3] في قوله : «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ» فكان لا يقوم حتى يكونوا هم الذين يبتدئون القيام ، وقد أخرج هذا المعنى مبينا مكملا ابن ماجه في سننه عن خَبَّاب في قول الله عز وجل : «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ» إلى قوله : « فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ » قال : جاء الأقرعُ بن حابس التميمي وعُيَيْنَة بن حِصْن الفزاري فوجدا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صُهَيب و بلال وعمَّار وخَبَّاب ، قاعدا في ناس من الضعفاء من المؤمنين ؛ فلما رأوهم حَوْل النبي صلى الله عليه وسلم حقَروهم؛ فأتوه فخلوا به وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تَعرفُ لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأَعبُد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ؛ قال : "نعم" قالوا : فاكتب لنا عليك كتابا؛ قال : فدعا بصحيفة ودعا عليا — رضي الله عنه — ليكتب ونحن قعود في ناحية؛ فنزل جبريل عليه السلام فقال:

(١) راجع ج ١٧ ص ١٦٤ . (٢) راجع ج ٩ ص ٣١٠ . (٣) من ع .

«وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ» ثم ذكر الأقرع بن حابس وعُيَيْنة بن حِصْن ؛ فقال : «وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ» ثم قال : «وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» قال : فدنونا منه حتى وضعنا رُكَبنا على رُكْبته ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا ؛ فأنزل الله عز وجل «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» ولا تجالس الأشراف «وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا» يعنى عُيَيْنة والأقرع «وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» [1] أى هلاكا قال : أمر عُيَيْنة والأقرع ؛ ثم ضرب لهم مَثَل الرجلين ومَثَل الحياة الدنيا. قال خَبَّاب : فكنا نقعد مع النبي صلى الله عليه وسلم فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم ؛ رواه عن أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القَطَّان حدّثنا عمرو بن محمد العَنْقَزِيّ [2] حدّثنا أسباط عن السُّدّيّ عن أبي سعيد [3] الأزدي وكان قارئ الأزد عن أبي الكنود عن خَبَّاب ؛ وأخرجه أيضا عن سعد قال : نزلت هذه الآية فينا ستة ، فيّ وفي ابن مسعود وصُهَيب وعمّار والمِقْداد و بلال ؛ قال : قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنا لا نرضى أن نكون أتباعا لهم فاطردهم ، قال : فدخل قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ما شاء الله أن يدخل ؛ فأنزل الله عز وجل «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ» الآية . وقرئ «بِالْغُدْوَةِ» وسيأتى بيانه فى «الكهف» [1] إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أى من جزائهم ولا كفاية [4] أرزاقهم ، أي جزاؤهم ورزقهم على الله ، وجزاؤك ورزقك على الله لا على غيره . «مِن» الأولى للتبعيض ، والثانية زائدة للتوكيد . وكذا ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ المعنى و إذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم فى الدّين

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٠ (٢) العنقزى : ضبط (القاموس) و (لب اللباب) بفتح القاف . وقال في التهذيب : هو بكسرها . (٣) فى جـ ، ك ، ى ، ع : و يقال : أبو سعد . (٤) فى ك : كفالة

والفضل، فإن فعلت كنت ظالما. وحاشاه من وقوع ذلك منه، وإنما هذا بيان للأحكام، ولئلا يقع مثل ذلك من غيره من أهل الإسلام؛ وهذا مثل قوله: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ»[1] وقد علم الله منه أنه لا يشرك ولا يحبط عمله. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب النفي. ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ نصب بالفاء في جواب النهي؛ المعنى: ولا تطرد الذين يدعون ربهم فتكون من الظالمين، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم، على التقديم والتأخير. والظلم أصله وضع الشيء في غير موضعه؛ وقد تقدم في «البقرة»[2] مستوفى. وقد حصل من قوة الآية والحديث النهي عن أن يعظم أحد لجاهه ولثوبه[3]، وعن أن يحتقر أحد لخموله ولرثاثة ثوبه.

قوله تعالى: وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي كما فتنا من قبلك كذلك فتنا هؤلاء. والفتنة الاختبار؛ أي عاملناهم معاملة المختبرين. ﴿لِيَقُولُوا﴾ نصب بلام كي، يعني الأشراف والأغنياء. ﴿أَهَؤُلَاءِ﴾ يعني الضعفاء والفقراء. ﴿مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ قال النحاس: وهذا من المشكل؛ لأنه يقال: كيف فتنوا ليقولوا هذه الآية؟ لأنه إن كان إنكارا فهو كفر منهم. وفي هذا جوابان: أحدهما — أن المعنى اختبر الأغنياء بالفقراء أن تكون مرتبتهم واحدة عند النبي صلى الله عليه وسلم، ليقولوا على سبيل الاستفهام لا على سبيل الإنكار: «أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا». والجواب الآخر — أنهم لما اختبروا بهذا فآل عاقبته إلى أن قالوا هذا على سبيل الإنكار، وصار مثل قوله: «فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا»[4]. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فيمن عليهم بالإيمان دون الرؤساء الذين علم الله منهم الكفر، وهذا استفهام تقرير، وهو جواب لقولهم: «أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا» وقيل: المعنى أليس الله بأعلم من يشكر الإسلام إذا هديته إليه.

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٦. (٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٩. (٣) في جـ، ك، ى، ع، هـ: «أبويه». (٤) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٦.

قوله تعالى : وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ السلام والسلامة بمعنى واحد . ومعنى « سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » سلمكم الله فى دينكم وأنفسكم؛ نزلت فى الذين نهى الله نبيه عليه الصلاة والسلام عن طردهم؛ فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال : "الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أبدأهم بالسلام" فعلى هذا كان السلام من جهة النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : إنه كان من جهة الله تعالى، أى أبلغهم منا السلام؛ وعلى الوجهين ففيه دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى . وفى صحيح مسلم عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصُهَيب و بِلال ونَفَر فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها؛ قال فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟ ! فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : "يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك" فأتاهم أبو بكر فقال : يا إخوتاه أغضبتكم ؟ قالوا : لا ؛ يغفر الله لك يا أخى؛ فهذا دليل على رفعة منازلهم وحرمتهم كما بيناه فى [معنى][1] الآية . و يستفاد من هذا احترام الصالحين واجتناب ما يغضبهم أو يؤذيهم؛ فإن فى ذلك غضب الله، أى حلول عقابه بمن آذى أحدا من أوليائه . وقال ابن عباس : نزلت الآية فى أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ [رضى الله عنهم][2] . وقال الفُضَيل بن عِيَاض : جاء قوم من المسلمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا قد أصبنا من الذنوب فاستغفر لنا فأعرض عنهم؛ فنزلت الآية . وروى عن أنس بن مالك مثله سواء .

قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ أى أوجب ذلك بخبره الصدق، ووعده الحق ، فخوطب العباد على ما يعرفونه من أنه من كتب شيئا فقد أوجبه على نفسه . وقيل : كتب ذلك فى اللوح المحفوظ . ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ أى خطيئة من غير قصد؛

(١) من جـ ، ع ، ك ، و ى . (٢) من ك ، ى .

قال مجاهد : لا يعلم حلالا من حرام ومن جهالته ركب الأمر، فكل من عمل خطيئة فهو بها جاهل ؛ وقد مضى هذا المعنى فى « النساء »(١) . وقيل : من آثر العاجل على الآخرة فهو الجاهل . ﴿ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قرأ بفتح « أَنَّ » من « فَأَنَّهُ » ابن عامر وعاصم ، وكذلك « أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ » ووافقهما نافع فى « أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ » . وقرأ الباقون بالكسر فيهما ؛ فمن كسر فعلى الاستئناف، والجملة مفسرة للرحمة ؛ و « إنّ » إذا دخلت على الجمل كُسرت وحكم ما بعد الفاء الابتداء والاستئناف فكُسرت لذلك . ومن فتحهما فالأولى فى موضع نصب على البدل من الرحمة ، بدل الشىء من الشىء وهو هو فأعمل فيها « كتب » كأنه قال : كتب ربكم على نفسه أنه من عمل ؛ وأما « فَأَنَّهُ غَفُورٌ » بالفتح ففيه وجهان ؛ أحدهما — أن يكون فى موضع رفع بالابتداء والخبر مضمر ، كأنه قال : فله أنه غفور رحيم ؛ لأن ما بعد الفاء مبتدأ ، أى فله غفران الله. الوجه الثانى — أن يضمر مبتدأ تكون « أنّ » وما عملت فيه خبره ؛ تقديره : فأمره غفران الله له ، وهذا اختيار سيبويه ، ولم يُجز الأول ، وأجازه أبو حاتم . وقيل : إنّ « كَتَبَ » عمل فيها ؛ أى كتب ربكم أنه غفور رحيم . وروى عن على بن صالح وابن هُرمز كسر الأولى على الاستئناف، وفتح الثانية على أن تكون مبتدأة أو خبر مبتدأ أو معمولة لكتب على ما تقدّم . ومن فتح الأولى — وهو نافع — جعلها بدلا من الرحمة ، واستأنف الثانية لأنها بعد الفاء ، وهى قراءة بيِّنة .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ التفصيل التبيين الذى تظهر به المعانى ؛ والمعنى : وكما فصّلنا لك فى هذه السورة دلائلنا ومحاجتنا مع المشركين كذلك نُفصّل لكم الآيات فى كل ما تحتاجون إليه من أمر الدّين ، ونبين لكم أدلتنا وحججنا فى كل حق ينكره أهل الباطل .

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٩٢ .

وقال القتبي : « نُفَصِّلُ الْآيَاتِ » نأتي بها شيئا بعد شيء، ولا ننزلها جملة متصلة .
﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ يقال : هذه اللام تتعلق بالفعل فأين الفعل الذي تتعلق به ؟
فقال الكوفيون : هو مقدّر، أي وكذلك نفصّل الآيات لنبين لكم ولتستبين، قال النحاس :
وهذا الحذف كله لا يحتاج إليه ، والتقدير : وكذلك نفصّل الآيات فصّلناها . وقيل : إن
دخول الواو للعطف على المعنى ؛ أي ليظهر الحق وليستبين ، قرئ بالياء والتاء . « سبيل »
برفع اللام ونصبها، وقراءة التاء خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، أي ولتستبين يا محمد سبيل
المجرمين . فإن قيل : فقد كان النبي عليه السلام يستبينها ؟ فالجواب عند الزجاج — أن
الخطاب للنبي عليه السلام خطاب لأمته ؛ فالمعنى : ولتستبينوا سبيل المجرمين . فإن قيل :
فلم لم يذكر سبيل المؤمنين ؟ ففي هذا جوابان؛ أحدهما — أن يكون مثل قوله : «سَرَابِيلَ
تَقِيكُمُ الْحَرَّ»(1) فالمعنى، وتقيكم البرد ثم حُذف، وكذلك يكون هذا المعنى ولتستبين سبيل المؤمنين
ثم حذف . والجواب الآخر — أن يقال : استبان الشيءُ واستبنته ؛ و إذا بان سبيل المجرمين
فقد بان سبيل المؤمنين . والسبيل يذكر و يؤنث ؛ فتميم تذكّره ، وأهل الحجاز تؤنثه ؛
وفي التنزيل « وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ »(2) مذكّر « لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ »(3) مؤنث ؛ وكذلك
قرئ « ولتستبين » بالياء والتاء ؛ فالتاء خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قيل : « تدعون »
بمعنى تعبدون . وقيل : تدعونهم في مهمات أموركم على جهة العبادة؛ أراد بذلك الأصنام.
﴿ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ﴾ فيما طلبتموه من عبادة هذه الأشياء ، ومن طرد من أردتم طرده .
﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا ﴾ أي قد ضللت إن اتبعت أهواءكم . ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ أي على
طريق رشد وهدى .

(1) راجع ج ١٠ ص ١٥٩ . (2) راجع ج ٧ ص ٢٨٢ . (3) راجع ج ٤ ص ١٥٤ .

وقرئ « ضَلِلْتُ » بفتح اللام وكسرها وهما لغتان . قال أبو عمرو [بن العلاء][1] : ضَلِلْتُ بكسر اللام لغة تميم ، وهى قراءة [يحيى][2] بن وثّاب وطلحة بن مُصَرِّف ، والأولى هى الأصح والأفصح ؛ لأنها لغة أهل الحجاز ، وهى قراءة الجمهور . وقال الجوهرى : والضلال والضلالة ضد الرشاد ، وقد ضَلَلْتُ أَضِلُّ ، قال الله تعالى : « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي »[3] فهذه لغة نجد ، وهى الفصيحة ، وأهل العالية يقولون : ضَلِلْتُ بالكسر أَضَلّ .

قوله تعالى : قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ أى دلالة و يقين وحجة و برهان ، لا على هوى ؛ ومنه البينة لأنها تبين الحق وتظهره . ﴿ وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ﴾ أى بالبينة لأنها فى معنى البيان ؛ كما قال : « وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ » على ما بيناه هناك[4] . وقيل يعود على الرب ، أى كذبتم بربى لأنه جرى ذكره . وقيل : بالعذاب . وقيل : بالقرآن . وفى معنى هذه الآية والتى قبلها ما أنشده مُصْعَب بن عبد الله بن الزُّبير لنفسه ، وكان شاعرا محسنا رضى الله عنه :

أأقعدُ بعد ما رجفتْ عظامى * وكان الموتُ أقربَ ما يَلِينِي
أُجادلُ كلَّ مُعترِضٍ خَصِيمٍ * وأجعل دِينَه غَرَضًا لدِينِي
فأتركُ ما علمتُ لرأى غيرى * وليس الرأىُ كالعلم اليقينِ
وما أنا والخصومةُ وهى شيءٌ * يُصرَّفُ فى الشِّمالِ وفى اليمينِ
وقد سُنَّت لنا سُنَنٌ قِوامٌ * يَلُحْنَ بكلِّ فَجٍّ أو وَجِينٍ[5]
وكان الحقُّ ليس به خَفاءٌ * أغرَّ كغُرَّةِ الفَلَقِ المبينِ

(١) من ى ، ك . (٢) من ك . (٣) راجع جـ ١٤ ص ٣١٣ .
(٤) راجع جـ ٥ ص ٥٠ . (٥) الوجين : شط الوادى .

فما عوضٌ لنا منهاجُ جَهْمٍ • بمنهاجِ ابنِ آمنةَ الأمينِ
فأمّا ما علمتُ فقد كفاني • وأمّا ما جهلتُ فجنّبوني

قوله تعالى : ﴿ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ أى العذاب ؛ فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء نحو قولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا »[1] « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ »[2] . وقيل : ما عندى من الآيات التى تقترحونها . ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أى ما الحكم إلا لله فى تأخير العذاب وتعجيله . وقيل : الحكم الفاصل بين الحق والباطل لله . ﴿ يَقُصُّ الْحَقَّ ﴾ أى يقص القَصَص الحق ؛ وبه استدل من منع المجاز فى القرآن ، وهى قراءة نافع وابن كثير وعاصم ومجاهد والأعرج وابن عباس ؛ قال ابن عباس قال الله عز وجل : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ »[3] . والباقون « يَقْضِ الْحَقَّ » بالضاد المعجمة ، وكذلك قرأ علىّ — رضى الله عنه — وأبو عبد الرحمن السُّلَمىّ وسعيد بن المسيّب ، وهو مكتوب فى المصحف بغير ياء[4] ، ولا ينبغى الوقف عليه ، وهو من القضاء ؛ ودل على ذلك أن بعده ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ والفصل لا يكون إلا قضاء دون قَصَص ، ويُقوّى ذلك قوله قبله : « إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ » ويقوّى ذلك أيضا قراءة ابن مسعود « إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي بِالْحَقِّ » فدخول الباء يؤكد معنى القضاء . قال النحاس : هذا لا يلزم ؛ لأن معنى « يقضى » يأتى ويصنع فالمعنى : يأتى الحق ؛ ويجوز أن يكون المعنى : يقضى القضاء الحق . قال مكىّ : وقراءة الصاد أحب إلىّ ؛ لاتفاق الحرميّين وعاصم على ذلك ، ولأنه لو كان من القضاء للزمت الباء فيه كما أتت فى قراءة ابن مسعود . قال النحاس : وهذا الاحتجاج لا يلزم ؛ لأن مثل هذه الباء تحذف كثيرا .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٧ . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٩٨ . (٣) راجع جـ ٩ ص ١١٩ .

(٤) قال الفخر الرازى « يقض » بغير ياء ، لأنها سقطت لالتقاء الساكنين ، كما كتبوا « سندع الزبانية » « فما تغن النذر » .

قوله تعالى : قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ أى من العذاب لأنزلته بكم حتى ينقضى الأمر إلى آخره . والاستعجال : تعجيل طلب الشيء قبل وقته . ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أى بالمشركين و بوقت عقو بتهم .

قوله تعالى : وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — جاء فى الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف ملك . وروى البخارىّ عن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تَغيض الأرحام إلا اللهُ ولا يعلم ما فى غد إلا اللهُ ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا اللهُ ولا تدرى نفس بأىّ أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله" . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون فى غدٍ فقد أعظم على الله الفِرْية ؛ والله تعالى يقول : « قُل لَا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ » . ومفاتح جمع مَفْتح ، هذه اللغة الفصيحة . و يقال : مفتاح و يجمع مفاتيح . وهذه قراءة ابنِ السَّمَيْقَع « مفاتيح » . والمِفتح عبارة عن كل ما يُحَلّ غَلَقا ، محسوسا كان كالقُفْل على البيت أو معقولا كالنظر . وروى ابن ماجه فى سننه وأبو حاتم البُسْتِىّ فى صحيحه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ من الناس مفاتيحَ للخير مَغاليقَ للشرّ و إن من الناس مفاتيحَ للشرّ مغاليقَ للخير فطُوبَى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ووَيْلٌ لمن جعل الله مفاتيح الشرّ على يديه" . وهو فى الآية استعارة عن التوصّل إلى الغيوب كما يتوصّل فى الشاهد بالمفتاح إلى الغيب عن الإنسان ؛

ولذلك قال بعضهم : هو مأخوذ من قول الناس افتح عليّ كذا ؛ أي أعطني أو علمني ما أتوصل إليه به . فالله تعالى عنده علم الغيب، وبيده الطرق الموصّلة إليه ، لا يملكها إلا هو، فمن شاء أطلاعه عليها أطلعه ، ومن شاء حجبه عنها حجبه. ولا يكون ذلك من إفاضة إلا على رسله ؛ بدليل قوله تعالى : « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ»(١) وقال : «عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ»(٢) . وقيل : المراد بالمفاتح خزائن الرزق ؛ عن السُّدّي والحسن . مُقاتِل والضحّاك : خزائن الأرض. وهذا مجاز، عبّر عنها بما يتوصّل إليها به . وقيل غير هذا مما يتضمنه معنى الحديث، أي عنده الآجال ووقت انقضائها . وقيل : عواقب الأعمار وخواتم الأعمال ؛ إلى غير هذا من الأقوال . والأوّل المختار . والله أعلم .

الثانيــة ــ قال علماؤنا : أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آية من كتابه إلا من اصطفى من عباده . فمن قال : إنه ينزّل الغَيْث غدًا وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمارة ادّعاها أم لا . وكذلك من قال : إنه يعلم ما في الرّحم فهو كافر؛ فإن لم يجزم وقال : إن النَّوْء(٣) ينزل الله به الماء عادة، وأنه سبب الماء عادةً، وأنه سبب الماء على ما قدّره وسبق في علمه لم يكفر؛ إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به، فإن فيه تشبيها بكلمة أهل الكفر، وجهلا بلطيف حكمته؛ لأنه ينزل متى شاء، مرّة بنَوْء كذا ، ومرّة دون النَّوْء ؛ قال الله تعالى(٤) : "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر [بالكواكب]" على ما يأتي بيانه في « الواقعــة »(٥) إن شاء الله . قال ابن العربيّ : وكذلك قول الطبيب : إذا كان الثَّدْي الأيمن مسودّ الحَلَمة فهو ذكر، وإن كان في الثـدي الأيسر فهو أنثى ، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى؛ وادّعى ذلك عادة لا واجبا في الخلقة لم يكفر ولم يفسق . وأما من ادّعى الكسب في مستقبل العمر فهو كافر . أو أخبر عن الكوائن المجملة أو المفصلة في أن تكون قبل أن تكون فلا ريبة

---

(١) آية ١٧٩ سورة آل عمران . (٢) آية ٢٦ سورة الجن . (٣) النوء : سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع آخر من المشرق يقابله من ساعته ؛ وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها . (٤) أي في الحديث القدسي . (٥) في قوله تعالى : « وتجعلون رزقكم ...» آية ٨٢ .

فى كفره أيضا . فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر فقد قال علماؤنا : يؤدّب ولا يسجن ؛ أمّا عدم كفره فلأن جماعة قالوا : إنه أمر يُدرَك بالحساب وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله عنه من قوله : «وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ»(١) . وأما أدبهم فلأنهم يُدخلون الشك على العامّة؛ إذ لا يدرون الفرق بين هذا وغيره ؛ فيشوّشون عقائدهم ويتركون قواعدهم فى اليقين فأدّبوا حتى يستروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به .

قلت : ومن هذا الباب ما جاء فى صحيح مسلم عن بعض أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من أتى عرّافا [فسأله عن شيء](٢) لم تقبل له صلاة أربعين ليلة". والعرّاف هو الحازى والمنجم الذى يدّعى علم الغيب. وهى العِرافة وصاحبها عرّاف؛ وهو الذى يستدل على الأمور بأسباب ومقدّمات يدّعى معرفتها . وقد يعتضد بعض أهل هذا الفن فى ذلك بالزّجر والطّرق والنجوم، وأسباب معتادة فى ذلك . وهذا الفنّ هو العِيَافة (بالياء) . وكلّها ينطلق عليها آسم الكهانة ؛ قاله القاضى عِيَاض . والكهانة : آدّعاء علم الغيب . قال أبو عمر بن عبد البر فى (الكافى) : من المكاسب المجتمع على تحريمها الربا ومهور البغايا والسُّحْت والرّشا وأخذ الأجرة على النياحة والغناء، وعلى الكهانة وآدعاء الغيب وأخبار السماء، وعلى الزّمر واللّعب والباطل كله . قال علماؤنا : وقد آنقلبت الأحوال فى هذه الأزمان بإتيان المنجّمين والكُهّان، لا سيّما بالديار المصرية؛ فقد شاع فى رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجّمين، بل ولقد آنخدع كثير من المنتسبين للفقه والدِّين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرّافين فبهرجوا عليهم بالمحال ، واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل(٣)، ومن أديانهم على الفساد والضلال . وكل ذلك من الكبائر؛ لقوله عليه السلام : "لم تقبل له صلاة أربعين ليلة". فكيف بمن آتخذهم وأنفق عليهم معتمدا على أقوالهم . روى مسلم عن عائشة قالت : سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أناس عن الكُهّان فقال :

---

(١) آية ٣٩ سورة يس . (٢) زيادة عن صحيح مسلم . (٣) السراب : الذى يكون نصف النهار لاطئا بالأرض لاصقا بها كأنه ماء جار . والآل : الذى يكون بالضحى يرفع الشخوص ويزهاها كالملا بين السماء والأرض .

" ليس بشيء " قالوا : يا رسول الله، إنهم يحدثون أحيانا الشيء فيكون حقا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها(١) فى أذن وليه [قر الدجاجة](٢) فيخلطون معها مائة كذبة " . قال الحميدي(٣) : ليس ليحيى بن عروة عن أبيه عن عائشة فى الصحيح غير هذا . وأخرجه البخاري من حديث أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الملائكة تنزل فى العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضى فى السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه الى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم " . وسيأتى هذا المعنى فى « سبأ » إن شاء الله تعالى(٤) .

الثالثة ـ قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ خصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر، أى يعلم ما يهلك فى البر والبحر . ويقال : يعلم ما فى البر من النبات والحب والنوى، وما فى البحر من الدواب ورزق ما فيها، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها . روى يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من زرع على الأرض ولا ثمار على الأشجار ولا حبة فى ظلمات الأرض إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم رزق فلان بن فلان وذلك قوله فى محكم كتابه « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » " . وحكى النقاش عن جعفر بن محمد أن الورقة يراد بها السقط من أولاد بنى آدم، والحبة يراد بها الذى ليس بسقط، والرطب يراد به الحي، واليابس يراد به الميت . قال ابن عطية : وهذا قول جار على طريقة الرموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد ولا ينبغى أن يلتفت إليه . وقيل : المعنى «وما تسقط من ورقة» أى من ورق الشجر إلا يعلم متى تسقط وأين تسقط وكم تدور فى الهواء، ولا حبة إلا يعلم متى تنبت وكم تنبت ومن يأكلها . ﴿ فِى ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ ﴾ بطونها . وهذا أصح؛ فإنه موافق للحديث وهو مقتضى الآية . والله أعلم . وقيل : «فى ظلمات الأرض»

---

(١) القر : ترديدك الكلام فى أذن المخاطب حتى يفهمه .　(٢) الزيادة عن صحيح مسلم .

(٣) هو أحد رواة سند هذا الحديث .　(٤) فى قوله تعالى : « ولا تنفع الشفاعة عنده ... » آية ٢٣

يعنى الصخرة التى هى أسفل الأرضين السابعة . « ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ » بالخفض عطفا على اللفظ . وقرأ ابن السَّمَيْقَع والحسن وغيرهما بالرفع فيهما عطفا على موضع « من ورقة »؛ فـ« مِن » على هذا للتوكيد . ﴿ إلا فى كتابٍ مبينٍ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ لتعتبر الملائكة بذلك، لا أنه سبحانه كتب ذلك لنسيانٍ يلحقه، تعالى عن ذلك . وقيل : كتبه وهو يعلمه لتعظيم الأمر، أى اعلموا أن هذا الذى ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب، فكيف بما فيه ثواب وعقاب .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّـٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ﴾ أى ينيمكم فيقبض نفوسكم التى بها تميزون، وليس ذلك موتا حقيقة بل هو قبض الأرواح عن التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت . والتَّوَفِّى استيفاء الشىء . وتُوُفِّىَ الميت استوفى عدد أيام عمره ، والذى ينام كأنه استوفى حركاته فى اليقظة . والوفاة الموت . وأوفيتك المال ، وتوفّيته ، واستوفيته إذا أخذته أجمع . وقال الشاعر :

إنّ بَنِى الأَدْرَدِ ليسوا من أحَدْ ✻ ولا توفّاهم قريشٌ فى العَدَدْ

ويقال : إن الروح إذا خرج من البدن فى المنام تبقى فيه الحياة؛ ولهذا تكون فيه الحركة والنفس ، فإذا انقضى عمره خرج روحه وتنقطع حياته ، وصار ميتا لا يتحرك ولا يتنفس . وقال بعضهم . لا تخرج منه الروح ، ولكن يخرج منه الذهن . ويقال : هذا أمر لا يعرف حقيقته إلا الله تعالى . وهذا أصح الأقاويل، والله أعلم . ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أى فى النهار؛ ويعنى اليقظة . ﴿ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ أى ليستوفى كل إنسان أجلا ضرب له . وقرأ أبو رجاء وطلحة بن مُصَرِّف « ثم يبعثكم فيه ليقضى أجلا مسمى » أى عنده . و « جرحتم » كسبتم . وقد تقدّم فى « المائدة » . وفى الآية تقديم وتأخير ، والتقدير وهو الذى يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه؛ فقدّم الأهم الذى من أجله وقع البعث فى النهار .

وقال ابن جُريج : « ثم يبعثكم فيه » أى فى المنام . ومعنى الآية : ان إمهاله تعالى للكفار ليس لغفلة عن كفرهم فإنه أحصى كل شيء عددا وعلمه وأثبته ، ولكن ليقضى أجلا مسمى من رزق وحياة، ثم يرجعون إليه فيجازيهم . وقد دلّ على الحشر والنشر بالبعث لأن النشأة الثانية منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم فى أنّ من قدر على أحدهما فهو قادر على الآخر .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ يعنى فوقية المكانة والرتبة لا فوقية المكان والجهة، على ما تقدّم بيانه أول السورة . ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أى من الملائكة . والإرسال حقيقته إطلاق الشيء بما حمل من الرسالة؛ فإرسال الملائكة بما حملوا من الحفظ الذى أمروا به، كما قال : « وإنّ عليكم لحافظين »(1) أى ملائكة تحفظ أعمال العباد وتحفظهم من الآفات . والحَفَظة جمع حافظ، مثل الكَتَبة والكاتب . ويقال : إنهما مَلَكان بالليل ومَلَكان بالنهار، يكتب أحدهما الخير والآخر الشر، وإذا مشى الإنسان يكون أحدهما بين يديه والآخر وراءه، وإذا جلس يكون أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله؛ لقوله تعالى: « عَنِ الْيَمِينِ وعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ »(2) . ويقال : لكل إنسان خمسة من الملائكة : اثنان بالليل، واثنان بالنهار، والخامس لا يفارقه ليلا ولا نهارا . والله أعلم . وقال عمر بن الخطاب :

ومن النـاس مَن يعيش شقيًّا * جاهلَ القلب غافلَ اليقظـه
فإذا كان ذا وفاء ورأي * حذِر الموتَ واتّقى الحفظـه
إنمـا الناس راحل ومقـيم * فالذى بانَ للمقـيم عِظـه

(1) آية ١٠ سورة الانفطار (2) آية ١٧ سورة ق .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ يريد أسبابه ؛ كما تقدم فى « البقرة »[1] . ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ على تأنيث الجماعة ، كما قال : « وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ » و « كُذِّبَتْ رُسُلٌ » . وقرأ حمزة « تَوَفَّاه رسُلنا » على تذكير الجمع . وقرأ الأعمش « تتوفاه رسلنا » بزيادة تاء والتذكير . والمراد أعوان مَلَك الموت ؛ قاله ابن عباس وغيره . ويروى أنهم يَسُلُّون الروح من الجسد حتى إذا كان عند قبضها قبضها ملك الموت . وقال الكلْبيّ : يقبِض ملك الموت الروح من الجسد ثم يسلمها الى ملائكة الرحمة إن كان مؤمنا أو إلى ملائكة العذاب إن كان كافرا . ويقال : معه سبعة من ملائكة الرحمة وسبعة من ملائكة العذاب ؛ فإذا قبض نفسا مؤمنة دفعها إلى ملائكة الرحمة فيبشرونها بالثواب ويصعدون بها إلى السماء ، وإذا قبض نفسا كافرة دفعها إلى ملائكة العذاب فيبشرونها بالعذاب ويفزعونها ، ثم يصعدون بها الى السماء ثم تردّ إلى سِجّين ، وروح المؤمن إلى عِلّيِّين . والتَّوفّى تارة يضاف الى ملك الموت ؛ كما قال : « قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ »[2] . وتارة إلى الملائكة لأنهم يتولّون ذلك ؛ كما فى هذه الآية وغيرها . وتارة إلى الله وهو المُتَوَفِّى على الحقيقة ؛ كما قال : « اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا »[3] « قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ »[4] « الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ »[5] . فكل مأمور من الملائكة فإنما يفعل ما أمر به .

﴿ وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ أى لا يضيّعون ولا يقصّرون ، أى يطيعون أمر الله . وأصله من التقدّم ؛ كما تقدّم . فمعنى فرّط قدّم العجز . وقال أبو عبيدة : لا يتوانون . وقرأ عبيد بن عمير « لا يُفْرِطون » بالتخفيف ، أى لا يجاوزون الحدّ فيما أمروا به من الإكرام والإهانة .

﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ ﴾ أى ردّهم الله بالبعث للحساب . ﴿ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ أى خالقهم ورازقهم وباعثهم ومالكهم . « الحقّ » بالخفض قراءة الجمهور ، على النعت والصفة لاسم الله تعالى . وقرأ الحسن « الحقَّ » بالنصب على إضمار أعنى ، أو على المصدر ، أى حقًّا .

﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ أى اعلموا وقولوا له الحكم وحده يوم القيامة ، أى القضاء والفصل .

﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ أى لا يحتاج إلى فكرة وروية ولا عقد يد . وقد تقدّم[6] .

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣٧ طبعة ثانية . (٢) آية ١١ سورة السجدة . (٣) آية ٤٢ سورة الزمر .
(٤) آية ٢٦ سورة الجاثية . (٥) آية ٢ سورة الملك . (٦) راجع جـ ٢ ص ٤٣٥ طبعة ثانية .

قوله تعالى : قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى شدائدهما ؛ يقال : يوم مظلم أى شديد . قال النحاس : والعرب تقول : يومٌ مظلم إذا كان شديدا ، فإن عظّمت ذلك قالت : يوم ذو كواكب ؛ وأنشد سيبويه :

بَنِي أسدٍ هل تعلمون بلاءنا * إذا كان يومٌ ذو كواكب أشنعَا

وجمع « الظلمات » على أنه يعنى ظلمة البرّ وظلمة البحر وظلمة الليل وظلمة الغيْم ، أى إذا أخطأتم الطريق وخفتم الهلاك دعوتموه ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ﴾ أى من هذه الشدائد ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى من الطائعين . فوبّخهم الله فى دعائهم إياه عند الشدائد ، وهم يدعون معه فى حالة الرخاء غيره بقوله ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ . وقرأ الأعمش « وخِيفَة » من الخوف ، وأبو بكر عن عاصم « خِفْية » بكسر الخاء ، والباقون بضمها ، لغتان . وزاد الفرّاء خُفْوة وخِفْوة . قال : ونظيره حُبْية وحِبْية وحُبْوة وحِبْوة . وقراءة الأعمش بعيدة ؛ لأن معنى « تضرُّعاً » أن تظهروا التذلل و « خفية » أن تُبطنوا مثل ذلك . وقرأ الكوفيون لئن « أنجانا » واتّساق المعنى بالتاء ؛ كما قرأ أهل المدينة وأهل الشام .

قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ وقرأ الكوفيون « ينجّيكم » بالتشديد ، الباقون بالتخفيف . قيل : معناهما واحد مثل نجا وأنجيته ونجّيته . وقيل : التشديد للتكثير . والكرب : الغمّ يأخذ بالنفس ؛ يقال منه : رجل مكروب . قال عنترة :

ومكروب كشفت الكرب عنه * بطعنةِ فَيْصَلٍ لما دعانِي

والكُرْبة مشتقة من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ تقريع وتوبيخ ؛ مثل قوله فى أول السورة « ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ » . لأن الحجة إذا قامت بعد المعرفة وجب الإخلاص ، وهم قد جعلوا

بدلا منـه وهو الإشراك ؛ فحسُن أن يُقرَّعوا و يُوَبَّخوا على هـذه الجهة و إن كانوا مشركين قبل النجاة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (٦٥)

أى القادر على إنجائكم من الكرب، قادر على تعذيبكم. ومعنى ﴿ مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ الرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح ؛ كما فعل بعادٍ وثمودَ وقومِ شعيبٍ وقومِ لوط وقـومِ نوح ؛ عن مجاهد وابن جُبـير وغيرهمـا . ﴿ ومِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ الخسْف والرّجفـة، كما فعل بقارون وأصحابِ مَدْين . وقيل : « من فوقكم » يعنى الأمراء الظلمة، « ومن تحت أرجلكم » يعنى السِّفلة وعَبيد السّـوء ؛ عن ابن عباس ومجاهد أيضا . ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ وروى عن أبى عبيد الله المدنى « أو يُلبسكم » بضم الياء ، أى يجلّلكم العذاب و يعمّكم به، وهـذا من اللُّبس بضم الأول ، وقراءة الفتـح من اللَّبْس . وهو مُوضـع مشكل والأعراب يبيّنـه . أى يَلْبِس عليكم أمركم، فحذف أحد المفعولين وحرف الجر؛ كما قال: «و إذا كالُوهم أوْ وَزَنُوهم»[(١)] وهذا اللَّبس بأن يخلط أمرهم فيجعلهم مختلفى الأهواء ؛ عن ابن عباس . وقيل : معنى « يلبسكم شيعا » يقوّى عدوّكم حتى يخالطكم و إذا خالطكم فقد لبِسكم. ﴿شِيَعاً﴾ معناه فِرقاً . وقيل : يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضا ؛ وذلك بتخليط أمرهم وافتراق أمرائهـم على طلب الدنيا . وهو معنى «ويُذيق بعضَكم بأسَ بعض» أى بالحرب والقتل فى الفتنة؛ عن مجاهد. والآية عامّة فى المسلمين والكفار . وقيـل : هى فى الكفار خاصّـةً . وقال الحسن : هى فى أهل الصلاة .

قلت : وهو الصحيح؛ فإنه المشاهد فى الوجود، فقد لبِسنا العدوّ فى ديارنا واستولى على أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستوليـة علينا بقتل بعضنا بعضا واستباحة بعضنا اموال بعض .

(١) آية ٣ سورة المطففين .

نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن . وعن الحسن أيضا أنه تأول ذلك فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم . روى مسلم عن ثَوْبَانَ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله زَوَى[1] لِيَ الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ مُلْكها ما زُوِيَ لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة وألا يسلط عليهم عدوا من سِوَى أنفسهم فيستبيح بَيْضَتهم[2] وإن ربي قال يا محمد : إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُرَدّ وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدوا من سِوَى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها — أو قال من بين أقطارها — حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً ويَسْبِي بعضهم بعضا " . وروى النسائي عن خَبّاب بن الأَرَتّ، وكان قد شهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه راقب رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلةَ كلّها حتى كان مع الفجر، فلما سلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته جاءه خَبّاب فقال : يارسول الله ، بأبي أنت وأمي ! لقد صليتَ الليلة صلاة ما رأيتك صلّيتَ نحوها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أجَل إنها صلاة رَغَب ورَهَب سألتُ الله عز وجل فيها ثلاث خصال فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة سألت ربي عز وجل ألا يُهلكنا بما أهلك به الأمم فأعطانيها وسألت ربي عز وجل ألا يُظهر علينا عدوا من غيرنا فأعطانيها وسألت ربي عز وجل ألا يُلبسنا شِيَعاً فمنعنيها " . وقد أتينا على هذه الأخبار في كتاب (التذكرة) والحمد لله . وروى أنه لما نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لجبريل : " ياجبريل ما بقاء أمتي على ذلك " ؟ فقال له جبريل : " إنما أنا عبد مثلك فادع ربك وسَلْه لأمتك " فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوضأ وأسبغ الوضوء وصلى وأحسن الصلاة ، ثم دعا فنزل جبريل وقال : " يا محمد إن الله تعالى سمع مقالتك وأجارهم من خصلتين وهو العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم" . فقال : "يا جبريل ما بقاء أمتي إذا كان فيهم أهواء مختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض " ؟ فنزل جبريل بهذه الآية :

---

(١) زوى : جمع . (٢) أي مجتمعهم وموضع سلطانهم ومستقر دعوتهم .

« الۤمۤ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا[(١)] » الآية. وروى عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية « قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ » . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعوذ بوجه الله " فلما نزلت « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ » قال : " هاتان أهون " . وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح : اللّهُمّ إني أسئلك العافية في الدنيا والآخرة . اللّهُمّ إني أسئلك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي . اللّهم آستر عوراتي وآمن رَوْعاتي وآحفظني من بين يديّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوق وأعوذ بك أن أُغتال من تحتي" . قال وَكيع : يعني الخَسْف .

قوله تعالى : ﴿ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ﴾ أي نبين لهم الحجج والدلالات . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ يريد بطلان ما هم عليه من الشِّرْك والمعاصي .

قوله تعالى : وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ﴾ أي بالقرآن . وقرأ آبن أبي عَبْلَة « وكذبت » بالتاء . ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ أي القصص الحق . ﴿ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ قال الحسن : لست بحافظ أعمالكم حتى أجازيكم عليها ، إنما أنا مُنْذِر وقد بلّغت ؛ نظيره « وما أنا عليكم بحفيظ » أي أحفظ عليكم أعمالكم . ثم قيل : هذا منسوخ بآية القتال . وقيل : ليس بمنسوخ ، إذ لم يكن في وُسعه إيمانهم . ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ لكل خبرٍ حقيقة ، أي لكلّ شيء وقتٌ يقع فيه من غير تقدّم وتأخر . وقيل : أي لكل عمل جزاء . قال الحسن : هذا وعيد من الله تعالى للكفار؛ لأنهم كانوا لا يُقِرّون بالبعث . الزجّاج : يجوز أن يكون وعيدا بما ينزل بهم في الدنيا . السُّدّي : استقر يوم بدر ما كان يَعِدُهم به من العذاب . وذكر الثَّعْلَبيّ أنه رأى في بعض التفاسير أن هذه الآية نافعة من وجع الضرس إذا كتبت على كاغد ووضع على السِّنّ .

---

(١) أوّل سورة العنكبوت .

قوله تعالى : وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ بالتكذيب والردّ والاستهزاء ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ والخطاب مجرّد للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن المؤمنين داخلون فى الخطاب معه . وهو صحيح ؛ فإن العلة سماع الخوض فى آيات الله، وذلك يشملهم وإياه . وقيل : المراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده؛ لأن قيامه عن المشركين كان يشق عليهم، ولم يكن المؤمنون عندهم كذلك ؛ فأمر أن ينابذهم بالقيام عنهم إذا استهزءوا وخاضوا ليتأدّبوا بذلك ويدعُوا الخوض والاستهزاء . والخَوْض أصله فى الماء ، ثم استعمل بعدُ فى غَمَرات الأشياء التى هى مجاهل، تشبيها بغَمَرات الماء فاستعير من المحسوس للعقول . وقيل : هو مأخوذ من الخلط . وكل شيء خُضْتَه فقد خلطته ؛ ومنه خاض الماءَ بالعسل خلطه . فأدّب الله عز وجل نبيّه بهذه الآية . كان يقعد إلى قوم من المشركين يَعظهم ويدعوهم فيستهزءون بالقرآن؛ فأمره الله أن يُعرض عنهم إعراضَ مُنْكِر . ودلّ بهذا على ان الرجل إذا علم من الآخر منكرًا وعلم أنه لا يقبل منه فعليه أن يُعرض عنه إعراض منكر ولا يُقبل عليه . وروى شِبْل عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد فى قوله « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا » قال : هم الذين يستهزءون بكتاب الله ، نهاه الله عن أن يجلس معهم إلا أن ينسى فإذا ذَكَر قام . وروى وَرْقاء عن ابن أبى نَجيح عن مجاهد قال : هم الذين يقولون فى القرآن غير الحق .

الثانيــة ــ فى هذه الاية ردٌّ من كتاب الله عز وجل على من زعم أن الأئمة الذين هم حُجَجٌ وأتباعَهم لهم أن يخالطوا الفاسقين ويصوّبوا آراءهم تَقِيّة[1] . وذكر الطبريّ عن أبى جعفر

(١) التقية والتقاة بمعنى واحد . يريد أنهم يتقون بعضهم بعضا ويظهرون الصلح والاتفاق ، وباطنهم بخلاف ذلك .

محمد بن علىّ أنه قال : لا تجالسوا أهل الخصومات، فإنهم الذين يخوضون فى آيات الله . قال ابن العربىّ : وهـذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحلّ . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : مَن خاض فى آيات الله تُرِكت مجالسـته وهُجِر ، مؤمنا كان أو كافرا . قال : وكذلك منع أصحابُنا الدخولَ إلى أرض العدوّ ودخولَ كنائسهم والبِيَع ، ومجالسةَ الكفار وأهلِ البِدَع ، وألاّ تُعتقد مودّتهم ولا يُسمع كلامهم ولا مناظرتهم . وقد قال بعض أهل البِدع لأبى عِمران النَّخَعىّ : اسمع منى كلمة ؛ فأعرض عنه وقال : ولا نصف كلمة . ومثله عن أيّوب السَّخْتِيانىّ . وقال الفُضيل بن عِيَاض : من أحبّ صاحبَ بدعة أحبط الله عمله وأخرج نورَ الإسلام من قلبه، ومن زوّج كريمته من مُبْتَدِع فقد قطع رَحِمَها، ومن جلس مع صاحب بِدْعة لم يُعط الحكمة، وإذا علم الله من رجل أنه مُبغِض لصاحب بِدْعة رَجَوْتُ أن يغفر الله له . وروى أبو عبد الله الحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَن وَقَّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام". فبطل بهذا كلّه قولُ مَن زعم أن مجالستهم جائزة إذا صانوا أسماعهـم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ ﴾ «إما» شرط، فيلزمها النون الثقيلة فى الأغلب وقد لا تلزم؛ كما قال :

إمّا يصبْك عدوّ فى مناوأة * يوما فقد كنتَ تَسْتَعْلِى وتنتصر

وقرأ ابن عباس وابن عامر « يُنَسِّينك » بتشـديد السين على التكثير ؛ يقـال : نَسّى وأنْسَى بمعنى واحد؛ قال الشاعر :

قالت سُليمى أتَسْرى اليوم أم تقل (١) * وقد يُنَسِّيك بعضَ الحاجة الكسَلُ

وقال امرؤ القيس :

* ... تُنَسِّينى إذا قمت سِرْبَالِى (٢) *

---

(١) كذا فى الأصول، ولم نهتد لوجه الصواب فيه . (٢) والبيت بتمامه كما فى اللسان :

ومثلك بيضاء العوارض طفـلة * لعـوب تنسينى إذا قمت سربالى

ورواية اللسان «تناسانى» بدل «تنسينى» .

المعنى : يا محمد إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم بخالستهم بعد النهى . ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى ﴾ أى إذا ذكرت فلا تقعد مع القوم الظالمين، يعنى المشركين. والذكرى آسم للتذكير.

الثانيـة ـ قيل : هذا خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته؛ ذهبوا إلى تبرئته عليه السلام من النسيان . وقيل : هو خاص به ، والنسيان جائز عليه . قال ابن العربيّ : وإن عذرنا أصحابنا فى [قولهم إن] (1) قوله تعالى : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » (2) خطاب للأمة بآسم النبيّ صلى الله عليه وسلم لاستحالة الشِّرْك عليه ، فلا عُذر لهم فى هذا لجواز النسيان عليه . قال عليه السلام : " نَسِيَ آدمُ فنَسِيت ذرّيّتُه " خرّجه الترمذيّ وصحّحه . وقال مخبرا عن نفسه : " إنما أنا بشر مثلكم أَنْسَى كما تَنْسَوْن فاذا نسيت فذكّرونى " . خرّجه فى الصحيح، وأضاف النسيان إليه. وقال وقد سمع قراءة رجل: " لقد أذكرنى آيةَ كذا وكذا كنتُ أُنسيتها ". واختلفوا بعد جواز النسيان عليه؛ هل يكون فيما طريقه البلاغ من الأفعال وأحكام الشرع أم لا . فذهب إلى الأوّل ـ فيما ذكره القاضى عياض ـ عامّةُ العلماء والأئمةُ النُّظّار؛ كما هو ظاهر القرآن والأحاديث ، لكن شرط الأئمة أن الله تعالى يُنبّهه على ذلك ولا يُقرّه عليه . ثم اختلفوا هل من شرط التنبيه آتصاله بالحادثة على الفَوْر، وهو مذهب القاضى أبى بكر والأكثرِ من العلماء، أو يجوز فى ذلك التّراخى ما لم يَنخرِم عمره وينقطع تبليغه، وإليه نحا أبو المَعالِى . ومنعت طائفة من العلماء السّهوَ عليه فى الأفعال البلاغية والعبادات الشرعيّة؛ كما منعوه آتفاقا فى الأقوال البلاغية ، واعتذروا عن الظواهر الوّاردة فى ذلك ؛ وإليه مال الأستاذ أبو إسحاق . وشذّت الباطنيّة وطائفةٌ من أرباب علم القلوب فقالوا : لا يجوز النسيان عليه ، وإنما يَنْسَى قصدًا ويتعمّد صورةَ النسيان ليَسُنّ . ونحَا إلى هذا عظيم من أئمة التحقيق وهو أبو المظفر الإسفرايني فى كتابه (الأوسط) وهو منحًى غيرُ سديد، وجمعُ الضدّ مع الضدّ مستحيل بعيد .

قوله تعالى : وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)

(1) الزيادة عن ابن العربى . (2) آية ٦٥ سورة الزمر .

قال ابن عباس : لما نزل لا تقعدوا مع المشركين وهو المراد بقوله : « فأعرض عنهم » قال المسلمون : لا يمكننا دخول المسجد والطواف ؛ فنزلت هذه الآية . ﴿ وَلَٰكِنْ ذِكْرَىٰ ﴾ أي فإن قعدوا يعني المؤمنين فليذكّروهم . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ اللهَ في ترك ما هم فيه . ثم قيل : نُسخ هذا بقوله : « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ »(1) . وإنما كانت الرُّخصة قبل الفتح وكان الوقت وقت تَقِيّة . وأشار بقوله : « وقد نزل عليكم في الكتاب » الى قوله : « وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا » . قال القُشَيْرِيّ : والأظهر أن الآية ليست منسوخة . والمعنى : ما عليكم شيء من حساب المشركين، فعليكم بتذكيرهم وزجرهم فإن أبوا فحسابهم على الله . و« ذِكْرَى » في موضع نصب على المصدر ، ويجوز أن تكون في موضع رفع ؛ أي ولكن الذي يفعلونه ذكرى، أي ولكن عليهم ذكرى . قال الكِسائيّ : المعنى ولكن هذه ذكرى .

قوله تعالى : وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

أي لا تعلّق قلبك بهم فإنهم أهل تعنّت وإن كنت مأمورا بوعظهم . قال قَتادة : هذا منسوخ، نسخه « فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ »(2) . ومعنى ﴿ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ أي استهزاء بالدّين الذي دعوتهم إليه . وقيل : استهزءوا بالدين الذي هم عليه فلم يعملوا به . والاستهزاء ليس مُسَوَّغًا في دين . وقيل : « لعبا ولهوا » باطلا وفرحا، وقد تقدّم هذا(3) . وجاء اللّعب مقدّما في أربعة مواضع، وقد نُظمت :

(1) آية ١٤٠ سورة النساء . (2) آية ٥ سورة التوبة .

(3) في قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا ... » آية ٣٢ من هذه السورة .

إذا أتى لعب ولهـــو * وكم من موضع هو فى القُرآن

حرف فى الحديد وفى القتال * وفى الأنعام منهـا موضعـان

وقيـل : المراد بالدِّين هنـا العيد . قال الكلبيّ : إن الله تعـالى جعل لكل قوم عيدا يعظمونه و يصلّون فيه لله تعالى ، وكلّ قوم اتخذوا عيدهم لعبا ولهوا إلا امة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنهم اتخذوه صلاة وذكرا وحضورا بالصدقة، مثل الجمعة والفطر والنحر .

قوله تعالى : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى لم يعلموا إلا ظاهرا من الحياة الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ أى بالقرآن أو بالحساب . ﴿ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أى تُرتَهن وتُسـلم للهَلَكة ؛ عن مجاهد وقتادة والحسن وعِكْرمة والسُّـدّى . والإبسال : تسليم المرء للهلاك ؛ هــذا المعروف فى اللغة . أبسـلتُ ولدى أرهنته ؛ قال عَوْف بن الأحوص ابن جعفر :

وإبسالِى بَنِىّ بغـيرِ جُرْمٍ * بَعَوْناه ولا بِـدَمٍ مُرَاقِ

« بَعَوْناه » بالعين المهملة معناه جنيناه . والبَعْوُ الجناية . وكان حَمَل عن غَنِىّ لبنى قُشَيرٍ دَمَ ابنى السَّجَفِيّة[1] فقالوا : لا نرضى بك ؛ فرهنهم بنيه طلبا للصلح . وأنشد النابغة :

ونحن رَهَنَّا بالأُفَاقــة[2] عامرًا * بما كان فى الدَّرْدَاء رَهْنًا فأُبْسِلَا

الدرداء : كتيبة كانت لهم . ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ[3] وَلَا شَفِيعٌ[4] ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ الآية . العدل الفِدْية ، وقدتقدّم فى« البقرة»[5] . والحَميم المـاء الحارّ؛ وفى التنزيل «يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ»[6] . «يَطُوفُونَ

(١) كذا فى اللسان وشرح القاموس . والذى فى صحاح الجوهرى ونسخ الأصل : « السحفية » بالحاء المهملة بدل الجيم . (٢) الأفاقة (ككناسة) : موضع بالبحرين قرب الكوفة . أو هو ماء لبنى يربوع .

(٣) راجع جـ ٣ ص ٢٨٢ ، جـ ٤ ص ١٠٩ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ١ ص ٣٧٨ طبعة ثانية أو ثالثة . وجـ ٣ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية . (٥) راجع جـ ١ ص ٣٨٠ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٦) آية ١٩ سورة الحج .

بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ[1] » . والآية منسوخة بآية القتال . وقيل : ليست بمنسوخة؛ لأن قوله : « وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ » تهديد ؛ كقوله : « ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا[2] » . ومعناه لا تحزن عليهم ؛ فإنما عليك التبليغ والتذكير بإبسال النفوس . فمن أبسل فقد أسلم وارتهن . وقيل : أصله التحريم، من قولهم : هذا بَسْلٌ عليك أى حرام؛ فكأنهم حُرِموا الجنة وحُرِّمت عليهم الجنة . قال الشاعر[3] :

أجارتكم بَسْلٌ علينا مُحَرَّمٌ * وجارتنا حِلٌّ لكم وحَلِيلُها

والإبسال : التحريم .

قوله تعالى : قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا ﴾ أى ما لا ينفعنا إن دعوناه . ﴿ وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ إن تركناه ؛ يريد الأصنام . ﴿ وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ أي نرجع إلى الضلالة بعد الهدى . وواحد الأعقاب عَقِب وهى مؤنثة ، تصغر عُقَيْبة . يقال : رجع فلان على عَقِبيه إذا أدبر . قال أبو عبيدة : يقال لمن رُدّ عن حاجته ولم يظفر بها قد رُدّ على عقبيه . وقال المبرد : معناه تُعُقِّب بالشر بعد الخير . وأصله من العاقبة والعُقْبَى وهما ما كان تاليا

(١) آية ٤٤ سورة الرحمن . (٢) آية ٣ سورة الحجر . (٣) هو الأعشى كما فى اللسان .

للشيء واجبا أن يتبعه ؛ ومنه « والعاقبة للتقين » . ومنه عَقِب الرَّجل . ومنه العقوبة لأنها تالية للذنب، وعنه تكون .

قوله تعالى : ﴿ كَالَّذِي ﴾ الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف . ﴿ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ أي استغوته وزيّنت له هواه ودعته إليه . يقال : هَوَى يَهوِى إلى الشيء أسرع إليه . وقال الزجاج : هو من هَوِىَ يَهْوَى، من هَوَى النفس ؛ أي زيّن له الشيطان هواه . وقراءة الجماعة « استهوته » أي هوت به، على تأنيث الجماعة . وقرأ حمزة « استهواه الشياطين » على تذكير الجمع . وروى عن ابن مسعود « استهواه الشيطان » ؛ وروى عن الحسن، وهو كذلك في حرف أُبَيّ . ومعنى « ائتنا » تابعنا . وفي قراءة عبد الله أيضا « يَدعُونه إلى الهُدَى بيّنا » . وعن الحسن أيضا « استهوته الشياطون » . ﴿ حَيْرَانَ ﴾ نصب على الحال ، ولم ينصرف لأن أنثاه حَيْرَى كسكران وسكرى وغضبان وغضبى . والحَيْرانُ هو الذي لا يهتدي لجهة أمره . وقد حار يَحار حَيْرًا وحَيْرة وحَيْرورة[1]، أي تردّد . وبه سُمّي الماء المستنقع الذي لا منفذ له حائرا ، والجمع حُوران . والحائر الموضع يتحيّر فيه الماء . قال الشاعر :

تَخطو على بَرْدِيَّتَيْن غذاهما ❊ غَدِقٌ بساحة حائرٍ يَعْبُوبُ[2]

قال ابن عباس : أي مَثَل عابد الصنم مَثَل من دعاه الغُول فيتبعه فيُصبح وقد ألقته في مَضَلّة ومَهْلَكة؛ فهو حائر في تلك المَهامِه . وقال في رواية أبي صالح : نزلت في عبدالرحمن ابن أبي بكر الصدّيق ، كان يدعو أباه الى الكفر وأبواه يدعوانه إلى الإسلام والمسلمون ؛ وهو معنى قوله : ﴿ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ﴾ فيأبى . قال أبو عمر : أمّه أمّ رُومانَ بنت الحارث بن غَنْم الكنانيّة؛ فهو شقيق عائشة . وشهد عبدُ الرحمن بن أبي بكر بَدْرًا وأُحُدًا مع قومه كافرا ، ودعا إلى البراز فقام إليه أبوه ليبارزه فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) لم نجد هذا المصدر في كتب اللغة . وفي تفسير الفخر الرازي ﺟ ٤ ص . وزاد الفراء حيرانا وحيرورة » .
(٢) اليعبوب : الطويل .

قال : "متّعْنى بنفسك" . ثم أسلم وحسُن إسلامه ، وصحب النبىّ صلى الله عليه وسلم فى هُدْنَة الحُدَيْبِيَة . هذا قول أهل السِّيَر . قالوا : كان آسْمُه عبدَ الكعبة فغيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمَه عبد الرحمن ، وكان أسنَّ ولد أبى بكر . ويقال : إنه لم يدرك النبىّ صلى الله عليه وسلم اربعةٌ وِلاءً : أبٌ وبنوه إلا أبا قُحافة وابنَه أبا بكر وآبنَه عبد الرحمن بن أبى بكر وابنَه أبا عتيق محمد بن عبد الرحمن . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ اللام لام كى ، أى أمرنا كى نسلم وبأن أقيموا الصلاة ؛ لأن حروف الإضافة يعطف بعضها على بعض . قال الفَرّاء : المعنى أمرنا بأن نسلم ؛ لأن العرب تقول : أمرتك لتذهب، وبأن تذهب بمعنًى . قال النحاس : سمعت أبا الحسن بن كَيْسان يقول هى لام الخفض ، واللامات كلها ثلاث : لامُ خفضٍ ولامُ أمرٍ ولامُ توكيد ، لا يخرج شىء عنها . والإسلام الإخلاص . وإقامة الصلاة الإتيانُ بها والدّوام عليها . ويجوز أن يكون « وأن أقيموا الصلاة » عطفًا على المعنى ، أى يدعونه إلى الهدى ويدعونه أن أقيموا الصلاة ؛ لأن معنى آئتنا أنِ آئتنا .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ابتداء وخبر وكذا ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى فهو الذى يجب أن يُعبد لا الأصنام . ومعنى ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بكلمة الحق . يعنى قوله « كُنْ » .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أى وآذكر يوم يقول كن . أو آتقوا يوم يقول كن . أو قدّر يوم يقول كن . وقيل : هو عطف على الهاء فى قوله « وآتقوه » . قال الفراء : « كن فيكون » يقال : إنه للصُّور خاصّة ؛ أى ويوم يقول للصُّور كن فيكون . وقيل : المعنى فيكون جميع ما أراد من موت الناس وحياتهم . وعلى هذين التأويلين يكون ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ ابتداء وخبر . وقيل : إن قوله تعالى : « قَوْلُه » رفعا بيكون ؛ أى فيكون ما يأمر به . و « الحقّ » من نعته . ويكون التمام على هذا « فيكون قوله الحق » . وقرأ ابن عامر

« فنكون » بالنون ، وهو إشارة إلى سرعة الحساب والبعث . وقد تقدّم فى « البقرة » القول فيه مستوفى[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ أى وله المُلْك يومَ ينفخ فى الصُّور . أو وله الحق يوم ينفخ فى الصور . وقيل : هو بدل من « يوم يقول » . والصُّور قَرْن من نُور يُنفخ فيه ، النفخة الأولى للفَناء والثانية للإنشاء . وليس جمع صُورة كما زعم بعضهم ؛ أى ينفخ فى صُوَر الموتى على ما نبيّنه . روى مُسْلم من حديث عبد الله بن عمرو " يوم يُنفخ فى الصُّور فلا يسمعه أحد إلا أصغى[(٢)] لِيتًا ورَفع لِيتًا[(٣)] — قال — وأوّل من يسمعه رجل يَلُوط[(٤)] حَوْض إبله — قال — فيَصْعَق ويَصْعَق الناسُ ثم يرسل الله — أو قال ينزل الله — مطرا كأنه الطَّلّ فتَنْبُت منه أجسادُ الناس ثم يُنفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون " وذكر الحديث . وكذا فى التنزيل « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى[(٥)] » ولم يقل فيها ؛ فعُلم أنه ليس جمع الصُّورة . والأمم مُجْمِعة على أن الذى يَنفخ فى الصُّور إسرافيلُ عليه السلام . قال أبو الهَيْثَم : من أنكر أن يكون الصُّور قَرْنا فهو كمن يُنكر العرش والميزان والصراط ، وطلب لها تأويلات . قال ابن فارس : الصُّور الذى فى الحديث كالقَرْن يُنفَخ فيه . والصُّور جمع صُورة . وقال الجوهرى : الصُّور القَرْن . قال الراجز :

لقد نَطحناهم غَداةَ الجَمْعَيْنِ ... نَطْحًا شديدًا لا كنطح الصُّوَرَيْنِ

ومنه قوله : « وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ[(٦)] » . قال الكَلْبِىّ : لا أدرى ما هو الصُّور . ويقال : هو جمع صُورة مثل بُسْرَة وبُسْر ؛ أى يُنفخ فى صُوَر الموتى الأرواح . وقرأ الحسن « يومَ يُنفخ

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٩ طبعة ثانية .
(٢) أصغى : أمال .
(٣) الليت (بكسر اللام) : صفحة العنق .
(٤) أى يطينه ويصلحه .
(٥) آية ٦٨ سورة الزمر .
(٦) آية ٨٧ سورة النمل .

فى الصُّوَر » . والصُّور (بكسر الصاد) لغة فى الصُّوَر جمع صُورة والجمع صِوار، وصِيار (بالياء)[1] لغةٌ فيه . وقال عمرو بن عبيد : قرأ عِياض « يَوْمَ يُنْفَخُ فى الصُّوَر » فهذا يعنى به الخلق . والله أعلم

قلت : وممن قال إن المراد بالصُّور فى هذه الآية جمع صُورة أبو عبيدة . وهذا وإن كان محتملا فهو مردود بما ذكرناه من الكتاب والسُّنّة . وأيضا لا ينفخ فى الصور للبعث مرتين؛ بل ينفخ فيه مرة واحدة؛ فإسرافيل عليه السلام يَنفخ فى الصُّور الذى هو القَرْن والله عز وجل يُحيي الصُّوَر .

قوله تعالى : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ برفع « عالم » صفة للذى؛ أى وهو الذى خلق السموات والأرض عالم الغيب . ويجوز أن يرتفع على إضمار المبتدأ . وقد رُوِى عن بعضهم أنه قرأ « يَنْفُخ » فيجوز أن يكون الفاعل « عالِمُ الغَيْبِ »؛ لأنه إذا كان النفخ فيه بأمر الله عز وجل كان منسوبا إلى الله تعالى . ويجوز أن يكون ارتفع ﴿عَالِمُ﴾ حملا على المعنى؛ كما أنشد سيبويه :

* لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارِعٌ لخصُومةٍ[2] *

وقرأ الحسن والأعمش « عالِمِ » بالخفض على البدل من الهاء فى « له » .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾

---

(١) نقل المؤلف هنا ما فى الصحاح، وقد حذف منه مما جعل المراد غير واضح . وعبارة الصحاح : « ... وقرأ الحسن (يوم ينفخ فى الصور) والصور بكسر الصاد لغة فى الصور جمع صورة . وينشد هذا البيت على هذه اللغة يصف الجوارى :

أشبهن من بقر الخلصاء أعينها * وهن أحسن من صيرانها صِورا

والصيران جمع صوار وهو القطيع من البقر . والصوار أيضا وعاء المسك؛ وقد جمعهما الشاعر بقوله :

إذا لاح الصوار ذكرت ليلى * وأذكرها إذا نفخ الصوار

والصيار لغة فيه » .

(٢) هذا صدر بيت للحارث بن نهيك، وتمامه كما فى كتاب سيبويه :

* ومختبط مما تطيح الطوائح *

وصف أنه كان مقيما حجة المظلوم ناصرا له . والمختبط : الطالب المعروف . وتطيح : تذهب وتهلك .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ تكلّم العلماء في هذا ؛ فقال أبو بكر محمد ابن محمد بن الحسن الجُوَيني الشافعيّ الأشعريّ في النكت من التفسير له : وليس بين الناس اختلاف في أن اسم والد إبراهيم تَارَح . والذي في القرآن يدلّ على أن آسمه آزر . وقيل : آزر عندهم ذَمٌّ في لغتهم؛ كأنه قال : وإذ قال لأبيه يامخطئ ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ وإذا كان كذلك فالاختيار الرفع . وقيل : آزر آسم صنم . وإذا كان كذلك فموضعه نصب على إضمار الفعل؛ كأنه قال : وإذ قال إبراهيم لأبيه أتتخذ آزر إلها، أتتخذ أصناما آلهة .

قلت : ما آدعاه من الاتفاق ليس عليه وفاق؛ فقد قال محمد بن إسحاق والكلبيّ والضحاك : إن آزر أبو إبراهيم عليه السلام وهو تارَح، مثل إسرائيل ويعقوب؛ فيكون له اسمان كما تقدّم. وقال مقاتل: آزر لقب، وتارَح اسم، وحكاه الثعلبيّ عن ابن اسحاق القُشَيْرِيّ. ويجوز أن يكون على العكس . قال الحسن : كان اسم أبيه آزر . وقال سليمان التَّيْميّ : هو سَبٌّ وعَيْب، ومعناه في كلامهم : المعوَجّ . وروى المُعْتَمِر بن سليمان عن أبيه قال : بلغني أنها أعوج، وهي أشدّ كلمة قالها إبراهيم لأبيه . وقال الضحّاك : معنى آزر الشيخ الهِمّ (1) بالفارسية . وقال الفرّاء : هي صفة ذَمّ بلغتهم؛ كأنه قال يامخطئ؛ فيمن رفعه . أو كأنه قال : وإذ قال إبراهيم لأبيه المخطئ ؛ فيمن خفض . ولا ينصرف لأنه على أفعل؛ قاله النحاس. وقال الجوهري : آزر آسم أعجمي، وهو مشتق من آزر فلان فلانا إذا عاونه؛ فهو مُؤازِرٌ قومه على عبادة الأصنام . وقيل : هو مشتق من القوة، والأزر القوة؛ عن ابن فارس . وقال مجاهد ويمان : آزر آسم صنم . وهو في هذا التأويل في موضع نصب، التقدير : أتتخذ آزر إلها، أتتخذ أصناما . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير، التقدير : أتتخذ آزر أصناما

قلت : فعلى هذا آزر آسم جنس . والله أعلم . وقال الثعلبيّ في كتاب العرائس : إن اسم أبي إبراهيم الذي سمّاه به أبوه تارَح ، فلما صار مع النُّمرود قَيِّمًا على خِزانة آلهته سمّاه آزر . وقال مجاهد : إن آزر ليس بآسم أبيه وإنما هو اسم صنم . وهو إبراهيم بن تارَح بن ناخور بن صاروع

---

(1) الهِم (بكسر الهاء) : الشيخ الفاني .

ابن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام . و« آزر» فيه قراءات : « أإزْرًا » بهمزتين، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة ؛ عن ابن عباس . وعنه « أأزْرا » بهمزتين مفتوحتين . وقرئ بالرفع، وروى ذلك عن ابن عباس . وعلى القراءتين الأولتين عنه «تتخذ» بغير همزة . قال المَهْدَوِيّ : أإزرا . فقيل : إنه اسم صنم؛فهو منصوب على تقدير أتتخذ إزرا ، وكذلك أأزرًا . ويجوز أن يجعل أإزرًا على أنه مشتق من الأزر وهو الظهر فيكون مفعولا من أجله ؛ كأنه قال : ألِلقوّة تتخذ أصناما . ويجوز أن يكون إزر بمعنى وِزر، أبدلت الواو همزة . قال القُشَيرِيّ : ذكر في الاحتجاج على المشركين قصة إبراهيم وردّه على أبيه في عبادة الأصنام . وأوْلَى الناس باتباع إبراهيم العرب؛ فإنهم ذريّته . أي واذكر إذ قال إبراهيم . أو ذَكّر به أن تُبسل نفس بما كسبت ، وذَكّر إذ قال إبراهيم . وقرئ « آزرُ » أي يا آزرُ، على النداء المفرد، وهي قراءة أُبَيّ ويعقوب وغيرهما . وهو يقوّى قول من يقول : إن آزر اسم أب إبراهيم . ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ مفعولان ، وفيه معنى الإنكار .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي مُلك، وزيدت الواو والتاء للمبالغة في الصفة . ومثله الرَّغَبُوت والرَّهَبُوت والجَبَرُوت . وقرأ أبو السَّمّال العَدَوِيّ « مَلْكوت » بإسكان اللام . ولا يجوز عند سيبويه حذف الفتحة لخفّتها ، ولعلها لغة . و﴿ نُرِي ﴾ بمعنى أرينا ؛ بمعنى المُضِيّ . فقيل : أراد به ما في السموات من عبادة الملائكة والعجائب وما في الأرض من عصيان بني آدم ؛ فكان يدعو على مَن يراه يعصى فيُهلكه الله ؛ فأوحى الله إليه يا إبراهيم أمسك عن عبادي، أما علمت أن من أسمائي الصّبور . روى معناه عليّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : كشف الله له عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين . وروى ابن جُريج عن القاسم عن إبراهيم النَّخَعِيّ قال : فُرِجت له

السموات السبع فنظر إليهنّ حتى انتهى إلى العرش ، وفُرجت له الأرَضون فنظر إليهنّ ، ورأى مكانه فى الجنة ؛ فذلك قوله : « وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا »[1] ؛ عن السُّدّى . وقال الضحّاك : أراه من مَلكوت السماء ما قصّه من الكواكب ، ومن ملكوت الأرض البحارَ والجبالَ والأشجارَ، ونحو ذلك مما استدلّ به . وقال بنحوه ابن عباس . وقال : جُعل حين وُلد فى سَرَب[2] وجُعل رزقه فى أطراف أصابعه فكان يَمَصُّها، وكان نُمْرود اللّعين رأى رؤيا فعُبِّرت له أنه يذهب ملكه على يدَىْ مولود يُولد ؛ فأمر بعزل الرجال عن النساء . وقيل : أمر بقتل كل مولود ذَكَر . وكان آزر من المقرَّبين عند نُمْرود فأرسله يوما فى بعض حوائجه فواقع امرأته فحملت بإبراهيم . وقيل : بل واقعها فى بيت الأصنام فحملت وخرّت الأصنام على وجوهها حينئذ ؛ فحملها إلى بعض الشِّعاب حتى وَلدت إبراهيم ، وحفر لإبراهيم سَرَباً فى الأرض ووَضع على بابه صخرةً لئلا تفترسه السباع ؛ وكانت أمُّه تختلف إليه فتُرضعه ، وكانت تجده يَمَصّ أصابعه ، من أحدها عسل ومن الآخر ماء ومن الآخر لبن ، وشَبّ وكان على سَنة مثلَ ابن ثلاث سنين . فلما أخرجه من السَّرَب توهّمه الناس أنه وُلد منذ سنين ؛ فقال لأمّه : مَن ربّى ؟ فقالت أنا . فقال : ومَن ربّك ؟ قالت أبوك . قال : ومَن ربّه ؟ قالت نُمرود . قال : ومَن ربه ؟ فلطَمَتْه، وعلمت أنه الذى يَذهب مُلْكُهم على يديه . والقصَص فى هذا تامٌّ فى قِصص الأنبياء للكسائى ، وهو كتاب مما يُقْتَدى به . قال بعضهم : كان مولده بحَرّان ولكن أبوه نقله إلى أرض بابل . وقال عامّة السّلَف من أهل العلم : وُلد إبراهيم فى زمن النّمرود بن كنعان بن سنجاريب بن كوش بن سام بن نوح . وقد مضى ذكره فى « البقرة »[3] . وكان بين الطوفان و بين مولد إبراهيم ألف ومائتا سنة وثلاث وستون سنة؛ وذلك بعد خلق آدم بثلاث آلاف سنة وثلاثمائة سنة وثلاثين سنة .

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ أى وليكون من الموقنين أريناه ذلك ؛ أى الملكوت .

(١) آية ٢٧ سورة العنكبوت . (٢) السرب (بالتحريك) : حفير أو بيت تحت الأرض .
(٣) راجع ج ٣ ص ٢٨٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ أى ستره بظلمته ، ومنه الجَنّة والجِنّة والجُنّة والجَنين والمِجَنّ والجِنّ كلُّه بمعنى السّتر . وجَنان الليل ادلهامُه وستره . قال الشاعر[1] :

ولولا جَنانُ الليلِ أدركَ رَكْضُنَا * بذي الرِّمْثِ والأَرْطَى[2] عِيَاضَ بْنَ نَاشِبِ

ويقال : جُنون الليل أيضا . ويقال : جَنّ الليل وأجَنّه الليلُ، لغتان . ﴿ رَأَى كَوْكَبًا ﴾ هذه قصّة أخرى غيرُ قصّة عرض المَلَكوت عليه . فقيل : رأى ذلك من شَقّ الصخرة الموضوعة على رأس السَّرَب . وقيل : لما أخرجه أبوه من السَّرَب وكان وقت غيبوبة الشمس فرأى الإبلَ والخيلَ والغنَم فقال : لابدّ لها من رَبّ. ورأى المُشْتَرِى أو الزُّهَرة ثم القمرَ ثم الشمس، وكان هذا فى آخر الشهر . قال محمد بن إسحاق : وكان ابنَ خمسَ عشرة سنة . وقيل : ابن سبع سنين . وقيل : لما حاجّ نمرودا كان ابن سبع عشرة سنة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ﴾ اختُلف فى معناه على أقوال؛ فقيل : كان هذا منه فى مُهْلة النظر وحال الطفولية وقبل قيام الحجة؛ وفى تلك الحال لا يكون كفر ولا إيمان . استدلّ قائلو هذه المقالة بما روى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : « فلما جَنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى» فعبده حتى غاب عنه، وكذلك الشمس والقمر؛ فلما تمّ نظره قال : « إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » . واستدلّ بالأفول؛ لأنه أظهرُ الآيات على الحدوث . وقال قوم : هذا لا يصحّ؛ وقالوا : غير جائز أن يكون لله تعالى رسولٌ يأتى عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله مُوحد وبه عارف، ومن كل معبود سواه برىء . قالوا : وكيف يصحّ أن يتوهّم هذا على مَن عصمه الله وأتاه رُشده من قبل، وأراه مَلكوته ليكون من المُوقنين ، ولا يجوز

(١) هو دريد بن الصمة، وقيل : هو خفاف بن ندبة (عن اللسان) .

(٢) الرمث (بالكسر) مرعى من مراعى الإبل، واسم واد لبنى أسد . والأرطى (جمع أرطاة) : شجر ينبت بالرمل .

أن يُوصف بالخُلُوّ عن المعرفة ؛ بل عرف الربَّ أوّلَ النظر . قال الزجاج : هذا الجواب عندى خطأ وغلط ممن قاله ؛ وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال : «وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَنْ نَعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ»[1] وقال جل وعز : «بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»[2] أى لم يُشرك قَطّ . قال : والجواب عندى أنه قال «هَٰذَا رَبِّى» على قولكم ؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر ؛ ونظير هذا قوله تعالى : «أَيْنَ شُرَكَائِىَ»[3] وهو جل وعلا واحدٌ لا شريك له . والمعنى : أين شركائى على قولكم . وقيل : لما خرج إبراهيم من السَّرَب رأى ضوء الكوكب وهو طالب لربّه ؛ فظن أنه ضوءه قال «هذا ربّى» أى بأنه يتراءى لى نوره . «فَلَمَّا أَفَلَ» علم أنه ليس بربّه . «فلما رأى القمر بازغا» ونظر إلى ضوئه «قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى» وليس هذا شركا . إنما نسب ذلك الضوءَ إلى ربّه فلما رآه زائلا دلّه العلم على أنه غير مستحقّ لذلك ؛ فنفاه بقلبه وعلم أنه مربوب وليس بربّ . وقيل : إنما قال «هذا ربّى» لتقرير الحجة على قومه فأظهر موافقتهم ؛ فلما أفَلَ النّجم قرّر الحجة وقال : ما تغيّر لا يجوز أن يكون ربًّا . وكانوا يعظّمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها . وقال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى هذا ما صحّ عن ابن عباس أنه قال فى قول الله عز وجل : «نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ»[4] قال : كذلك قلب المؤمن يعرف الله عز وجل ويستدلّ عليه بقلبه ، فإذا عرفه ازداد نورا على نور ؛ وكذا إبراهيم عليه السلام عرف الله عز وجل بقلبه واستدلّ عليه بدلائله ، فعلم أن له ربًّا وخالقا . فلما عرّفه الله عز وجل بنفسه ازداد معرفة فقال : «أَتُحَاجُّونِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ» . وقيل : هو على معنى الاستفهام والتوبيخ ، مُنْكِرا لفعلهم . والمعنى : أهذا ربّى ، ومثل هذا يكون ربًّا ! فحذف الهمزة . وفى التنزيل «أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ»[5] أى أفهم . وقال الهُذَلىّ[6] :

رَفَونى وقالوا يا خُوَيلِدُ لا تُرَعْ ٭ فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

---

(١) آية ٣٥ سورة إبراهيم . (٢) آية ٨٤ سورة الصافات . (٣) آية ٢٧ سورة النحل
(٤) آية ٣٥ سورة النور . (٥) آية ٣٤ سورة الأنبياء . (٦) هو أبو خراش .

آخـــر :[1]

لَعَمْرُكَ ما أدرِى و إن كنتُ دارِيًا * بسبعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أمْ بثَمانِ

وقيل: المعنى هذا ربى على زعمكم؛ كما قال تعالى: «أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ»[2]. وقال: «ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ»[3] أى عند نفسك. وقيل: المعنى أى وأنتم تقولون هذا ربى؛ فأضمر القول، وإضماره فى القرآن كثير. وقيل: المعنى هذا ربى؛ أى أهذا دليل على ربى.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أى طالعا. يقال: بَزَغ القمر إذا ابتدأ فى الطلوع، والبَزْغ الشق؛ كأنه يشق بنوره الظلمة؛ ومنه بَزَغ البَيْطار الدابة إذا أسال دمها. ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ أى لئن لم يُثَبِّتنى على الهداية. وقد كان مهتديا؛ فيكون جرى هذا فى مُهلة النظر، أو سأل التثبيت لمكان الجواز العقلى؛ كما قال شعيب: «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ»[4]. وفى التنزيل «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» أى ثبّتنا على الهداية. وقد تقدّم.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ نصب على الحال؛ لأن هذا من رؤية العين. بَزَغ يَبْزُغ بزوغا إذا طلع. وأَفَل يأفِل أفولا إذا غاب. وقال: «هذا» والشمس مؤنثة؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾. فقيل: إن تأنيث الشمس لتفخيمها وعظمها؛ فهو كقولهم: رجل نَسّابة وعلّامة. وإنما قال: «هَذَا رَبِّي» على معنى: هذا الطالعُ ربى؛ قاله الكسائى

(١) هو عمر بن أبي ربيعة. (٢) آية ٦٢ سورة القصص. (٣) آية ٤٩ سورة الدخان.

(٤) آية ٨٩ سورة الأعراف.

والأخفش . وقال غيرهما : أى هــذا الضوء . قال أبو الحسن علىّ بن سليمان : أى هــذا الشخص؛ كما قال الأعشى :

قامت تبكيــه على قــبرِهِ * من لِى مِن بعدِك يا عامرُ
تركتَنِى فى الدار ذا غُرْبةٍ (١) * قد ذَلّ من ليس له ناصرُ

قوله تعـالى : إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٧٩)

قوله تعـالى : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ ﴾ أى قصدتُ بعبادتى وتوحيـدى لله عز وجل وحدَه . وذَكَر الوجه لأنه أظهـر ما يُعـرف به صاحبه . ﴿ حَنِيفًـا ﴾ مائلا إلى الحـق . ﴿ وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ اسم «ما» وخبرها . و إذا وقفت قلت : «أنا» زدت الألف لبيان الحركة، وهى اللغــة الفصيحة . وقال الأخفش : ومن العرب من يقول : « أنْ » . وقال الكسائى : ومن العرب من يقول : «أنه» . ثلاث لغات . وفى الوصل أيضا ثلاث لغات : أن تحذف الألف فى الإدراج ؛ لأنها زائدة لبيان الحركة فى الوقف . ومن العرب من يُثبت الألف فى الوصل؛ كما قال الشاعر :

* أنا سيفُ العشيرة فاعرفونى (٢) *

وهى لغة بعضِ بنى قيس وربيعة؛ عن الفراء . ومن العرب من يقول فى الوصل : آنْ فعلت، مثل عان فعلت؛ حكاه الكسائى عن بعض قُضاعة .

قوله تعـالى : وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)

---

(١) الشاهد فيه : «ذا غربة» أى ذات غربة .

(٢) هذا صدر بيت، وعجزه كما فى اللسان مادة أنن : * جميعا قد تذريت السناما *

قوله تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ دليل على الحجاج والجدال ؛ حاجّوه فى توحيد الله .

﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللَّهِ ﴾ قرأ نافع بتخفيف النون، وشدّد النونَ الباقون . وفيه عن ابن عامر من رواية هشام عنه خلاف؛ فمن شدّد قال : الأصل فيه نونان، الأولى علامة الرفع والثانية فاصلة بين الفعل والياء ؛ فلما اجتمع مِثلان فى فعل وذلك ثقيل أدغم النون فى الأخرى فوقع التشديد، ولابدّ من مدّ الواو لئلا يلتقيَ الساكنان، الواو وأوّل المشدّد؛ فصارت المدّةُ فاصلةً بين الساكنين . ومن خفّف حذف النون الثانية استخفافا لاجتماع المِثلين، ولم تُحذف الأولى لأنها علامةُ الرفع ؛ فلو حُذفت لأشتبه المرفوع بالمجزوم والمنصوب . وحُكى عن أبى عمرو ابن العَلاء أن هذه القراءة لَحْنٌ . وأجاز سيبويه ذلك فقال : استثقلوا التضعيف؛ وأنشد :

تراه كالثَّغَامِ يُعَلُّ مِسْكًا ... يَسوء الفالياتِ إذا فَلَيْنِى[1]

قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ أى لأنه لا ينفع ولا يضر — وكانوا خوّفوه بكثرة آلهتهم — إلا أن يُحييَه ويقدّره فيخاف ضرره حينئذ؛ وهو معنى قوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا ﴾ أى إلا أن يشاء أن يلحقنى شىء من المكروه بذنب عملتُه فتتمّ مشيئته . وهذا استثناء ليس من الأوّل . والهاء فى « بِهِ » يجوز أن تكون لله عز وجل، ويجوز أن تكون للعبود . وقال : « إلّا أن يشاء ربّى » يعنى أن الله تعالى لا يشاء أن أخافهم . ثم قال : ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أى وسع علمه كل شىء . وقد تقدّم[2] .

قوله تعالى : وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)

---

(١) البيت لعمرو بن معد يكرب، وصف شعره وأن الشيب قد شمله . والثغام : نبت له نور أبيض يشبه به الشيب . ويعل : يطيب شيئا بعد شىء؛ والعلل : الشرب بعد الشرب .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٨٤ طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ فى « كيف » معنى الإنكار؛ أنكر عليهم تخويفهم إياه بالأصنام وهم لايخافون الله عزوجل؛ أى كيف أخاف مواتا وأنتم لاتخافون الله القادر على كل شيء. ﴿ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ أى حجة؛ وقد تقدم.(١) ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ أى من عذاب الله : الموحِّد أم المشرك ؛ فقال الله قاضيا بينهم : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ أى بشرك؛ قاله أبو بكر الصدّيق وعلىّ وسلْمان وحُذيفة، رضى الله عنهم. وقال ابن عباس : هو من قول إبراهيم؛ كما يسأل العالِمُ ويجيب نفسه. وقيل : هو من قول إبراهيم؛ أى أجابوا بما هو حجة عليهم؛ قاله ابن جُريج . وفى الصحيح عن ابن مسعود لما نزلت « الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهُم بِظُلْمٍ » شقّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه « يَابُنَيَّ لَاتُشْرِكْ بالله إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » . ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ أى فى الدنيا.

قوله تعالى : وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة . وقال مجاهد : هى قوله «الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بظُلْم» . وقيل: حجته عليهم أنهم لما قالوا له : أما تخاف أن تُخَبِّلك آلهتُنا لسبِّك إياها؛ قال لهم: أفلا تخافون أنتم منها إذ سوّيتم بين الصغير والكبير فى العبادة والتعظيم ؛ فيغضب الكبير فيخبّلكم . ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى بالعلم والفهم والإمامة والملك . وقرأ الكوفيون « درجاتٍ » بالتنوين . ومثله فى «يوسف» أوقعوا الفعل على «مَن» لأنه المرفوع فى الحقيقة، التقدير: ونرفع من نشاء إلى درجات . ثم حذفت إلى . وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو بغير تنوين على الإضافة، والفعل *واقع على الدرجات ، وإذا رُفعت فقد رُفع صاحبها . يقوّى هذه القراءة قوله تعالى :*

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٢ طبعة أولى أو ثانية .

«رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ» وقوله عليه السلام "اللّهم ارفع درجته". فأضاف الرفع إلى الدرجات. وهو لا إله إلا هو الرفيع المتعال فى شرفه وفضله. فالقراءتان متقاربتان؛ لأن من رُفعت درجاته فقد رُفع، ومن رُفع فقد رُفعت درجاته، فاعلم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ يضع كل شئ موضعه.

قوله تعالى : وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أى جزاء له على الاحتجاج فى الدّين وبذل النفس فيه. ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أى كل واحد منهم مهتد. ﴿وَكُلًّا﴾ نصب بهدينا ﴿وَنُوحًا﴾ نصب بهدينا الثانى. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أى من ذرّية إبراهيم. وقيل : من ذرية نوح؛ قاله الفرّاء واختاره الطّبرىّ وغيرُ واحد من المفسرين كالقُشيرىّ وابن عطية وغيرهما. والأوّل قاله الزجاج، واعترض بأنه عدّ من الذرّية يونس ولوطا وما كان من ذرّية إبراهيم. وكان لوط ابن أخيه. وقيل : ابن أخته. وقال ابن عباس : هؤلاء الأنبياء جميعا مضافون إلى ذرّية إبراهيم، وإن كان فيهم مَن لم يلحقه ولادة من جهته من جهة أب ولا أمّ؛ لأن لوطا ابن أخى إبراهيم. والعرب تجعل العمّ أبا كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا : « نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ». وإسماعيل عمّ يعقوب. وعدّ عيسى من ذرّية إبراهيم وإنما هو ابن البنت. فأولاد فاطمة رضى الله عنها ذرّية النبىّ صلى الله عليه وسلم. وبهذا تمسّك من رأى أن ولد البنات يدخلون فى اسم الولد وهى : —

الثانيــة ــ قال أبو حنيفة والشافعىّ : من وَقف وقفًا على ولده وولد ولده أنه يدخل فيه ولد ولده وولد بنـاته ما تنـاسلوا . وكذلك إذا أوصى لقرابتـه يدخل فيـه ولد البنت . والقرابة عنـد أبى حنيفة كلُّ ذى رَحِم مَحْرَم . ويسقط عنـده ٱبن العمّ والعمّـة وابنُ الخال والخالة؛ لأنهم ليسوا بمَحْرمين . وقال الشافعىّ : القرابة كلّ ذى رَحِم مَحْرَم وغيره . فلم يسقط عنـده ابن العمّ ولا غيره . وقال مالك : لا يدخل فى ذلك ولد البنات . وقوله : لقرابتى وعقبى كقوله لولدى وولد ولدى . يدخل فى ذلك ولد البنين ومن يرجع إلى عَصَبـة الأب وصُلْبه، ولا يدخل فى ذلك ولد البنات . وقد تقدّم نحو هذا عن الشافعىّ فى «آل عمران»[1] . والحجة لها قوله سبحانه : «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ»[2] فلم يَعقِل المسلمون من ظاهر الآية إلا ولدَ الصُّلب و ولد الآبن خاصّـةً . وقال تعالى : «وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى»[3] فأعطى عليه السلام القرابة منهم من أعمامه دون بنى أخواله . فكذلك ولد البنات لا ينتمون إليه بالنسب، ولا يلتقون معـه فى أب . قال ابن القصّار : وحجة من أدخل البنات فى الأقارب قولُه عليـه السلام للحسن بن علىّ " إن آبنى هذا سيّد " . ولا نعلم أحدا يمتنع أن يقول فى ولد البنات إنهم ولد لأبى أمّهم . والمعنى يقتضى ذلك؛ لأن الولد مشتق من التولد وهم متولدون عن أبى أمّهم لا محالة ؛ والتولّد من جهة الأمّ كالتولّد من جهة الأب . وقد دلّ القرآن على ذلك ، قال الله تعـالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ إلى قوله ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فجعل عيسى من ذرّيته وهو آبن آبنته .

الثالثــة ــ قد تقدّم فى «النساء»[4] بيان ما لا ينصرف من هذه الأسماء . ولم ينصرف داود لأنه آسم أعجمىّ، ولمـّا كان على فاعول لايحسُن فيه الألف واللام لم ينصرف . و إلياس أعجمىّ . قال الضحاك : كان إلياس من ولد إسماعيل . وذكر القُتَبىّ قال : كان من سِـبط يُوشـع بن نون . وقرأ الأعرج والحسن وقتـادة «وٱلياس» بوصـل الألف . وقرأ أهل

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٠٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ١١ سورة النساء .
(٣) آية ٤١ سورة الأنفال . (٤) فى قوله تعالى : «إنا أوحينا إليك ...» آية ١٦٣ .

الحرَمين وأبو عمرو وعاصم «والْيَسع» بلام مخففة . وقرأ الكوفيون إلا عاصما « واللَّيْسع » . وكذا قرأ الكسائيّ ، وردّ قراءة من قرأ «والْيَسع» . قال : لأنه لا يقال اليَفعَل مثل الْيَحْيَى . قال النحاس : وهذا الردّ لا يلزم ، والعرب تقول : الْيَعْمَل والْيَحْمَد ، ولو نكّرت يحيى لقلت اليحيي . وردّ أبو حاتم على من قرأ « اللَّيْسع » وقال : لا يوجد لَيْسع . وقال النحاس : وهذا الردّ لا يلزم ، فقد جاء فى كلام العرب حَيْدَر وزَيْنب ، والحقّ فى هذا أنه آسم أعجميّ ، والعجمة لا تؤخذ بالقياس إنما تؤخذ سماعا والعرب تغيّرها كثيرا ، فلا ينكر أن يأتى الاسم بلغتين . قال مَكّيّ : من قرأ بلامين فأصل الاسم لَيْسَع ، ثم دخلت الألف واللام للتعريف . ولو كان أصله يسع ما دخلته الألف واللام ؛ إذ لا يدخلان على يزيد ويشكر ، اسمين لرجلين ؛ لأنهما معرفتان علمان . فأما « ليسع » نكرة فتدخله الألف واللام للتعريف ، والقراءة بلام واحدة أحبّ إلىّ ؛ لأن أكثر القراء عليه . وقال المَهْدَوِيّ : من قرأ « ليسع » بلام واحدة فالأسم يسع ، ودخلت الألف واللام زائدتين ، كزيادتهما فى نحو الخمسة عشر ، وفى نحو قوله :

وجدنا اليَزِيدَ بنَ الوليد مباركًا * شديدا بأعباء الخلافة كاهلُه[1]

وقد زادوها فى الفعل المضارع نحو قوله :

فيستخرَج اليَرْبُوع من نافقائه * ومن بيته ذو الشِّيخة الْيَتَقَصّعُ[2]

يريد الذى يتقصّع . قال القُشَيرِيّ : قرئ بتخفيف اللام والتشديد . والمعنى واحد فى أنه آسم لنبيّ معروف ، مثل إسماعيل وإبراهيم ، ولكن خرج عما عليه الأسماء الأعجمية بإدخال الألف واللام . وتوهّم قوم أن اليسع إلياس ، وليس كذلك ؛ لأن الله أفرد كل واحد بالذِّكر . وقال وهب : اليسع صاحب إلياس ، وكانا قبل زكريا ويحيى وعيسى . وقيل : إلياس هو إدريس جدّ نوح وإلياس من ذرّيته . وقيل : إلياس هو الخضر . وقيل : لا ، بل الْيَسع هو الخضر . « ولوطا » أعجميّ انصرف لخفّته . وسيأتى اشتقاقه فى « الأعراف »[3] .

---

(١) البيت لابن ميادة .   (٢) البيت لذى الخرق الطهوى ؛ كما فى شرح القاموس . النفقة والنافقاء : جحر الضب واليربوع . وقيل موضع يرققه اليربوع من جحره ، فاذا أتى من قبل القاصعاء (وهو جحره) ضرب النافقاء برأسه فخرج .

(٣) آية ٨٠ .

قوله تعالى : وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ «من» للتبعيض ؛ أى هدينا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم . ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ قال مجاهد : خلّصناهم ، وهو عند أهل اللغة بمعنى اخترناهم ؛ مشتق من جبيت الماء فى الحوض جمعته . فالاجتباء ضم الذى تجتبيه إلى خاصتك . قال الكسائى : جبيت الماء فى الحوض جبا ، مقصور . والجابية الحوض . قال :

* بجَابِيَةِ الشَّيْخِ العِرَاقِىِّ تَفْهَق [1] *

وقد تقدّم معنى الاصطفاء والهداية [2] .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ أى لو عبدوا غيرى لحبطت أعمالهم ، ولكنى عصمتهم . والحبوط البطلان . وقد تقدّم فى « البقرة » [3] .

قوله تعالى : أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ والحكم ﴾ العلم والفقه . ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا ﴾ أى بآياتنا . ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ أى كفار عصرك يا محمد . ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا ﴾ جواب الشرط ، أى وكّلنا بالإيمان بها ﴿ قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ يريد

(١) هذا عجز بيت للأعشى ، وصدره كما فى اللسان : * تروح على آل المحلق جفنة * الجفنة : القصعة . والفهق : الامتلاء .

(٢) راجع جـ ١ ص ١٤٦ طبعة ثانية أو ثالثة . وجـ ٢ ص ١٣٣ طبعة ثانية . ولم يتقدم للاصطفاء ذكر فى هذه الآية ، غير أنه ورد فى آية ١٣٠ سورة البقرة جـ ٢ ص ١٣٢ .

(٣) راجع جـ ٣ ص ٤٦ طبعة أولى أو ثانية .

الأنصار من أهل المدينة والمهاجرين من أهل مكة . وقال قتادة : يعني النبيين الذين قص الله عز وجل . قال النحاس : وهذا القول أشبه بالمعنى؛ لأنه قال بعدُ : « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » . وقال أبو رجاء : هم الملائكة . وقيل : هو عام في كل مؤمن من الجن والإنس والملائكة . والباء في « بكافرين » زائدة للتأكيد .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ الاقتداء طلب موافقة الغير في فعله . فقيل : المعنى اصبر كما صبروا . وقيل : معنى ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ التوحيد والشرائع مختلفة . وقد احتج بعض العلماء بهذه الآية على وجوب اتباع شرائع الأنبياء فيما عدم فيه النص ؛ كما في صحيح مسلم وغيره : أن أخت الرُّبَيِّع[1] أم حارثة جرحت إنسانا فاختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "القصاصَ القصاصَ" فقالت أم الرَّبيع : يارسول الله أيقتص من فلانة ! والله لا يقتص منها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سبحان الله يا أم الرَّبيع القصاصُ كتاب الله" . قالت : والله لا يقتص منها أبدا . قال : فما زالت حتى قبلوا الدِّية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن من عباد الله مَن لو أقسم على الله لأبَرّه" . فأحال رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوله : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ »[2] الآية . وليس في كتاب الله تعالى نصّ على القصاص في السنّ إلا في هذه الآية ؛ وهي خبر عن شرع التوراة ومع ذلك فحكم بها وأحال عليها . وإلى هذا ذهب مُعْظَم أصحاب مالك وأصحاب الشافعيّ ، وأنه يجب العمل بما وجد منها . قال ابن بكير : وهو الذي تقتضيه أصول مالك

---

(١) الربيع : بضم الراء وفتح الموحدة وتشديد التحتية المكسورة بعدها عين مهملة . أما أم الربيع فهي بفتح الراء وكسر الموحدة وتخفيف الياء . راجع شرح النووي على صحيح مسلم باب « اثبات القصاص في الأسنان وما في معناها » ففيه كلام طويل عن هذه القصة . (٢) آية ٤٥ سورة المائدة .

وخالف فى ذلك كثير من أصحاب مالك وأصحاب الشافعي والمعتزلة ؛ لقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا »[1] . وهـذا لا حجة فيه؛ لأنه يحتمل التقيـيد إلا فيا قص عليكم من الأخبار عنهم مما لم يأت فى كتابكم . وفى صحيح البخاري عن العوام قال : سألت مجاهدا عن سجدة « ص » فقال : سألت ابن عباس عن سجدة « ص » فقال : أو تقرأ « وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ » إلى قوله « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ » وكان داود عليه السلام ممن أمر نبيكم عليه السلام بالاقتداء به .

الثانيـــة ــ قرأ حمزة والكسائي «اقتد قل» بغير هاء فى الوصل . وقرأ ابن عامر « اقْتَدِهِي قُلْ » . قال النحاس : وهـذا لحن؛ لأن الهاء لبيان الحركة فى الوقف وليست بهاء إضمار ولا بعدها واو ولا ياء، وكذلك أيضا لا يجوز «فبهداهم اقتد قل» . ومن اجتنب اللحن واتبع السواد قرأ « فبهداهم اقتده » فوقف ولم يصل ؛ لأنه إن وصل بالهاء لحن وإن حذفها خالف السواد . وقرأ الجمهور بالهاء فى الوصل على نية الوقف وعلى نية الإدراج اتباعا لثباتهـا فى الخط . وقرأ ابن عياش وهشام « اقتـدِهِ قُلْ » بكسر الهـاء، وهو غلط لا يجوز فى العربيـــة .

قوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أى جعلا على القرآن . ﴿إِنْ هُوَ﴾ أى القرآن . ﴿إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ أى هو موعظة للخلق . وأضاف الهداية اليهم فقال : «فبهداهم اقتده» لوقع الهداية بهم . وقال : ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ لأنه الخالق للهداية .

قوله تعـالى : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)

(١) آية ٤٨ سورة المائدة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أى فيما وجب له واستحال عليه وجاز .
قال ابن عباس : ما آمنوا أنه على كل شيء قدير . وقال الحسن : ما عظّموه حقّ عظمته .
وهذا يكون من قولهم : لفلان قَدر . وشرحُ هذا أنهم لما قالوا : « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ
شَيْءٍ » نَسَبُوا الله عز وجل إلى أنه لا يقيم الحجة على عباده، ولا يأمرهم بما لهم فيه الصلاح؛
فلم يعظّموه حقّ عظمته ولا عرفوه حقّ معرفته . وقال أبو عبيدة : أى ما عرفوا الله حق
معرفته . قال النحاس : وهذا معنى حسن؛ لأن معنى قدَرت الشيء وقدّرته عرفت مقداره .
ويدلّ عليه قوله تعالى : « إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ » أى لم يعرفوه حق معرفته؛
إذا أنكروا أن يرسل رسولا . والمعنيان متقاربان . وقد قيل : وما قدروا نِعَمَ الله حق
تقديرها . وقرأ أبو حَيْوَة « وما قدروا الله حق قدَره » بفتح الدال، وهي لغة .

﴿ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعني مشركي قريش .
وقال الحسن وسعيد بن جبير : الذى قاله أحد اليهود ، قال : لم يُنزل الله كتابا من السماء .
قال السُّدّى : اسمه فنحاص . وعن سعيد بن جُبير أيضا قال : هو مالك بن الصَّيف، جاء
يخاصم النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: "أَنْشُدُك بالذى أنزل التوراة
على موسى أما تجد فى التوراة أن الله يبغض الحَبْر السَّمين" ؟ وكان حبرا سمينا . فغضب
وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء . فقال له أصحابه الذين معه : ويحك ! ولا على
موسى؟ فقال : والله ما أنزل الله على بَشَر من شيء ؛ فنزلت الآية . ثم قال نقضا لقولهم وردًّا
عليهم : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ
— أى فى قراطيس — يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ هذا لليهود الذين أخفَوا صفة النبيّ صلى الله
عليه وسلم وغيرها من الأحكام . وقال مجاهد : قوله « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به
موسى » خطاب للمشركين، وقوله « يجعلونه قراطيس » لليهود « وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا
آبَاؤُكُمْ » للمسلمين . وهذا يصحّ على قراءة من قرأ « يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون »
بالياء . والوجه على قراءة التاء أن يكون كله لليهود، ويكون معنى « وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا »

أى وعلمتم ما لم تكونوا تعلمونه أنتم ولا آباؤكم، على وجه المنّ عليهم بإنزال التوراة . وجعلت التوراة صُحُفًا فلذلك قال « قراطيس يبدونها » أى القراطيس . وهذا ذمّ لهم ، ولذلك كره العلماء كَتْب القرآن أجزاء . ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ أى قل يا محمد الله أنزل ذلك الكتاب على موسى وهذا الكتاب علىّ . أو قل الله علمكم الكتاب . ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أى لاعبين، ولو كان جوابا للأمر لقال يلعبوا . ومعنى الكلام التهديد . وقيل : هو من المنسوخ بالقتال؛ ثم قيل : « يجعلونه » فى موضع الصفة لقوله « نُورًا وَهُدًى » فيكون فى الصلة . ويحتمل أن يكون مستأنفا، والتقدير : يجعلونه ذا قراطيس . وقوله « يُبْدُونَهَا ويُخْفُون كثيرا » يحتمل أن يكون صفة لقراطيس ؛ لأن النكرة توصف بالجمل . ويحتمل أن يكون مستأنفا حسب ما تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ صفة . ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ أى بُورك فيه، والبركة الزيادة . ويجوز نصبه فى غير القرآن على الحال . وكذا ﴿ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى من الكتب المنزلة قبله ، فإنه يوافقها فى نفى الشرك وإثبات التوحيد . ﴿ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ يريد مكة ـ وقد تقدم معنى تسميتها بذلك[1] ـ والمراد أهلها ، فحذف المضاف؛ أى أنزلناه للبركة والإنذار . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعنى جميع الآفاق . ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يريد أتباع محمد عليه السلام ؛ بدليل قوله : ﴿ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ وإيمان من آمن بالآخرة ولم يؤمن بالنبىّ عليه السلام ولا بكتابه غير معتدّ به .

---

(١) راجع ج ٤ ص ١٣٨ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣)

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ابتداء وخبر؛ أى لا أحد أظلم . ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أى ٱختلق . ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ فزعم أنه نبيّ ﴿ولم يُوحَ إليه شيء﴾ . نزلت فى رحمان اليمامة والأسود العَنْسِيّ وسَجَاح زوج مسيْلِمَة ؛ كلّهم تنبأ وزعم أن الله قد أَوحى إليه . قال قتادة : بلغنا أن الله أنزل هذا فى مسيْلِمة؛ وقاله ابن عباس .

قلت : ومن هــذا النَّمَط من أعرض عن الفقه والسّنَن وما كان عليه السلف من السنن فيقول : وقع فى خاطرى كذا، أو أخبرنى قلبي بكذا ؛ فيحكمون بمـا يقع فى قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم، ويزعمون أن ذلك لصفائهـا من الأكدار وخلوها عن الأغيار، فتتجلّى لهم العلوم الإلٰهية والحقائق الربّانية، فيقفون على أسرار الكليّات ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، ويقولون : هذه الأحكام الشرعية العامة، إنمـا يحكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون لتلك النصوص . وقد جاء فيما ينقلون : استفت قلبك وإن أفتاك المُفْتُون؛ ويستدلّون على هذا بالخَضِر، وأنه استغنى بمـا تجلّى له من تلك العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وهذا القول زندقة وكفرٌ يقتل قائله ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب ؛ فإنه يلزم منه هــدّ الأحكام وإثبات أنبياء بعــد نبيّنا عليه السلام . وسيأتى لهذا المعنى فى «الكهف» مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ «مَن» فى موضع خفض؛ أى ومن أظلم ممن قال سأنزل ، والمراد عبد الله بن أبى سَرْح الذى كان يكتب الوَحْىَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم آرتدّ ولحِق بالمشركين . وسبب ذلك فيما ذكر المفسرون أنه لما نزلت الآية التى فى « المؤمنين » : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ »[1] دعاه النبىّ صلى الله عليه وسلم فأملاها عليه ؛ فلما انتهى إلى قوله « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ » عَجِب عبد الله فى تفصيل خلق الإنسان فقال : « تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هكذا أنزلت علىّ" فشكّ عبد الله حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقا لقد أوحِىَ إلىّ كما أوحِىَ إليه ، ولئن كان كاذبا لقد قلتُ كما قال . فآرتدّ عن الإسلام ولحِق بالمشركين ؛ فذلك قوله « وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » رواه الكلبى عن ابن عباس . وذكره محمد بن إسحاق قال حدثنى شُرَحْبِيل قال : نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح « وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ » آرتدّ عن الاسلام ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أمر بقتله وقتلِ عبد الله بن خَطَل ومِقْيَس بن صُبابة ولو وُجدوا تحت أستار الكعبة ؛ ففرّ عبد الله بن أبى سرح إلى عثمان رضى الله عنه ، وكان أخاه من الرّضاعة ، أرضعت أُمّه عثمانَ ، فغيّبه عثمان حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما آطمأن أهل مكة وآستأمنه له ؛ فصمَت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ثم قال : "نعم" . فلما انصرف عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ماصَمَتُّ إلا ليقوم إليه بعضُكم فيضربَ عُنُقَه" . فقال رجل من الأنصار : فهلّا أومأتَ إلىّ يارسول الله ؟ فقال : "إن النبىّ لاينبغى أن تكون له خائنةُ الأعين"[2] . قال أبو عمر: وأسلم عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح أيامَ الفتح فحسُن إسلامه ، ولم يظهر منه ما يُنكر عليه بعد ذلك . وهو أحد النُّجباء العقلاء الكرماء من قريش ، وفارسُ بنى عامر بن لُؤَىّ المعدودُ فيهم ؛ ثم ولّاه عثمان بعد ذلك مصر سنة خمس وعشرين . وفُتح على يديه إفريقيّة سنة سبع وعشرين ، وغزا منها الأساود من أرض النُّوبة سنة إحدى وثلاثين ، وهو هادنهم الهُدْنة الباقية إلى اليوم .

---

(١) آية ١٢ (٢) أى يضمر فى نفسه غير ما يظهره ؛ فاذا كف لسانه وأومأ بعينه فقد خان .

وغزا الصّوارِى من أرض الرُّوم سنة أربع وثلاثين؛ فلما رجع من وِفاداته منعه ابن أبى حُذيفة من دخول الفُسْطاط ، فمضى إلى عَسْقلان ، فأقام فيها حتى قُتل عثمان رضى الله عنه . وقيل : بل أقام بالرّملة حتى مات فارًّا من الفتنة . ودعا ربّه فقال : اللّهُمّ اجعل خاتمة عملى صلاة الصبح ، فتوضأ ثم صلّى فقرأ فى الركعة الأولى بأم القرآن والعاديات ، وفى الثانيـة بأم القرآن وسورة ، ثم سلّم عن يمينه ، ثم ذهب يسلّم عن يساره فقبض الله رُوحه . ذكر ذلك كلّه يزيدُ بن أبى حبيب وغيرُه . ولم يُبايع لعلىّ ولا لمعاوية . وكانت وفاته قبل اجتماع الناس على معاوية . وقيل : إنه تُوُفِّىَ بإفريقيّة . والصحيح أنه تُوُفِّى بعَسْقلان سنة ست أو سبع وثلاثين . وقيل : سنة ست وثلاثين . وروى حفص بن عمـر عن الحكَم بن أَبَان عن عكرمة أن هـذه الآية نزلت فى النّضر بن الحـارث ؛ لأنه عارض القرآن فقال : والطاحنات طحنا . والعاجنات عجنا . فالخابزات خبزا . فاللاقمات لقما .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ أى شدائده وسكراته . والغَمْرة الشدّة ؛ وأصلها الشىء الذى يغمُر الأشيـاء فيُغطّيها . ومنه غَمْره المـاء . ثم وُضعت فى معنى الشدائد والمكاره . ومنه غَمرات الحرب . قال الجوهرى : والغَمْرة الشدة ، والجمع غُمَر مثل نَوْبة ونُوَب . قال القُطامىّ يصف سفينة نوح عليه السلام :

• وحانَ لِتالِكَ الغُمَرِ انْحِسَارُ •

وغَمَرات الموت شدائده . ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ ابتداء وخبر . والأصل باسطون . قيـل : بالعذاب ومَطارق الحديد ؛ عن الحسن والضحاك . وقيـل : لقبض أرواحهم ؛ وفى التنزيل : «وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ»[2] فجمعت

---

(١) قال ابن الأثير فى كتابه (الكامل) : « ... وأما سبب هذه الغزوة فإن المسلمين لما أصابوا من أهل افريقية وقتلوهم وسبوهم خرج قسطنطين بن هرقل فى جمع له لم تجمع الروم مثله مذ كان الإسلام ، فخرجوا فى خمسمائة مركب أو ستمائة وخرج المسلمون ... » الخ . وإنما سميت غزوة الصوارى لكثرة صوارى المراكب واجتماعها . وراجع تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ٩٠ طبع أوربا . والطبرى قسم أول ص ٢٨٦٥ طبع أوربا .

(٢) آية ٥٠ سورة الأنفال .

هذه الآية القولين . يقال : بسط إليه يده بالمكروه . ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ﴾ أي خلصوها من العذاب إن أمكنكم، وهو توبيخ . وقيل : أخرجوها كرها؛ لأن روح المؤمن تَنْشَط للخروج للقاء ربّه، وروح الكافر تُنتزَع انتزاعا شديدا، ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله وهَوانه؛ كذا جاء في حديث أبي هريرة وغيره . وقد أتينا عليه في كتاب «التذكرة» والحمد لله . وقيل : هو بمنزلة قول القائل لمن يعذّبه : لأذيقنّك العذاب ولأُخرجنّ نفسك؛ وذلك لأنهم لا يخرجون أنفسهم بل يقبضها مَلَك الموت وأعوانه . وقيل : يقال هـذا للكفار وهم في النـار . والجواب محذوف لعظم الأمر ؛ أي ولو رأيت الظالمين في هذا الحال لرأيت عذابا عظيما . والهُون والهَوان سواء . و ﴿ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي تتعظّمون وتأنفون عن قبول آياته .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ ﴾ هذا عبارة عن الحشر . و « فُرَادَى » في موضع نصب على الحال، ولم ينصرف لأن فيـه ألف تأنيث . وقرأ أبو حَيْوة « فرادًى » بالتنوين وهي لغة تميم ، ولا يقولون في موضع الرفع فُرادٌ . وحكى أحمد بن يحيى « فراد » بلا تنوين؛ قال: مثل ثلاث ورباع. و «فُرادى» جمع فَرْدان كسُكارى جمع سكران، وكُسالى جمع كسلان؛ وقيل : واحده «فَرْد» بجزم الراء، و«فرِد» بكسرها، و«فرَد» بفتحها، و«فريد» . والمعنى : جئتمونا واحدا واحدا ، كل واحد منكم منفردا بلا أهل ولا مال ولا ولد ولا ناصر ممن كان يصاحبكم في الغيّ، ولم ينفعكم ما عبدتم من دون الله . وقرأ الأعرج « فَرْدَى » مثل سكرى وكسلى بغير ألف . ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي منفردين كما خُلقتم . وقيل : عُراة كما خرجتم

من بطون أمهاتكم حُفاة غُرلًا بُهمًا[1] ليس معهم شيء . وقال العلماء : يُحشر العبدُ غدًا وله من الأعضاء ما كان له فى يوم وُلد ؛ فمن قُطع منـه عضو يرد فى القيامة عليه . وهـذا معنى قوله « غُرلا » أى غير مختونين ، أى يرد عليهم ما قُطع عنه عند الختان .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ ﴾ أى أعطيناكم وملّكناكم . والخَوَل : ما أعطاه الله للإنسان من العبيد والنَّعم . ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ أى خلفكم . ﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ ﴾ أى الذين عبدتموهم وجعلتموهم شركاء — يريد الأصنام — أى شركائى . وكان المشركون يقولون : الأصنام شركاء الله وشفعاؤنا عنده . ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ قرأ نافع والكسائى وحفص بالنصب على الظرف ، على معنى لقد تقطع وصلُكم بينكم . ودلّ على حذف الوصل قوله « وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ » . فدلّ هذا على التقاطع والتهاجر بينهم وبين شركائهم ؛ إذ تبرءوا منهم ولم يكونوا معهم . وتقاطعهم لهم هو تركهم وصلهم لهم ؛ فحَسُن إضمار الوصل بعد « تقطّع » لدلالة الكلام عليـه . وفى حرف ابن مسعود ما يدلّ على النصب فيه « لقد تقطّع ما بينكم » وهذا لا يجوز فيه إلا النصب ، لأنك ذكرت المتقطّع وهو « ما » . كأنه قال : لقد تقطّع الوصلُ بينكم . وقيل : المعنى لقـد تقطّع الأمر بينكم . والمعنى متقارب . وقرأ الباقون « بَيْنُكُمْ » بالرفع على أنه اسم غير ظرف ، فأسند الفعل إليه فرُفع . ويقوّى جعل « بين » اسمًا من جهة دخول حرف الجر عليـه فى قوله تعالى : « وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ »[2] و « هَـذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ »[3] . ويجوز أن تكون قراءة النصب على معنى الرفع ، وإنما نصب لكثرة استعماله ظرفا منصوبا وهو فى موضع رفع ، وهو مذهب الأخفش ؛ فالقراءتان على هذا بمعنى واحد ، فاقرأ بأيهما شئت . ﴿ وَضَلَّ عَنْكُمْ ﴾ أى ذهب . ﴿ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أى تكذّبون به فى الدنيا . رُوى أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث . ورُوى أن عائشة رضى الله عنهـا قرأت قول الله تعالى : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » فقالت : يارسول الله ، واسَوْءتاه ! إن

(١) الغرل (جمع الأغرل) وهو الأقلف الذى لم يختن . والبهم (جمع بهيم) وهو فى الأصل الذى لا يخالط لونه لون سواه . يعنى ليس فيهم شىء من العاهات والأعراض التى تكون فى الدنيا كالعمى والعور والعرج ، وغير ذلك .

(٢) آية ٥ سورة فصلت . (٣) آية ٧٨ سورة الكهف .

الرجال والنساء يحشرون جميعا ، ينظر بعضهم إلى سوءة بعض؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل امرئ منهم يومئذ شأنٌ يُغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شُغل بعضهم عن بعض " . وهذا حديث ثابت فى الصحيح أخرجه مسلم بمعناه .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ عدّ من عجائب صنعه ما يعجز عن أدنى شىء منه آلهتهم . والفَلْق : الشق ؛ أى يَشق النواة الميتةَ فيُخرج منها ورقا أخضر، وكذلك الحبة . ويُخرج من الورق الأخضر نواة ميتة وحبّة ؛ وهذا معنى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؛ عن الحسن وقتادة . وقال ابن عباس والضحاك : معنى فالق خالق . وقال مجاهد : عُنى بالفلق الشقّ الذى فى الحبّ وفى النَّوى . والنَّوى جمع نواة، ويجرى فى كل ماله حجم كالمشمش(١) والخوخ . ﴿ يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ﴾ يُخرج البشر الحىّ من النُّطفة الميتة ، والنطفةَ الميتةَ من البشر الحىّ ؛ عن ابن عباس . وقد تقدّم قول قتادة والحسن . وقد مضى ذلك فى « آل عمران(٢) » . وفى صحيح مسلم عن علىّ : والذى فلق الحبة وبرأ النَّسمة إنه لَعهد النبىّ الأمىّ صلى الله عليه وسلم إلىّ أنه لا يحبنى إلا مؤمن ولا يبغضنى إلا منافق . ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ فمن أين تصرفون عن الحق مع ما ترون من قدرة الله جل وعز .

قوله تعالى : فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٩٦)

قوله تعالى : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ﴾ نعتٌ لاسم الله تعالى، أى ذلكم الله ربكم فالق الإصباح . وقيل : المعنى أن الله فالق الإصباح . والصُّبح والصباح أوّلُ النهار، وكذلك الإصباح؛ أى فالق

(١) كزبرج وجعفر . (٢) راجع ج ٤ ص ٥٦ طبعة أولى وثانية .

الصبح كلّ يوم، يريد الفجر . والإصباح مصدر أصبح . والمعنى : شاقّ الضياء عن الظلام وكاشفُه . وقال الضحاك : فالق الإصباح خالقُ النهار . وهو معرفة لا يجوز فيه التنوين عند احد من النحويين . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر « فالق الأَصباح » بفتح الهمزة، وهو جمع صبح . وروى الأعمش عن إبراهيم النَّخَعِي أنه قرأ « فلق الإصباحَ » على فَعَل، والهمزة مكسورة والحاء منصوبة . وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وحمزة والكسائي « وجعل الليل سكنا » بغير ألف . ونصب «الليل» حملا على معنى فالق في الموضعين؛ لأنه بمعنى فلق، لأنه أمْرٌ قد كان فحُمِل على المعنى . وأيضا فإن بعده أفعالا ماضية وهو قوله «جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ» . « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » . فحمل أول الكلام على آخره . يقوى ذلك إجماعُهم على نصب الشمس والقمر على إضمار فعل، ولم يحملوه على فاعل فيخفضوه؛ قاله مكّي رحمه الله . وقال النحاس: وقد قرأ يزيد بن قطيب السَّكوني « وجاعِلُ الليلِ سكنا والشمسِ والقمرِ حُسبانا » بالخفض عطفا على اللفظ .

قلت : فيريد مكّي والمَهْدوي وغيرهما إجماع القراء السبع . والله أعلم . وقرأ يعقوب في رواية رُويس عنه « وجاعِلُ الليلِ ساكِنا » . وأهل المدينة «وجاعِلُ الليلِ سَكَنا» أي محلا للسكون . وفي الموطأ عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو فيقول : " اللّهمّ فالقَ الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حُسبانا اقض عني الدَّين وأغْنِني من الفقر وأمْتعني بسمعي وبصري وقوّتي في سبيلك " . فإن قيل : كيف قال " وأمتعني بسمعي وبصري " وفي كتاب النَّسائي والترمذي وغيرهما " واجعله الوارث مني " وذلك يفنى مع البدن ؟ قيل له : في الكلام تجوّز، والمعنى : اللّهم لا تعدمه قبلي . وقد قيل : إن المراد بالسمع والبصر هنا أبو بكر وعمر؛ لقوله عليه السلام فيهما : " هما السمع والبصر " . وهذا تأويل بعيد، إنما المراد بهما الجارحتان . ومعنى ﴿حُسْبَانًا﴾ أي بحساب يتعلّق به مصالح العباد . وقال ابن عباس في قوله جل وعز : « والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسْبَانًا » أي بحساب . الأخفش : حُسْبان جمع حساب ؛ مثل شِهاب وشُهبان . وقال يعقوب : حُسبان مصدر

حَسَبْت الشيء أحْسُبه حُسبانا وحِسابا وحِسْبة، والحساب الاسم . وقال غيره : جعل الله تعالى سير الشمس والقمر بحساب لا يزيد ولا ينقص ؛ فدلّهم الله عز وجل بذلك على قدرته ووحدانيته . وقيل : حُسْبانا أى ضياء . والحسبان : النار فى لغة ؛ وقد قال الله تعالى : « وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ »[1] . قال ابن عباس : نارا . والحُسْبانة : الوسادة الصغيرة .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ ﴾ بيّن كمال قدرته ، وفى النجوم منافع جمّة . ذكر فى هذه الآية بعض منافعها ، وهى التى ندب الشرعُ إلى معرفتها ؛ وفى التنزيل : « وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ »[2] . « وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ »[3] . و « جعل » هنا بمعنى خلق . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ ﴾ أى بيّناها مفصّلة لتكون أبلغ فى الاعتبار . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ خصهم لأنهم المنتفعون بها .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يريد آدم عليه السلام . وقد تقدّم أوّل السورة . ﴿ فَمُسْتَقِرٌّ ﴾ قرأ ابن عباس وسعيد بن جُبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج وشَيْبة والنَّخَعِىّ بكسر القاف ، والباقون بفتحها . وهى فى موضع رفع بالابتداء ، إلا أن التقدير فيمن كسر القاف « فمنها مستقر » والفتح بمعنى لها « مستقر » . قال عبد الله بن مسعود : فلها مستقر فى الرّحم ومستودَع فى الأرض التى تموت فيها ؛ وهذا التفسير يدلّ على الفتح . وقال الحسن : فمستقر فى القبر . وأكثر أهل التفسير يقولون : المستقَرّ ما كان فى الرحم ، والمستودَع

(١) آية ٤٠ « سورة الكهف » .
(٢) آية ٧ « سورة الصافات » .
(٣) آية ٥ « سورة الملك » .

ما كان فى الصُّلب؛ رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس، وقاله النخعى. وعن ابن عباس أيضا: مستقر فى الأرض، ومستودع فى الأصلاب. قال سعيد بن جُبير: قال لى ابن عباس هل تزوجت؟ قلت لا؛ فقال: إن الله عز وجل يستخرج من ظهرك ما استودعه فيه. وروى عن ابن عباس أيضا أن المستقر مَن خُلق، والمستودَع من لم يُخلق؛ ذكره المَاوَرْدى. وعن ابن عباس أيضا: ومستودع عند الله.

قلت: وفى التنزيل «وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ» والاستيداع إشارة إلى كونهم فى القبر إلى أن يُبعثوا للحساب؛ وقد تقدم فى البقرة[1]. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ قال قتادة: فصّلنا بيّنا.

قوله تعالى: وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أى المطر. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى كل صِنف من النبات. وقيل: رزق كل حيوان. ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ قال الأخفش: أى أخضر؛ كما تقول العرب: أَرِنيها نَمِرة أُرِكْها مَطِرة[2]. والخضر رطب

(١) راجع جـ ١ ص ٣٢١ طبعة ثانية أو ثالثة.

(٢) الهاء فى «أرنيها» للسحابة. والنمر من السحاب الذى فيه آثار كآثار النمر. وقيل: هى قطع صغار متدان بعضها من بعض. وواحدتها نمرة. ومطرة: بمعنى ماطرة. أى إذا رأيت دليل الشيء علمت ما يتبعه. يضرب لأمر يتيقن وقوعه إذا لاحت مخايله وتباشيره. (عن فرائد اللآل جـ ١ ص ٢٥٢ طبع بيروت).

البقول . وقال ابن عباس : يريد القمح والشعير والسلت[٤] والذرة والأرز وسائر الحبوب .
﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ أى يركب بعضه على بعض كالسنبلة .

الثانيـــة ـ قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ ابتداء وخبر . أجاز الفراء فى غير القرآن «قنوانًا دانيةً» على العطف على ما قبله . قال سيبويه : ومن العرب من يقول : قُنوان . قال الفراء : هذه لغة قيس، وأهل الحجاز يقولون : قِنوان، وتميم يقولون : قُنيان؛ ثم يجتمعون فى الواحد فيقولون : قِنْوٌ وقُنْوٌ . والطلع الكُفُرّى قبـل أن ينشق عن الإغريض. والإغريض يسمى طلعا أيضا . والطلع : ما يُرى من عِذْق النخلة . والقِنوان : جمع قِنو، وتثنيته قِنوان كصنو وصِنوانِ (بكسر النون) . وجاء الجمع على لفظ الاثنين . قال الجوهرى وغيره : الاثنان صِنوانِ والجمع صـنوانُ (برفع النون) . والقِنو : العِـذْق والجمع القِنوان والأقناء؛ قال :

* طويلة الأقناء والأثاكِلِ[٢] *

غيره « أقناء » جمع القِـلة . قال المهدوى : قرأ ابن هُرْمز « قَنوان » بفتح القاف، وروى عنه ضمها . فعلى الفتح هو اسم للجمع غيرُ مُكسَّر، بمنزلة رَكب عنـد سيبويه، وبمنزلة الباقر والجامل؛ لأن فعلان ليس من أمثـلة الجمع ، وضمّ القـاف على أنه جمع قِنو وهو العِـذْق (بكسر العين) وهى الكِباسة، وهى عنقود النخلة . والعَذْق (بفتح العين) النخلة نفسُها . وقيل : القِنوان الجُمّار . ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة، ينالها القائم والقاعد. عن ابن عباس والبَرَاء بن عازب وغيرهما . قال الزجاج : منها دانية ومنها بعيدة؛ فحذف . ومثله «سرابيلَ تَقِيكُمُ الحرّ»[٣] . وخصّ الدانية بالذكر، لأن من الغرض فى الآية ذكر القـدرة والامتنان بالنعمة، والامتنـانُ فيما يقربُ متناولُه أكثر .

---

(٤) السلت (بوزن القفل) : ضرب من الشعير أبيض لا قشر له .

(٢) الأثاكل : جمع الإثكال والأثكول (لغة فى العثكال والعثكول) وهو العذق الذى تكون فيه الشماريخ . وهذا عجز بيت . وصدره كما فى اللسان :
* قد أبصرت سعدى بها كتائلى *
والكتائل جمع كتيلة وهى النخلة الطويلة .

(٣) آية ٨١ سورة النحل .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ أى وأخرجنا جنّات . وقرأ محمد ابن عبد الرحمن بن أبى ليلى والأعمش، وهو الصحيح من قراءة عاصم «وجناتٌ» بالرفع . وأنكر هذه القراءةَ أبو عبيد وأبو حاتم ، حتى قال أبو حاتم : هى محال؛ لأن الجنات لاتكون من النخل . قال النحاس : والقراءة جائزة، وليس التأويل على هذا، ولكنه رفع بالابتداء والخبرُ محذوف؛ أى ولهم جنات . كما قرأ جماعة من القراء «وَحُورٌ عِينٌ»[1] . وأجاز مثل هذا سيبويه والكسائىّ والفراء؛ ومثله كثير . وعلى هذا أيضا «وحُورًا عِينًا» حكاه سيبويه ، وأنشد :

جِئْنِى بِمِثْلِ بَنِى بَدْرٍ لقومهم * أَوْ مثلَ أُسْرَةِ مَنْظُورِ بن سَيَّارِ[2]

وقيل : التقدير « وجنات من أعناب » أخرجناها؛ كقولك : أكرمت عبد الله وأخاه، أى وأخاه أكرمتُ أيضا . فأمّا الزيتون والرمّان فليس فيه إلا النصب للإجماع على ذلك . وقيل : «وجناتٌ» بالرفع عطف على «قِنوان» لفظا، وإن لم تكن فى المعنى من جنسها . ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ أى متشابها فى الأوراق؛ أى ورق الزيتون يُشبه ورق الرمان فى اشتماله على جميع الغُصْن وفى حجم الورق ، وغير متشابه فى الذَّواق ؛ عن قَتادة وغيره . قال ابن جُريج : « متشابها » فى النظر « وغير متشابه » فى الطعم ؛ مثل الرمّانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف . وخصّ الرمان والزيتون بالذِّكر لقربهما منهم ومكانهما عندهم . وهو كقوله : « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ »[3] . ردّهم إلى الإبل لأنها أغلب ما يعرفونه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ أى نظرَ اعتبار لا نظر الإبصار المجرّد عن التفكّر . والثمر فى اللغة جَنَى الشجر . وقرأ حمزة والكسائىّ «ثُمُره» بضم الثاء والميم . والباقون بالفتح فيهما جمع ثمرة ؛ مثل بقرة وبقر وشجرة وشجر . قال مجاهد : الثمر أصناف المال، والثمر ثمر النخل . وكأن المعنى على قول مجاهد : انظروا إلى الأموال التى يتحصل منه

---

(١) آية ٢٢ سورة الواقعة . (٢) البيت لجرير، يخاطب الفرزدق فيفخر عليه بسادات قيس؛ لأنهم أخواله، و بنو بدر من فزارة وفيهم شرف قيس عيلان، و بنو سيار من فزارة أيضا، وفزارة من ذبيان من قيس . (عن شرح الشواهد للشنتمرى) . (٣) آية ١٧ سورة الغاشية .

الثمر؛ فالثُّمُر بضمتين جمع ثمار وهو المال المُثَمَّر. وروى عن الأعمش «ثُمْره» بضم الثاء وسكون الميم؛ حذف الضمة لثقلها طلبا للخفة. ويجوز أن يكون ثُمْر جمع ثَمَرة مثل بدنة وبُدْن. ويجوز أن يكون ثُمُر جمع جمع، فتقول: ثمرة وثمار وثمر مثل حمار وحمر. ويجوز أن يكون جمع ثمرة كخشبة وخُشُب لاجمع جمع.

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿وَيَنْعِهِ﴾ قرأ محمد بن السَّمَيْقَع «ويانعه». وابن مُحَيْصن وابن أبى إسحاق «ويُنْعِه» بضم الياء. قال الفراء: هى لغة بعض أهل نجد؛ يقال: يَنَع الثمر يَيْنَع، والثمر يانع. وأينع يونع. والمعنى: ونُضْجِه. يَنَع وأينع إذا نَضج وأدرك. وقال الحجاج فى خطبته: أرى رءوسا قد أينعت وحان قِطافها. قال ابن الأنبارى: اليَنْع جمع يانع، كراكب ورَكْب، وتاجر وتَجْر، وهو المدرك البالغ. وقال الفراء: أينع أكثر من يَنَع، ومعناه أحمر؛ ومنه ما روى فى حديث المُلاَعَنة "إن ولدته أحمر مثل اليَنَعة" وهى خرزة حمراء، يقال: إنه العقيق أو نوع منه. فدلّت الآية لمن تدبّر ونظر ببصره وقلبه، نَظَرَ مَن تفكّر، أن المتغيرات لابدّ لها من مغيّر؛ وذلك أنه تعالى قال: «أُنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِه إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ». فتراه أولا طَلْعا ثم إغْرِيضا إذا انشق عنه الطَّلْع. والإغريض يُسَمَّى ضَحْكًا أيضا، ثم بلحا، ثم سَيَابًا، ثم جَدَالًا إذ اخضرّ واستدار قبل أن يشتدّ، ثم بُسْرًا إذا عظم، ثم زَهْوًا إذا احمرّ؛ يقال: أزْهَى يُزْهِى، ثم مُوَكِّتًا إذا بدت فيه نقط من الإرطاب. فإن كان ذلك من قِبَل الذَّنَب فهى مُذَنِّبة، وهو التَّذْنُوب، فإذا لانت فهى ثَعْدة، فإذا بلغ الإرطاب نصفها فهى مُجَزَّعَة، فإذا بلغ ثلثيها فهى حُلْقانة، فإذا عمّها الإرطاب فهى مُنْسبِتة؛ يقال: رطب مُنَسَّبِت، ثم ييبس فيصير تمرا. فنبّه تعالى بانتقالها من حال إلى حال وتغيرها ووجودها بعد أن لم تكن على وحدانيته وكمال قدرته، وأن لها صانعا قادرا عالما. ودلّ على جواز البعث؛ لإيجاد النبات بعد الجفاف. قال الجوهرى: يَنَع الثمر يَيْنَع ويَيْنِع يَنْعًا ويُنْعًا ويُنوعًا، أى نَضج.

السادسة ـ قال ابن العربى: قال مالك: الإيناع الطِّيب بغير فساد ولا نقش. قال مالك: والنقش أن ينقش أهل البصرة الثمر حتى يُرْطِب، يريد يثقب فيه بحيث يُسرع دخول

اذا كان « القرطبى » سيجلد فى مجلد واحد فتنزع هذه الورقة

مكتبة دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني - ت ١٩٩٩٢

كتاب الشعب



تفسير القرطبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

خيركم من تعلم القرآن وعلمه

حديث شريف

٢٨

دار الشعب

٩٢ شارع قصر العيني القاهرة ت ٣١٨٤

اذا كان « القرطبى » سيجلد فى مجلد واحد فتنزع هذه الورقة

الهواء إليه فيرطب معجلا . فليس ذلك اليَنْع المراد فى القرآن ، ولا هو الذى ربط به رسول الله صلى الله عليه وسلم اليَنْع ، وإنما ما يكون من ذاته بغير محاولة . وفى بعض بلاد التِّين، وهى البلاد الباردة، لا يَنْضُج حتى يُدخَل فى فمه عُود قد دُهن زيتا، فإذا طاب حلّ بيعه؛ لأن ذلك ضرورة الهواء وعادةُ البلاد، ولولا ذلك ما طاب فى وقت الطِّيب .

قلت : وهذا اليَنْع الذى يقف عليه جواز بيع الثمرة وبه يطيب أكلها وتأمن من العاهة هو عند طلوع الثُّرَيّا بما أجرى الله سبحانه من العادة وأحكمه من العلم والقدرة . ذكر المُعَلَّى آبن أسد عن وهيب عن عِسْل بن سفيان عن عطاء عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا طلعت الثُّرَيّا صباحا رُفعت العاهة عن أهل البلد " . والثريا النجم، لاخلاف فى ذلك . وطلوعها صباحا لاثنتى عشرة ليلة تمضى من شهر أيار، وهو شهر مايه . وفى البخارىّ : وأخبرنى خارجة بن زيد بن ثابت أن زيد بن ثابت لم يكن يبيع ثمار أرضه حتى تطلع الثُّرَيّا فيتبيّن الأصفرُ من الأحمر .

السابعة — وقد استدلّ من أسقط الجوائح فى الثمار بهذه الآثار، وما كان مثلها من نهيه عليه السلام عن بيع الثمرة حتى يبدو صلاحها، وعن بيع الثمار حتى تذهب العاهة . قال عثمان بن سُراقة : فسألت آبن عمر متى هذا ؟ فقال طلوع الثريا . قال الشافعىّ : لم يثبت عندى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بوضع الجوائح، ولو ثبت عندى لم أعْدُه . والأصل المجتمع عليه أن كل من ابتاع ما يجوز بيعه وقبضه كانت المصيبة منه . قال : ولو كنت قائلا بوضع الجوائح لوضعتها فى القليل والكثير ؛ وهو قول الثَّوْرىّ والكوفيين . وذهب مالك وأكثر أهل المدينة إلى وضعها ؛ لحديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بوضع الجوائح . أخرجه مسلم . وبه كان يقضى عمر بن عبد العزيز، وهو قول أحمد بن حنبل وسائر أصحاب الحديث . وأهل الظاهر وضعوها عن المبتاع فى القليل والكثير على عموم الحديث؛ إلا أن مالكا وأصحابه آعتبروا أن تبلغ الجائحة ثلث الثمرة فصاعدًا، وما كان دون الثلث ألغوه وجعلوه تَبَعًا، إذ لا تخلو ثمرة من أن يتعذّر القليل من طيبها وأن يلحقها فى اليسير منها

فساد . وكان أصبغ وأشهب لا ينظران إلى الثمرة ولكن إلى القيمة، فإذا كانت القيمة الثلث فصاعدًا وضع عنه . والجائحة ما لا يمكن دفعه عند ابن القاسم . وعليه فلا تكون السرقة جائحة، وكذا فى كتاب محمد . وفى الكتاب أنه جائحة، وروى عن ابن القاسم، وخالفه أصحابه والناس . وقال مُطَرِّف وابن الماجشون : ما أصاب الثمرة من السماء من عَفَن أو برد، أو عطش أو حرّ أو كسر الشجر بما ليس بصنع آدمى فهو جائحة . واختُلف فى العسكر؛ ففى رواية ابن القاسم هو جائحة . والصحيح فى البقول أنها الثمرة . ومن باع ثمرا قبل بَدْو صلاحه بشرط التبقية فُسخ بيعه ورُدّ للنهى عنه، ولأنه من أكل المال بالباطل؛ لقوله عليه السلام: " أرأيت إن منع الله الثمرة فبم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق ". هذا قول الجمهور، وصححه أبو حنيفة وأصحابه وحملوا النهى على الكراهة . وذهب الجمهور إلى جواز بيعها قبل بَدْو الصلاح بشرط القطع . ومنعه الثَّورى وابن أبى لَيْلَى تمسُّكا بالنهى الوارد فى ذلك . وخصّصه الجمهور بالقياس الجلىّ؛ لأنه مبيع معلوم يصحّ قبضه حالة العقد فصحّ بيعه كسائر المبيعات .

قوله تعالى : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ هذا ذكر نوع آخر من جهالاتهم ، أى فيهم مَن اعتقد لله شركاء من الجن . قال النحاس : « الجن » مفعول أول، و « شركاء » مفعول ثان؛ مثل « وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا »[1] . « وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا »[2] . وهو فى القرآن كثير . والتقدير : وجعلوا الله الجن شركاء . ويجوز أن يكون « الجن » بدل من شركاء، والمفعول الثانى «لله» . وأجاز الكسائىّ رفع « الجن » بمعنى هم الجن . ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ كذا قراءة الجماعة ، أى خلق الجاعلين له شركاء . وقيل : خلق الجن الشركاء . وقرأ ابن مسعود « وهو خلقهم » بزيادة هو . وقرأ يحيى بن يَعْمَر « وخلْقهم » بسكون اللام، وقال : أى وجعلوا خلقهم لله شركاء؛ لأنهم كانوا يخلقون الشىء ثم يعبدونه . والآية نزلت فى مشركى العرب . ومعنى إشراكهم

(١) آية ٢٠ سورة المائدة . (٢) آية ١٢ سورة المدثر .

بالجن أنهم أطاعوهم كطاعة الله عزوجل؛ رُوى ذلك عن الحسن وغيره. قال قَتادة والسُّدّى: هم الذين قالوا الملائكةُ بناتُ الله . وقال الكلبى : نزلت فى الزنادقة، قالوا : إن الله وإبليس أخوان؛ فالله خالق النـاس والدواب ، وإبليس خالق الجان والسباع والعقارب . ويقرب من هذا قول المجوس، فإنهم قالوا : للعـالَم صانعان : إله قديم، والثانى شيطان حادث من فكرة الإله القديم؛ وزعموا أن صانع الشر حادث . وكذا الحائطية من المعتزلة من أصحاب أحمد ابن حائط ، زعموا أن للعالَم صانعين : الإله القديم، والآخر محدث، خلقه الله عزوجل أوّلا ثم فوّض إليه تدبير العالم ؛ وهو الذى يحاسب الخلق فى الآخرة . تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرا . ﴿ وخَرَّقُوا ﴾ قرأءة نافع بالتشديد على التكثير؛ لأن المشركين ادعوا أن لله بناتٍ وهم الملائكة ، وسَمَّوهم جِنًّا لاجتنانهم . والنصارى ٱدعت المسيح ٱبنَ الله . واليهود قالت : عزير ٱبن الله ، فكثُر ذلك من كفرهم ؛ فشُدّد الفعل لمطابقة المعنى . تعالى الله عما يقولون . وقرأ الباقون بالتخفيف على التقليل . وسئل الحسن البصرى عن معنى «وخرّقوا له» بالتشـديد فقال : إنمـا هو « وخَرَقوا » بالتخفيف ، كلمة عربيـة ، كان الرجل إذا كذب فى النادى قيل : خَرَقها وربِّ الكعبة . وقال أهل اللغة : معنى « خرقوا » اختلقوا وافتعلوا . « وخرّقوا » على التكثير . قال مجاهد وقَتادة وابن زيد وابن جُريج : « خرقوا » كذبوا . ويقال : إن معنى خرق واخترق واختلق سواء؛ أى أحدث .

قوله تعـالى : ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١٠١)

قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى مبدعهما؛ فكيف يجوز أن يكون له ولد. « وبديع » خبر ابتداء مضمر أى هو بديع . وأجاز الكسائى خفضه على النعت لله عز وجل، ونصبـه بمعنى بديعا للسموات والأرض . وذا خطأ عنـد البصريين[1] لأنه لِمَا مضى .

---

(١) اسم الفاعل يعمل عمل فعله إن كان صلة لأل مطلقا ؛ فان لم يكن صـلة لأل عمل بشرطين عند البصريين : أن يكون بمعنى الحال أو الاستقبال . وأجاز الكسائى عمله إذا كان للماضى .

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أى من أين يكون له ولد . وولد كل شيء شبيهه ، ولا شبيه له . ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾ أى زوجة . ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ عموم معناه الخصوص ؛ أى خلق العالم . ولا يدخل فى ذلك كلامه ولا غيره من صفات ذاته . ومثله « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ »[(١)] ولم تسع إبليس ولا من مات كافرا . ومثله « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ »[(٢)] ولم تدمر السموات والأرض .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ « ذلكم » فى موضع رفع بالابتداء . ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ على البدل . ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ خبر الابتداء . ويجوز أن يكون « ربكم » الخبر ، و « خالق » خبرا ثانيا ، أو على إضمار مبتدأ ، أى هو خالق . وأجاز الكسائى والفراء فيه النصب .

قوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ بين سبحانه أنه منزه عن سمات الحدوث ، ومنها الإدراك بمعنى الإحاطة والتحديد ، كما تدرك سائر المخلوقات ، والرؤية ثابتة . وقال الزجاج : اى لا يبلغ كُنْه حقيقته ؛ كما تقول : أدركت كذا وكذا ؛ لأنه قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم الأحاديث فى الرؤية يوم القيامة . وقال ابن عباس : « لا تدركه الأبصار » فى الدنيا ، ويراه المؤمنون فى الآخرة ؛ لإخبار الله بها فى قوله : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ »[(٣)] . وقاله السُّدى . وهو أحسن ما قيل لدلالة التنزيل والأخبار الواردة برؤية الله فى الجنة . وسيأتى بيانه فى « يونس »[(٤)] . وقيل : « لا تدركه الأبصار » لا تحيط به وهو يحيط بها ؛

(١) آية ١٥٦ سورة الأعراف . (٢) آية ٢٥ سورة الأحقاف . (٣) آية ٢٢ سورة القيامة .

(٤) فى قوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » آية ٢٦ .

عن ابن عباس ايضا . وقيل : المعنى لا تدركه أبصار القلوب، أى لا تدركه العقول فتتوهمه ؛ إذ ليس كمثله شيء . وقيل : المعنى لا تدركه الأبصار المخلوقة فى الدنيا، لكنه يخلق لمن يريد كرامتــه بصرا وإدرا كا يراه به كمحمد عليــه السلام ؛ إذ رؤيته تعالى فى الدنيا جائزةٌ عقلا، إذ لولم تكن جائزةً لكان سؤال موسى عليه السلام مستحيلا، ومحالٌ أن يجهل نبيّ ما يجوز على الله وما لا يجوز، بل لم يسأل إلا جائزا غير مستحيل . واختلف السلف فى رؤية نبيّنا عليه السلام ربّه، ففى صحيح مسلم عن مسروق قال : كنت متكئا عند عائشة ، فقالت : يا أبا عائشة [١] ، ثلاثٌ مَن تكلّم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفِرْية . قلت : ما هن ؟ قالت : مَن زعم أن محمدا رأى ربّه فقــد اعظم على الله الفِرْية . قال : وكنت متكئا فجلست فقلت : يا أمّ المؤمنين ، أنظريني ولا تُعجليني ، ألم يَقُلِ الله عز وجل « وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ » [٢] . «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى» [٣] ؟ فقالت : أنا أوّل هذه الأمة سأل عن ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : "إنما هو جبريل لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين رأيتُه منهبطا من السماء سَادًّا عِظَمُ خلقِه ما بين السماء والأرض" . فقالت : أوَ لم تسمع أن الله عز وجل يقول : «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» ! أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًــا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِــلَ رَسُــولًا — إلى قوله — عَلِيٌّ حَكِيمٌ » [٤] ! قالت : ومن زعم أن رســول الله صلى عليه وسلم كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفِرْية ، والله تعالى يقول : « يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ » قالت : ومَن زعَم أنه يُخبر بمـا يكون فى غدٍ فقد أعظم على الله الفِرية ، والله تعالى يقول : «قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ» [٥] .

وإلى ما ذهبت إليــه عائشة رضى الله عنها من عدم الرؤية ، وأنه إنمـا راى جبريل : ابن مسعود ، ومثله عن أبى هريرة رضى الله عنــه ، وأنه إنمـا رأى جبريلَ، واختلف

---

(١) أبو عائشة : كنية الإمام مسروق . (٢) آية ٢٣ سورة التكوير . (٣) آية ١٣ سورة النجم .
(٤) آية ٥١ سورة الشورى . (٥) آية ٦٥ سورة النمل .

عنهما . وقال بإنكار هذا وآمتناع رؤيتــه جماعةٌ من المحدّثين والفقهاء والمتكلّمين . وعن ابن عباس أنه رآه بعينيه؛ هذا هو المشهور عنه . وحجته قوله تعالى: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى»(١) .
وقال عبــد الله بن الحارث : اجتمع ابن عباس وأُبَيّ بن كعب، فقال ابن عباس : أمّا نحن بنو هاشم فنقول إن محمدا رأى ربّه مرتين. ثم قال ابن عباس : أتعجبون أن الخلّة تكون لإبراهيم والكلامَ لموسى، والرؤيةَ لمحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين . قال : فكبّر كعب حتى جاوبته الجبال، ثم قال : إن الله قسّم رؤيتــه وكلامَه بين محمد وموسى عليهما السلام ، فكلّم موسى ورآه محمد صلى الله عليه وسلم. وحكى عبد الرزّاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربّه . وحكاه أبو عمر الطَّلَمَنْكِيّ عن عِكرمة، وحكاه بعض المتكلمين عن ابن مسعود، والأوّل عنــه أشهر . وحكى ابن إسحاق أن مروان سأل أبا هريرة : هل رأى محمد ربّه ؟ فقال نعم . وحكى النقاش عن أحمد بن حنبل أنه قال : أنا أقول بحديث ابن عباس : بعينــه رآه رآه ! حتى آنقطع نفسه ، يعني نفس أحمد . وإلى هذا ذهب الشيخ أبو الحسن الأشعريّ وجماعة من أصحابه أنه رأى الله ببصره وعيني رأسه . وقاله أنس وابن عباس وعكرمة والربيع والحسن . وكان الحسن يحلف بالله الذى لا إله إلا هو لقد رأى محمد ربّه . وقال جماعة منهم أبو العالية والقُرَظِيّ والربيع بن أنس : إنه إنمــا رأى ربّه بقلبــه وفؤاده ؛ وحكى عن ابن عباس أيضا وعكرمة . وقال أبو عمر : قال أحمــد بن حنبل رآه بقلبه ، وجَبُن عن القول برؤيته فى الدنيا بالأبصار . وعن مالك بن أنس قال : لم يُرَ فى الدنيا ؛ لأنه باقٍ ولا يُرى الباقى بالفانى ، فإذا كان فى الآخرة ورُزقوا أبصارا باقيــة رأوا البــاقى بالباقى . قال القاضى عِيــاض : وهذا كلام حسن مليح ، وليس فيــه دليل على الآستحالة إلا من حيث ضعف القدرة؛ فإذا قوّى الله تعــالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع فى حقّــه . وسيأتى شىء من هذا فى حق موسى عليه السلام فى «الأعراف»(٢) إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ أى لايخفى عليه شىء إلا يراه ويعلمه. وإنما خصّ « الأبصار » لتجنيس الكلام . قال الزجاج : وفى هذا الكلام دليل على أن الخلق لايُدركون

(١) آية ١١ سورة النجم . (٢) فى قوله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا » آية ١٤٣ .

الأبصار؛ أى لايعرفون كيفية حقيقةِ البصر، وما الشىء الذى صار به الإنسان يُبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه . ثم قال : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ ﴾ أى الرفيق بعباده ؛ يقال : لَطَف فلان بفلان يَلْطُف، أى رَفَق به . واللطف فى الفعل الرِّفقُ فيه . واللُّطف من الله التوفيق والعِصمة . وألطفه بكذا ، أى بَرّه به . والاسم اللَّطَف بالتحريك . يقال : جاءتنا من فلان لَطَفة ؛ أى هَدِيّة . والملاطفة المبارّة ؛ عن الجوهرى وابنِ فارس . قال أبو العالية : المعنى لطيف باستخراج الأشياء خبيرٌ بمكانها . وقال الجُنَيد : اللّطيف من نوّر قلبك بالهدى ، وربَّى جسمك بالغذَى ، وجعل لك الولاية فى البَلْوى ، ويحرُسك وأنت فى لظى، ويدخلك جنة المَأْوى . وقيل غير هذا ، مما معناه راجع إلى معنى الرفق وغيره . وسيأتى ما للعلماء من الأقوال فى ذلك فى « الشُّورى »[(١)] إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى آيات وبراهين يُبْصَر بها ويُستدلّ ؛ جمع بصيرة وهى الدّلالة . قال الشاعر :

جاءوا بصائرُهم على أكتافهم * وبصيرتى يَعْدُو بها عَتَدٌ وَأَى[(٢)]

يعنى بالبصيرة الحجة البيّنة الظاهرة . ووصف الدلالة بالمجىء لتفخيم شأنها ؛ إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقَّع حضوره للنفس؛ كما يقال : جاءت العافية وقد انصرف المرض، وأقبل السعود وأدبر النحوس . ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ الإبصار : هو الإدراك بحاسّة البصر؛ أى فمن استدلّ وتعرّف فنفسَه نفع . ﴿ وَمَنْ عَمِيَ ﴾ لم يستدل ، وصار بمنزلة الأعمى ؛ فعلى نفسه يعود ضرر

---

(١) فى قوله تعالى : « الله لطيف بعباده ... » آية ١٩ .

(٢) الذى فى كتب اللغة : « راحوا ... الخ » وأن هذا البيت للأسعر الجعفى . يقول : إنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خلفهم ؛ أى لم يثأروا به وأنا طلبت ثأرى . والعتد (بفتح التاء وكسرها) : الفرس التام الخلق السريع الوثبة معدّ للجرى ليس فيه اضطراب ولا رخاوة . والوأى (بفتح الواو والمد) : الفرس السريع المقتدر الخلق .

عماه . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أى لم أومر بحفظكم على أن تهلكوا أنفسكم ، قيل : أى لا أحفظكم من عذاب الله . وقيل : « بِحَفِيظٍ » برقيب؛ أحصى عليكم أعمالكم ، وإنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربى ،وهو الحفيظ عليكم لايخفى عليه شيء من أفعالكم . قال الزجاج : نزل هذا قبل فرض القتال، ثم أمر أن يمنعهم بالسيف من عبادة الأوثان .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ﴾ الكاف فى موضع نصب؛ أى نصرف الآيات مثل ما تلونا عليك . أى كما صرفنا الآيات فى الوعد والوعيد والوعظ والتنبيه فى هذه السورة نصرف فى غيرها . ﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ الواو للعطف على مضمر؛ أى نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست . وقيل : أى « وليقولوا درست » صرفناها؛ فهى لام الصيرورة . وقال الزجاج : هذا كما تقول كتب فلان هذا الكتاب لحتفه ؛ أى آل أمره إلى ذا . وكذا لما صرفت الآيات آل أمرهم إلى أن قالوا : درست وتعلمت من جبر ويسار ، وكانا غلامين نصرانيين بمكة ، فقال أهل مكة : إنما يتعلم منهما . قال النحاس : وفى المعنى قول آخر حسن، وهو أن يكون معنى « نصرف الآيات » نأتى بها آية بعد آية ليقولوا درست علينا ؛ فيذكرون الأول بالآخر . فهذا حقيقة، والذى قاله أبو إسحاق مجاز .

وفى «درست» سبع قراءات . قرأ أبو عمرو وابن كثير «دارست» بالألف بين الدال والراء؛ كفاعلت . وهى قراءة علىّ وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وأهل مكة . قال ابن عباس : معنى «دارست» تاليت . وقرأ بن عامر «دَرَسَتْ» بفتح السين وإسكان التاء من غير ألف؛ كخرجتْ . وهى قراءة الحسن . وقرأ الباقون « دَرَسْتَ » كخرجتَ . فعلى الأولى : دارست أهلَ الكتاب ودارسوك؛ أى ذاكرتهم وذاكروك؛ قاله سعيد بن جبير. ودلّ على هذا المعنى قوله تعالى إخبارا عنهم : «وأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ»[1] أى أعان اليهودُ النبيّ

(١) آية ٤ سورة الفرقان .

صلى الله عليه وسلم على القرآن وذاكره فيه . وهذا كله قولُ المشركين . ومثله قولهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا »(١) . « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ »(٢) . وقيل : المعنى دارستنا؛ فيكون معناه كمعنى درست؛ ذكره النحاس واختاره ، والأول ذكره مكيّ . وزعم النحاس أنه مجاز؛ كما قال :

* فللموتِ ما تَلِدُ الوالده *(٣)

ومن قرأ «دَرَسَتْ» فأحسن ما قيل في قراءته أن المعنى : ولئلا يقولوا انقطعت وامَّحت، وليس يأتي محمد صلى الله عليه وسلم بغيرها . وقرأ قتادة «دُرِست» أي قرئت . وروى سفيان ابن عُيينة عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه قرأ «دارسْتْ» . وكان أبو حاتم يذهب إلى أن هذه القراءة لا تجوز؛ قال : لأن الآيات لا تدارِس . وقال غيره : القراءة بهذا تجوز، وليس المعنى على ما ذهب إليه أبو حاتم، ولكن معناه دارستْ أمّتُك؛ أي دارستك أمتك، وإن كان لم يتقدّم لها ذكر؛ مثل قوله : «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ»(٤) . وحكى الأخفش «وليقولوا دَرُسَتْ» وهو بمعنى «دَرَسَتْ» إلا أنه أبلغ . وحكى أبو العباس أنه قرئ «وَلْيقولوا درست» بإسكان اللام على الأمر . وفيه معنى التهدّد؛ أي فليقولوا بما شاءوا فإن الحق بيّن؛ كما قال عز وجل : «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا» . فأمّا مَن كسر اللام فإنها عنده لام كَيْ . وهذه القراءات كلها يرجع اشتقاقها إلى شيء واحد ، إلى التليين والتذليل . و «دَرَسْتَ» من دَرَس يدرُس دراسة، وهي القراءة على الغير. وقيل : درسته أي ذللته بكثرة القراءة؛ وأصله درَس الطعامَ أي داسه . والدِّياس الدّراس بلغة أهل الشام . وقيل : أصله من درسْتُ الثوبَ أدْرُسه درسا أي أخلقته . وقد دَرَس الثوبُ دَرْسا أي أخلق . ويرجع هذا إلى التذلل أيضا . ويقال : سُمّيَ إدريس لكثرة دراسته لكتاب الله . ودارست الكتب وتدارستها وادّارستها أي درستها . ودَرستُ الكتاب دَرْسا ودراسة . ودَرست المرأة درسا أي حاضت . ويقال :

---

(١) آية ٥ سورة الفرقان . (٢) آية ٢٤ سورة النحل

(٣) هذا عجز بيت ، وصدره كما في المغني (حرف اللام) : * فإن يكن الموت أفناهم *

(٤) آية ٣٢ سورة ص .

إن فرج المرأة يُكْنَى أبا أَدْراس؛ وهو من الحيض . والدَّرْسُ أيضا : الطريق الخَفِىّ . وحكى الأصمعىّ : بعير لم يُدَرَّس أى لم يركب، ودَرَست من درس المنزلُ إذا عفَا . وقرأ ابن مسعود وأصحابه وأُبَىّ وطلحة والأعمش «وليقولوا درس» أى درس محمد الآيات . ﴿ولِنُبَيِّنَه﴾ يعنى القول والتصريف، أو القرآن ﴿ لِقوم يعلمون ﴾ .

قوله تعالى : ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى ﴿ ٱتَّبِعْ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ يعنى القرآن؛ أى لا تَشغل قلبك وخاطرك بهم؛ بل اشتغل بعبادة الله . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ منسوخ .

قوله تعالى : وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ نصّ على أن الشرك بمشيئته، وهو إبطال لمذهب القدرية كما تقدّم . ﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أى لا يمكنك حفظهم من عذاب الله . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى قيِّم بأمورهم فى مصالحهم لدينهم أو دنياهم، حتى تلطف لهم فى تناول ما يجب لهم؛ فلست بحفيظ فى ذلك ولا وكيل فى هذا ، إنما أنت مُبلِّغ . وهذا قبل أن يؤمر بالقتال .

قوله تعالى : وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ نَهْيٌ . ﴿ فَيَسُبُّوا ﴾ جواب النهى . نهى سبحانه المؤمنين أن يَسُبُّوا أوثانهم ؛ لأنه علم إذا سبّوها نفر الكفار وازدادوا كُفرا . قال ابن عباس : قالت كفار قريش لأبى طالب إمّا أن تنهى محمدا وأصحابه عن سَبّ آلهتنا والغض منها وإما أن نَسُبّ إلٰهه ونهجوه؛ فنزلت الآية .

الثانيـــة — قال العلماء: حكمها باقٍ فى هذه الأمة على كل حال؛ فمتى كان الكافر فى مَنَعة وخِيف أن يَسُبّ الإسلامَ أو النبيّ عليه السلام أو الله عز وجل، فلا يحلّ لمسلم أن يَسُبّ صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم، ولا يتعرّض إلى ما يؤدّى إلى ذلك؛ لأنه بمنزلة البعث على المعصية . وعبّر عن الأصنام وهى لا تعقل بـ«الذين» على معتقد الكفرة فيها .

الثالثـــة — فى هـذه الآية أيضا ضَرْبٌ من الموادعة ، ودليلٌ على وجوب الحكم بسدّ الذرائع؛ حسب ما تقدّم . فى «البقرة» وفيها دليل على أن المحقّ قد يكفّ عن حق له إذا أدّى إلى ضرر يكون فى الدِّين . ومن هـذا المعنى ما رُوى عن عمـر بن الخطاب رضى الله عنـه أنه قال : لا تبتّوا الحكم بين ذوى القرابات مخافة القطيعة . قال ابن العربى : إن كان الحق واجبا فيأخذه بكل حال، وإن كان جائزا ففيه يكون هذا القول .

الرابعـــة — قوله تعالى : «عَدْوًا» أى جهلا واعتداء. ورُوى عن أهل مكة أنهم قرءوا «عُدُوًّا» بضم العين والدال وتشديد الواو، وهى قراءة الحسن وأبى رجاء وقتادة، وهى راجعة إلى القراءة الأولى، وهما جميعا بمعنى الظلم . وقرأ أهـل مكة أيضا «عَدُوًّا» بفتح العين وضم الدال بمعنى عدوّ . وهو واحد يؤدّى عن جمع؛ كما قال : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ »[1] . وقال : «هُمُ الْعَدُوُّ»[2] . وهو منصوب على المصدر أو المفعول من أجله .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أى كما زيّنا لهؤلاء أعمالهم كذلك زينا لكل أمة عملهم . قال ابن عباس . زيّنا لأهل الطاعة الطاعةَ، ولأهل الكفر

---

(١) آية ٧٧ سورة الشعراء . (٢) آية ٤ سورة المنافقون .

الكفرَ؛ وهو كقوله : « يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ »(١) . وفى هذا ردٌّ على القدرية .

قوله تعالى : وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا ﴾ أى حلفوا . وجَهْدُ اليمين أشدّها ، وهو بالله . فقوله « جهد أيمانهم » أى غاية أيمانهم التى بلغها علمهم ، وانتهت إليها قدرتهم . وذلك انهم كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم ، وأن هذه الآلهة إنما يعبدونها ظنًّا منهم أنها تقربهم إلى الله زلفى ، كما أخبر عنهم بقوله تعالى : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى »(٢) . وكانوا يحلفون بآبائهم وبالأصنام وبغير ذلك . وكانوا يحلفون بالله تعالى وكانوا يسمّونه جَهْد اليمين إذا كانت اليمين بالله . « جَهْدَ » منصوب على المصدر والعامل فيه « اقسموا » على مذهب سيبويه ؛ لأنه فى معناه . والجَهْد (بفتح الجيم) : المشقّة ؛ يقال : فعلت ذلك بجَهْد . والجُهْد (بضمها) : الطاقة يقال : هذا جُهْدى ، أى طاقتى . ومنهم من يجعلهما واحدا ، ويحتج بقوله « وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ »(٣) . وقرئ « جَهْدهم » بالفتح ؛ عن ابن قتيبة . وسبب الآية فيما ذكر المفسرون : القُرَظِىّ والكَلْبى وغيرهما ، أن قريشا قالت : يا محمد ، تُخبِرنا بأن موسى ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا ، وأن عيسى كان يُحيى الموتى ، وأن ثمود كانت لهم ناقة ؛ فأتنا ببعض هذه الآيات حتى نصدّقك . فقال : " أىّ شىء تحبّون " ؟ قالوا : اجعل لنا الصَّفَا ذهبا ؛ فوالله إن فعلته لنتبعنّك أجمعون . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ؛ فجاءه جبريل فقال : " إن شئت أصبح ذهبا ، ولئن أرسل الله آية ولم يصدّقوا عندها ليعذبنّهم فاتركهم حتى يتوب تائبهم " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بل يتوب تائبهم " فنزلت هذه

---

(١) آية ٩٣ سورة النحل . (٢) آية ٣ سورة الزمر . (٣) آية ٧٩ سورة التوبة .

الآية . وبين الربّ بأن من سبق العلم الأزلىّ بأنه لا يؤمن فإنه لا يؤمن وإن أقسم ليؤمنّن .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ﴾ قيل : معناه بأغلظ الأيمان عندهم . وتعرض هنا مسألةٌ من الأحكام عُظْمَى ، وهى قول الرجل : الأيمان تلزمه إن كان كذا وكذا . قال ابن العربىّ : وقد كانت هذه اليمين فى صدر الإسلام معروفةً بغير هذه الصورة ، كانوا يقولون : علىّ أشدّ ما أخذه أحد على أحد ؛ فقال مالك : تَطْلُق نساؤه . ثم تكاثرت الصُّوَر حتى آلت بين الناس إلى صورةٍ هذه أُمُّها . وكان شيخنا الفِهْرِىّ الطَّرَسُوسِىّ يقول : يلزمه إطعام ثلاثين مسكينا إذا حنِث فيها ؛ لأن قوله « الأيمان » جمع يمين ، وهو لو قال علىّ يمين وحنِث ألزمناه كفارةً . ولو قال : علىّ يمينان للزمته كفارتان إذا حنِث . والأيمان جمع يمين فيلزمه فيها ثلاث كفارات .

قلت : وذكر أحمد بن محمد بن مغيث فى وثائقه : اختلف شيوخ القَيْرَوان فيها ؛ فقال أبو محمد بن أبى زيد : يلزمه فى زوجتـه ثلاث تطليقات ، والمَشْىُ إلى مكة ، وتفريقُ ثلث ماله ، وكفارةُ يمين ، وعِتق رقبة . قال ابن مغيث : وبه قال ابن أرفع رأسه وابن بدر من فقهاء طُلَيْطُلة . وقال الشيخ أبو عمـران الفاسى وأبو الحسن القابسىّ وأبو بكر بن عبد الرحمن القَرَوِىّ : تلزمه طلقة واحدة إذا لم تكن له نيّـة . ومن حجتهـم فى ذلك رواية ابن الحسن فى سماعه من ابن وهب فى قوله «وأشدّ ما أخذه أحد على أحد أن عليه فى ذلك كفارةَ يمين» . قال ابن مغيث : فجعل مَن سمّيناه على القائل : « الأيمان تلزمه » طلقةً واحدة ؛ لأنه لا يكون أسوأ حالا من قوله : أشدّ ما أخذه أحد على أحد أن عليه كفارةَ يمين ، وبه نقول . قال : واحتجّ الأوّلون بقول ابن القاسم فيمن قال : علىّ عهد الله وغليظُ ميثاقه وكفالته وأشـدّ ما أخذ أحد على أحد على أمر ألّا يفعله ثم فعله ؛ فقال : إن لم يُرِد الطلاق ولا العتاق وعزلها عن ذلك فلتكن ثلاث كفارات . فإن لم تكن له نيّـة حين حلف فليكفّر كفارتين فى قوله : علىّ عهد الله وغليظ ميثاقه . ويعتق رقبة وتَطْلُق نساؤه ، ويمشى إلى مكة ويتصدّق بثلث ماله

فى قوله : واشدّ ما أخذه أحد على أحد . قال ابن العربى : أمّا طريق الأدلّة فإن الألف واللام فى الأيمان لا تخلو أن يراد بها الجنس أو العهد؛ فإن دخلت للعهد فالمعهود قولك « بالله» فيكون ما قاله الفِهْرى . فإن دخلت للجنس فالطلاق جنس فيدخل فيها ولا يُستوفى عدده ؛ فإن الذى يكفى أن يدخل فى كل جنس معنى واحد؛ فإنه لو دخل فى الجنس المعنى كلّه للزمه أن يتصدّق بجميع ماله؛ إذ قد تكون الصدقة بالمال يمينًا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى قل يا محمد: الله القادر على الإتيان بها، وإنما يأتى بها إذا شاء. ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ أى وما يدريكم أيمانهم؛ فحذف المفعول. ثم آستأنف فقال: ﴿ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بكسر إن، وهى قراءة مجاهد وأبى عمرو وابن كثير. ويشهد لهذا قراءة آبن مسعود « وما يشعركم إذا جاءت لا يؤمنون » . وقال مجاهد وابن زيد : المخاطَب بهذا المشركون، وتمّ الكلام . حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وقد أعلمنا فى الآية بعد هذه أنهم لا يؤمنون . وهذا التأويل يشبه قراءة من قرأ « تؤمنون » بالتاء . وقال الفرّاء وغيره : الخطاب للمؤمنين؛ لأن المؤمنين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله، لو نزلت الآية لعلهم يؤمنون؛ فقال الله تعالى : « وما يشعركم » أى يعلمكم ويدريكم أيها المؤمنون . «أنها» بالفتح، وهى قراءة أهل المدينة والأعمش وحمزة، أى لعلّها إذا جاءت لا يؤمنون . قال الخليل : « أنها » بمعنى لعلّها؛ حكاه عنه سيبويه . وفى التنزيل : « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى»[1] أى أنه يزّكّى. وحُكى عن العرب: إيت السوق أنّك تشترى لنا شيئا، أى لعلّك. وقال أبو النّجم:

قلت لشَيْبانَ آدْنُ من لقائهْ ﴿ أنّ تُغدّى القومَ من شِوائهْ

وقال عَدِيّ بن زيد :

أعاذل ما يُدريك أنّ منيّتى ﴿ إلى ساعةٍ فى اليوم أو فى ضُحَى الغَدِ

أى لعلّ . وقال دُرَيد بن الصِّمّة[2] :

أرِينى جوادًا مات هَزْلًا لأنّنى ﴿ أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلا مُخَلّدا

(١) آية ٣ سورة عبس . (٢) الصحيح أنه حاتم طى . كما فى الصحاح للجوهرى، وديوانه .

أى لعلّى . وهو فى كلام العرب كثير « أنّ » بمعنى لعل . وحكى الكسائىّ أنه كذلك فى مصحف أُبَىّ بن كعب « وما أدراكم لعلها » . وقال الكسائى والفرّاء : أن « لا » زائدة، والمعنى : وما يشعركم أنها — أى الآيات — إذا جاءت المشركين يؤمنون ، فزيدت « لا » ؛ كما زيدت « لا » فى قوله تعالى : « وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ »[1] . لأن المعنى : وحرام على قرية مُهلكة رجوعُهم . وفى قوله : «مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ» . والمعنى : ما منعك أن تسجد . وضعّف الزجاج والنحاس وغيرهما زيادة « لا » وقالوا : هو غلط وخطأ ؛ لأنها إنما تزاد فيما لا يُشكل . وقيل : فى الكلام حذف ، والمعنى : وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون ، ثم حذف هذا لعلم السامع ؛ ذكره النحاس وغيره .

قوله تعالى : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

هذه آية مُشكلة ، ولا سيّما وفيها « وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » . قيل : المعنى ونقلب أفئدتهم وأنظارهم يوم القيامة على لهب النار وحرّ الجمر ؛ كما لم يؤمنوا فى الدنيا . ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ فى الدنيا ، أى نمهلهم ولا نعاقبهم ؛ فبعض الآية فى الآخرة ، وبعضها فى الدنيا . ونظيرها « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ »[2] فهذا فى الآخرة . «عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ» فى الدنيا . وقيل : ونقلب فى الدنيا ؛ أى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية ، كما حُلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة ؛ لمّا دعوتهم وأظهرتَ المعجزة . وفى التنزيل : «وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ»[3] . والمعنى : كان ينبغى أن يؤمنوا إذا جاءتهم الآية فرأوها بأبصارهم وعرفوها بقلوبهم ؛ فإذا لم يؤمنوا كان ذلك بتقليب الله قلوبهم وأبصارهم . ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ودخلت الكاف على محذوف ، أى فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة ؛ أى أول مرة أتتهم الآيات التى عجزوا عن معارضتها مثل القرآن وغيره . وقيل : ونقلب أفئدة هؤلاء كيلا يؤمنوا ؛ كما لم تؤمن كفار

---

(١) آية ٩٥ سورة الأنبياء . (٢) آية ٢ سورة الغاشية . (٣) آية ٢٤ سورة الأنفال .

الأمم السالفة لما رأوا ما اقترحوا من الآيات . وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ؛ أي أنها إذا جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا أول مرة ونقلب أفئدتهم وأبصارهم . ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون . وقد مضى في «البقرة»(1) .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111)

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ﴾ فرأوهم عيانا . ﴿ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى ﴾ بإحيائنا إياهم . ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ سألوه من الآيات . ﴿ قِبَلًا ﴾ مُقابلة ؛ عن ابن عباس وقتادة وابن زيد . وهي قراءة نافع وابن عامر . وقيل : معاينة ، لما آمنوا . وقال محمد بن يزيد : يكون « قبلا » بمعنى ناحية ؛ كما تقول : لي قِبَل فلان مالٌ ؛ فقِبَلا نصب على الظرف . وقرأ الباقون «قُبُلًا» بضم القاف والباء ، ومعناه ضُمَناء ؛ فيكون جمع قبيل بمعنى كفيل ، نحو رغيف ورُغُف ؛ كما قال : «أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا»(2) ؛ أي يضمنون ؛ ذلك عن الفرّاء . وقال الأخفش : هو بمعنى قَبِيل قَبِيل ؛ أي جماعة جماعة ، وقاله مجاهد ، وهو نصب على الحال على القولين . وقال محمد بن يزيد « قُبُلا » أي مقابلة ؛ ومنه « وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ » . ومنه قُبُل الرجل ودُبُره لما كان من بين يديه ومن ورائه . ومنه قُبُل الحيض . حكى أبو زيد : لقيت فلانا قُبُلا ومقابلة وقَبَلا وقِبَلا ، كله بمعنى المواجهة ؛ فيكون الضم كالكسر في المعنى وتستوي القراءتان ؛ قاله مكيّ . وقرأ الحسن « قُبْلًا » حذف الضمة من الباء لثقلها . وعلى قول الفرّاء يكون فيه نطق ما لا ينطق ، وفي كفالة ما لا يعقل آية عظيمة لهم . وعلى قول الأخفش يكون فيه اجتماع الأجناس الذي ليس بمعهود . والحشر الجمع . ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ « أن » في موضع استثناء ليس من الأول ؛ أي لكن إن شاء ذلك لهم . وقيل :

(1) راجع جـ ١ ص ٢٠٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (2) آية ٩٢ سورة الإسراء .

الاستثناء لأهل السعادة الذين سبق لهم فى علم الله الإيمان . وفى هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ أى يجهلون الحق . وقيل : يجهلون أنه لا يجوز اقتراح الايات بعد أن رأوا آية واحدة .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ ﴾ يُعزّى نبيّه ويُسلّيه ، أى كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبى قبلك « عَدُوًّا » أى أعداء . ثم نعتهم فقال ﴿ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ حكى سيبويه جعل بمعنى وصف . « عَدُوًّا » مفعول أول . « لِكُلِّ نَبِيٍّ » فى موضع المفعول الثانى . «شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ» بدل من عدو . ويجوز أن يكون «شياطين» مفعولا أول ، « عدوا » مفعولا ثانيا ؛ كأنه قال : جعلنا شياطين الإنس والجن عدوا . وقرأ الأعمش « شياطين الجن والإنس » بتقديم الجن . والمعنى واحد . ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ عبارةٌ عما يوسوس به شياطين الجن إلى شياطين الإنس . وسُمّيَ وَحْيًا لأنه إنما يكون خُفية ، وجعل تمويههم زُخرفا لتزيينهم إياه ؛ ومنه سُمّيَ الذهب زخرفا . وكل شىء حسَن مُمَوَّه فهو زُخْرُف . والمزخرَف المزيّن . وزخارف الماء طرائقه . «غرورا» نصب على الحال ، لأن معنى « يُوحِي بعضُهم إلى بعض » يغرونهم بذلك غرورا . ويجوز أن يكون فى موضع الحال . والغرور الباطل . قال النحاس : وروى عن ابن عباس بإسناد ضعيف أنه قال فى قول الله عز وجل «يُوحِي بعضُهم إلى بعض» قال : مع كل جنيّ شيطان ، ومع كل إنسيّ شيطان ، فيلقَى أحدهما الآخر فيقول : إنى قد أضللتُ صاحبى بكذا فأضلّ صاحبَك بمثله . ويقول الآخر مثلَ ذلك ؛ فهذا وَحْيُ بعضهم إلى بعض . وقاله عكرمة والضحاك

والسُّدِّى والكَلْبى . قال النحاس : والقول الأوّل يدل عليه « وإنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ »[1]؛ فهذا يبيّن معنى ذلك .

قلت : ويدلّ عليه من صحيح السُّنّة قولُه عليه السلام : "ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قَرِينُـه من الجن" قيل : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : "ولا أنا إلا أنّ الله أعانني عليه فأسْلَمَ فلا يأمرنى إلا بخير". روى "فأسلم" برفع الميم ونصبها . فالرفع على معنى فأسلم من شره . والنصب على معنى فأسلم هو . فقال : "ما منكم من أحد" ولم يقل ولا من الشياطين؛ إلا أنه يحتمل أن يكون نبّه على أحد الجنسين بالآخر؛ فيكون من باب «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحرّ»[2] وفيه بُعْـدٌ، والله أعلم . وروى عَوف بن مالك عن أبى ذَرٍّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبا ذَرّ هل تعوّذت بالله من شرّ شياطين الإنس والجن"؟ قال قلت: يا رسول الله،وهل للإنس من شياطين؟ قال: "نعم هم شرٌّ من شياطين الجن". وقال مالك بن دينار : إن شيطان الإنس أشدّ علىّ من شيطان الجن، وذلك أنى إذا تعوّذت بالله ذهب عنى شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئنى فيجرّنى إلى المعاصى عِيانا . وسَمِع عمر بن الخطاب آمرأة تُنشد :

إن النساء رَياحينٌ خلقن لكم * وكُلّكم يشتهى شمّ الرياحين

فأجابها عمر رضى الله عنه :

إن النساء شياطينٌ خُلقن لنا * نعـوذ بالله من شرّ الشياطين

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أى ما فعلوا إيحاء القول بالغرور . ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أمرٌ فيه معنى التهديد . قال سيبويه : ولا يقال وذر ولا ودع، استغنَوْا عنه بترك .

قلت : هذا إنما خرج على الأكثر . وفى التنزيل «وذَرِ الذين»[3] و «ذَرْهم» و «ما ودَعك» . وفى السنة "لينتهينّ أقوام عن وَدْعِهم الجُمُعات" . وقوله : "إذا فعلوا — يريد المعاصى —

---

(١) آية ١٢١ من هذه السورة . (٢) آية ٨١ سورة النحل . (٣) يلاحظ أن الفعل فى « وذر الذين » و « ذرهم » أمر ؛ ولا يجيء بهما ما ذكره قول المؤلف . فلعل فى الكلام سهوا ؛ والعصمة لله .

فقد تودع منهم". قال الزجاج: الواو ثقيلة؛ فلما كان «ترك» ليس فيه واو بمعنى ما فيه الواو تُرِك ما فيه الواو. وهذا معنى قوله وليس بنصّه.

قوله تعالى: وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ﴾ تصغى تميل؛ يقال: صغوت أصغو صَغْوًا وصُغُوًّا، وصَغَيت أصغى، وصَغِيت بالكسر أيضا. يقال منه: صغِي يَصْغَى صغًى وصُغِيًّا، وأصغيت إليه أصغي بمعنًى. قال الشاعر:

تَرَى السّفيه به عن كلّ مَكْرُمة ٭ زَيْغٌ وفيه إلى التشبيه إصغاء

ويقال: أصغيت الإناء إذا أملته ليجتمع ما فيه. وأصله الميل إلى الشيء لغرض من الأغراض. ومنه صَغَت النجوم: مالت للغروب. وفي التنزيل «فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا»(1). قال أبو زيد: صَغْوُه معك وصِغْوُه، وصَغاه معك، أي مَيْله. وفي الحديث "فأصغَى لها الإناء" يعني للهرة. وأكرموا فلانا في صاغيته، أي في قرابته الذين يميلون إليه ويطلبون ما عنده. وأصغت الناقة إذا أمالت رأسها إلى الرجل كأنها تستمع شيئا حين يَشُدّ عليها الرَّحْل. قال ذو الرُّمّة:

تُصغِي إذا شدّها بالكُور جانحةً(2) ٭ حتى إذا ما آستوى في غَرْزها تَثِبُ

واللام في «ولِتَصْغَى» لام كَيْ، والعامل فيها «يوحي» تقديره: يُوحِي بعضهم إلى بعض ليغروهم ولتصغى. وزعم بعضهم أنها لام الأمر، وهو غلط؛ لأنه كان يجب «ولْتَصغ إليه» بحذف الألف، وإنما هي لام كَيْ. وكذلك «وليَرْضَوه وليقترفوا» إلا أن الحسن قرأ «ولْيرضوه

(1) آية ٤ سورة التحريم. (2) الكور (بالضم): رحل الناقة بأداته؛ وهو كالسرج وآلته للفرس. قال ابن سيده: وكثير من الناس يفتح الكاف وهو خطأ. وجانحة: مائلة لاصقة. والغرز: سير كالركاب توضع فيه الرجل عند الركوب. وصف ناقته بالفطانة وسرعة الحركة.

«وليقترفوا» بإسكان اللام، جعلها لام أمر فيه معنى التهديد، كما يقال: ما شئت فافعل. ومعنى «وليقترفوا ما هم مقترفون» أي وليكتسبوا؛ عن ابن عباس والسُّدّي وابن زيد. يقال: خرج يقترف أهله أي يكتسب لهم. وقارف فلان هذا الأمر إذا واقعه وعمله. وقَرَفَني بما ادّعيت عليّ، أي رماني بالرِّيبة. وقَرَف القُرحة إذا قشّر منها. واقترف كذبًا. قال رُؤْبة:

أعيا اقتراف الكذب المقروف * تقوى التقيّ وعفّة الضعيف

وأصله اقتطاع قطعة من الشيء.

قوله تعالى: أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ «غير» نصب بـ«أبتغي». «حَكَمًا» نصب على البيان، وإن شئت على الحال. والمعنى: أفغير الله أطلب لكم حاكما وهو الذي كفاكم مئونة المسألة في الآيات بما أنزله إليكم من الكتاب المفصّل، أي المبين. ثم قيل: الحَكَم أبلغ من الحاكم؛ إذ لا يستحق التسمية بحَكَم إلا من يحكم بالحق، لأنها صفة تعظيم في مدح. والحاكم صفة جارية على الفعل، فقد يُسَمَّى بها من يحكم بغير الحق. ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد اليهود والنصارى. وقيل: من أسلم منهم كسَلْمان وصُهيب وعبد الله بن سَلام. ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي القرآن. ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي أن كل ما فيه من الوعد والوعيد لحَقّ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي من الشاكّين في أنهم يعلمون أنه منزّل من عند الله. وقال عطاء: الذين آتيناهم الكتاب هم رؤساء أصحاب محمد عليه السلام: أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم.

قوله تعالى: وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ ﴾ قرأه أهل الكوفة بالتوحيد، والباقون بالجمع .
قال ابن عباس : مواعيد ربك، فلا مغيّر لها . والكلمات ترجع إلى العبارات أو إلى المتعلقات من الوعد والوعيد وغيرهما . قال قتادة : الكلمات هي القرآن لامبدل له، لايزيد فيه المفترون ولاينقصون . ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي فيما وعد وحكم، لا رادّ لقضائه ولا خُلف في وعده . وحكى الرّمّاني عن قتادة : لامبدّل لها فيما حكم به، أي أنه وإن أمكنه التغيير والتبديل في الألفاظ كما غيّر أهل الكتاب التوراةَ والإنجيل فإنه لايعتدّ بذلك . ودلّت الآيةُ على وجوب اتّباع دلالات القرآن؛ لأنه حق لايمكن تبديله بما يناقضه، لأنه من عند حكيم لايخفى عليه شيء من الأمور .

قوله تعالى : وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي الكفار . ﴿ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي عن الطريق التي تؤدّي إلى ثواب الله . ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ « إنْ » بمعنى ما، وكذلك ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أي يَحْدِسون ويقدرون؛ ومنه الخَرْص، وأصله القطع . قال الشاعر :

تَرَى قِصَدَ المُرّانِ فينا كأنه ✽ تَذَرُّعُ خِرصانٍ بأيدي الشّواطِبِ [1]

يعني جريدا يُقطع طولا ويُتخذ منه الحصر . وهو جمع الخِرص؛ ومنه خَرَص يَخْرُص النخل خَرْصا إذا حزره ليأخذ الخَرَاج منه . فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به؛ إذ لايقين معه .

(١) البيت لقيس بن الخطيم . والقصد (بكسر القاف وفتح الصاد جمع قصدة) : القطعة مما يكسر . والمرّان : نبات الرماح . أو الرماح الصلبة اللدنة . والتذرع : تقدير الشيء بذراع اليد . والخرصان : القضبان من الجريد . والشواطب (جمع الشاطبة) وهي المرأة التي تقشر العسيب ثم تلقيه إلى المنقية فتأخذ كل ما عليه بسكينها حتى تتركه رقيقا ثم تلقيه المنقية إلى الشاطبة ثانية فتشطبه على ذراعها وتتذرعه . وقوله « فينا كأنه » عبارة الأصول . والذي في اللسان « تاق كأنه » وفي ديوانه « تهوى كأنها » .

وسيأتى لهذا مزيد بيان فى «الذاريات»[1] إن شاء الله تعالى. ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ قال بعض الناس : إن « أعلم » هنا بمعنى يعلم؛ وأنشد قول حاتم الطائى :

تحالفتْ طيٌّ من دوننا حلفًا * والله أعلم ما كنا لهم خُذُلًا[2]

وقول الخنساء :

الله أعلم أنّ جفنته * تغدو غداةَ الريح أو تَسْرى

وهذا لا حجة فيه؛ لأنه لا يطابق «وهو أعلم بالمهتدين» . ولأنه يحتمل أن يكون على أصله . ﴿ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ «من» بمعنى أىّ؛ فهو فى محل رفع والرافع له «يضل» . وقيل : فى محل نصب بأعلم، أى إن ربك أعلم أىَّ الناس يضل عن سبيله . وقيل : فى محل نصب بنزع الخافض؛ أى بمن يضل . قال بعض البصريين : وهو حَسَن؛ لقوله : «وهو أعلم بالمهتدين» وقوله فى آخر النحل « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » . وقرئ « يُضِلّ » وهذا على حذف المفعول ، والأوّل أحسن ؛ لأنه قال « وهو أعلم بالمهتدين » . فلو كان من الإضلال لقال وهو أعلم بالهادين .

قوله تعالى : فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ اللهِ عَلَيْهِ﴾ نزلت بسبب أناس أتَوا النبىّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله، إنا نأكل ما نقتل ولا نأكل ما قتل الله؟ فنزلت «فكلوا ـ إلى قوله ـ وإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» خرجه الترمذىّ وغيره . قال عطاء: هذه الآية أمرٌ بذكر ٱسم الله على الشراب والذبح وكلّ مطعوم . وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى بأحكامه وأوامره آخذين؛ فإن الإيمان بها يتضمّن ويقتضى الأخذ بها والانقياد لها .

---

(١) فى قوله تعالى : « قتل الخراصون » آية ١٠ .

(٢) فى الأصول : «خولا» بالواو بدل الدال . والتصويب عن تفسير الطبرى . والخذل : جمع خذول .

قوله تعالى : وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ المعنى : ما المانع لكم من أكل ما سميتم عليه ربكم وإن قتلتموه بأيديكم. ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ أى بين لكم الحلال من الحرام، وأزيل عنكم اللبس والشك . فـ«ما» استفهام يتضمن التقرير. وتقدير الكلام : وأى شئ لكم فى ألا تأكلوا. فـ«أن» فى موضع خفض بتقدير حرف الجر . ويصح أن تكون فى موضع نصب على ألا يقدر حرف جر، ويكون الناصب معنى الفعل الذى فى قوله «مَالَكُمْ» تقديره أى ما يمنعكم. ثم استثنى فقال ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ يريد من جميع ما حرم كالميتة وغيرها كما تقدم فى «البقرة»(١). وهو استثناء منقطع . وقرأ نافع ويعقوب «وقد فَصَّل لكم ما حَرَّم» بفتح الفعلين . وقرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالضم فيهما، والكوفيون «فَصّل» بالفتح «حُرِّم» بالضم . وقرأ عطية العَوْفى «فَصَل» بالتخفيف . ومعناه أبان وظهر؛ كما قرئ «الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَلَتْ»(٢) أى استبانت. واختار أبو عبيدة قراءة أهل المدينة. وقيل: «فصل» أى بين، وهو ما ذكره فى سورة «المائدة» من قوله : «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ» الآية(٣).

قلت : هذا فيه نظر؛ فإن «الأنعام» مكية والمائدة مدنية فكيف يحيل بالبيان على مالم ينزل بعد، إلا أن يكون فصل بمعنى يفصل . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ وقرأ الكوفيون «يُضلون» من أضل . ﴿بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعنى المشركين حيث قالوا: ما ذبح الله بسكينه خير مما ذبحتم بسكاكينكم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى بغير علم يعلمونه فى أمر الذبح؛ إذ الحكمة فيه إخراج ما حرم الله علينا من الدم بخلاف ما مات حتف أنفه؛ ولذلك شرع الذكاة فى محل مخصوص ليكون الذبح فيه سببا لجذب كل دم فى الحيوان بخلاف غيره من الأعضاء . والله أعلم .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٢٤ طبعة ثانية . (٢) أول سورة هود . (٣) آية ٣

قوله تعالى : وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ للعلماء فيه أقوال كثيرة . وحاصلها راجع إلى أن الظاهر ما كان عملا بالبدن مما نهى الله عنه ، وباطنه ما عُقد بالقلب من مخالفة أمر الله فيما أمر ونهى ؛ وهذه المرتبة لا يبلغها إلا من اتقى وأحسن ؛ كما قال : «ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا» . وهي المرتبة الثالثة حسب ما تقدم بيانه فى « المائدة »[1] . وقيل : هو ما كان عليه الجاهلية من الزنا الظاهر واتخاذ الحلائل فى الباطن . وما قدّمنا جامع لكل إثم .

قوله تعالى : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — روى أبو داود قال : جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله عز وجل « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » إلى آخر الآية . وروى النسائى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » قال . خاصمهم[2] المشركون فقالوا : ماذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أنتم أكلتموه ؛ فقال الله سبحانه لهم : لا تأكلوا ؛ فإنكم لم تذكروا اسم الله عليها . وتنشأ هنا مسألة أصولية ، وهى :

الثانيــة — وذلك أن اللفظ الوارد على سبب هل يُقصر عليــه أم لا ؛ فقال علماؤنا : لا إشكال فى صحة دعوى العموم فيما يذكره الشارع ابتداء من صيَغ ألفاظ العموم . أما ماذكره

---

(١) فى قوله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » آية ٩٣ .

(٢) أى خاصم المؤمنين المشركون .

جوابا لسؤال ففيه تفصيل، على ما هو معروف فى أصول الفقه؛ إلا أنه إن أتى بلفظ مستقل دون السؤال لَحِق بالأوّل فى صحة القصد إلى التعميم . فقوله : « لا تأكلوا » ظاهر فى تناول الميتة، ويدخل فيه ما ذُكر عليه غير اسم الله بعمومِ أنه لم يذكر عليه اسم الله، وبزيادة ذكر غير اسم الله سبحانه عليه الذى يقتضى تحريمه نصًّا بقوله : «وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ»[1]. وهل يدخل فيه ما ترك المسلم التسمية عمدا عليه من الذبح، وعند إرسال الصيد . اختلف العلماء فى ذلك على أقوال خمسة ، وهى : —

الثالثــة — الأول — إن تركها سهوًا أُكلا جميعا؛ وهو قول إسحاق ورواية عن أحمد ابن حنبل . فإن تركها عمدا لم يؤكلا ؛ وقاله فى الكتاب مالكٌ وابن القاسم ، وهو قول أبى حنيفة وأصحابه والثورى والحسن بن حىّ وعيسى وأَصْبَغ، وقاله سعيد بن جُبير وعطاء، واختاره النحاس وقال : هذا حَسَن؛ لأنه لا يُسَمَّى فاسقا إذا كان ناسيا .

الثانى — إن تركها عامدا أو ناسيا يأكلهما. وهو قول الشافعى والحسن، وروى ذلك عن ابن عباس وأبى هريرة وعطاء وسعيد بن المسيِّب والحسن وجابر بن زيد وعكرمة وأبى عياض وأبى رافع وطاوس وإبراهيم النَّخَعىّ وعبد الرحمن بن أبى لَيْلى وقَتادة . وحكى الزَّهْرَاوِىّ عن مالك بن أنس أنه قال : تؤكل الذبيحة التى تركت التسمية عليها عمدا ونسيانا . وعن ربيعة أيضا . قال عبد الوهاب : التسمية سنة؛ فإذا تركها الذابح ناسيا أكلت الذبيحة فى قول مالك وأصحابه .

الثالث — إن تركها عامدا أو ساهيا حَرُم أكلها؛ قاله محمد بن سيرين وعبد الله بن عياش ابن أبى ربيعة وعبد الله بن عمر ونافع وعبد الله بن يزيد الخَطْمِىّ والشعبىّ؛ وبه قال أبو ثور وداود بن علىّ وأحمد فى رواية .

الرابع — إن تركها عامدًا كُره أكلها ؛ قاله القاضى أبو الحسن والشيخ أبو بكر من علمائنا .

(١) آية ١٧٣ سورة البقرة .

الخامس ـ قال أشهب : تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمدًا إلا ان يكون مستخفًا ، وقال نحوه الطبرى ، قال الله تعالى : «فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ» . وقال « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ » فبيّن الحالين وأوضح الحكمين . فقوله « لا تأكلوا » نهىٌ على التحريم لا يجوز حمله على الكراهة ، لتناوله فى بعض مقتضياته الحرام المحض ، ولا يجوز أن يتبعّض ، أى يراد به التحريم والكراهة معًا ؛ وهذا من نفيس الأصول . وأما النّاسى فلا خطاب توجّه إليه إذ يستحيل خطابه ؛ فالشرط ليس بواجب عليه . واما التارك للتسمية عمدًا فلا يخلو من ثلاثة أحوال : إما أن يتركها إذا أضجع الذبيحة ويقول : قلبى مملوء من أسماء الله تعالى وتوحيده فلا أفتقر إلى ذكرٍ بلسان ؛ فذلك يجزئه لأنه ذكر الله جلّ جلاله وعظّمه . أو يقول : إن هذا ليس بموضع تسمية صريحة ، إذ ليست بقُربة ؛ فهذا أيضا يجزئه . أو يقول : لا أسمى ، وأىّ قدر للتسمية ؛ فهذا متهاون فاسق لا تؤكل ذبيحته . قال ابن العربىّ . وأعجب لرأس المحققين إمام الحرمين حيث قال : ذِكر الله تعالى إنما شُرع فى القُرَب ، والذبح ليس بقُربة . وهذا يعارض القرآن والسنة ؛ قال صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : " ما أنهر الدّمَ وذُكر آسم الله عليه فَكُلْ " . فان قيل : المراد بذكر آسم الله بالقلب ؛ لأن الذكر يضادّ النسيان ومحل النسيان القلب فمحل الذكر القلب ، وقد روى البرَاء ابن عازب : آسم الله على قلب كل مؤمن سَمّى أو لم يسمّ . قلنا : الذكر باللسان و بالقلب ، والذى كانت العرب تفعله تسمية الأصنام والنُّصُب باللسان ، فنسخ الله ذلك بذكره فى الالسنة ، وآشتهر ذلك فى الشريعة حتى قيل لمالك : هل يُسَمّى الله تعالى إذا توضأ فقال : أيريد أن يذبح . وأما الحديث الذى تعلّقوا به من قوله : « آسم الله على قلب كل مؤمن » فحديث ضعيف . وقد استدلّ جماعة من أهل العلم على أن التسمية على الذبيحة ليست بواجبة ؛ لقوله عليه السلام لأناس سألوه ، قالوا : يارسول الله ، إنّ قومًا يأتوننا باللحم لاندرى أذكروا آسم الله عليه أم لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَمّوا الله عليه وكُلوا" . أخرجه الدّارَقُطْنِىّ عن عائشة ومالك مرسلا عن هشام بن عروة عن أبيه ، لم يُختلف عليه فى إرساله .

وتأوله بأن قال فى آخره : وذلك فى أول الإسلام . يريد قبل أن ينزل عليه « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ » . قال أبو عمر : وهذا ضعيف ، وفى الحديث نفسه ما يردّه ، وذلك أنه أمرهم فيه بتسمية الله على الأكل ؛ فدلّ على أن الآية قد كانت نزلت عليه . ومما يدلّ على صحة ما قلناه أن هذا الحديث كان بالمدينة ، ولا يختلف العلماء أن قوله تعالى : «ولا تأكلوا مما لم يُذْكَرِ آسم الله عليه» نزل فى سورة «الأنعام» بمكة . ومعنى ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ أى لمعصية؛ عن ابن عباس . والفِسْق : الخروج؛ وقد تقدّم[1] .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ أى يُوَسْوِسون فيُلقون فى قلوبهم الجدال بالباطل . روى أبو داود عن ابن عباس فى قوله « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » يقولون ما ذبح الله فلا تأكلوه ، وما ذبحتم أنتم فكُلُوه ؛ فأنزل الله « ولا تأكلوا مِمَّا لم يُذْكَرِ آسمُ اللهِ عليه » قال عِكرمة : عنى بالشياطين فى هذه الآية مَرَدة الإنس من مَجُوس فارس . وقال ابن عباس وعبد الله بن كثير : بل الشياطين الجنّ ، وكفرة الجن أولياء قريش . ورُوى عن عبد الله بن الزبير أنه قيل له : إن المختار يقول : يُوحَى إلىّ ؛ فقال : صدق ، إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . يريد ما قتل الله لم تأكلوه وما قتلتموه أكلتموه . والمجادلة : دفع القول على طريق الحجة بالقوّة ؛ مأخوذ من الأجدل ، طائر قوىّ . وقيل : هو مأخوذ من الجَدالة ، وهى الأرض؛ فكأنه يغلبه بالحجة ويقهره حتى يصير كالمجدول بالأرض . وقيل : هو مأخوذ من الجَدْل، وهو شدة الفَتْل؛ فكأن كلّ واحد منهما يفتِل حجة صاحبه حتى يقطعها ، وتكون حقا فى نصرة الحق وباطلا فى نصرة الباطل .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ أى فى تحليل الميتة ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ فدلّت الآية على أن من آستحلّ شيئا مما حرّم الله تعالى صار به مُشركا . وقد حرّم الله سبحانه الميتة نصًّا؛ فإذا قَبِل تحليلها من غيره فقد أشرك . قال ابن العربىّ : إنما يكون المؤمن بطاعة

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٤٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

المشرك مشركا إذا أطاعه فى الاعتقاد ؛ فإن أطاعه فى الفعل وعقده سليم مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاص؛ فافهموه . وقد مضى فى « المائدة »[1] .

قوله تعالى : أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)

قوله تعالى : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ قرأ الجمهور بفتح الواو ، دخلت عليها همزة الاستفهام . وروى المُسَيَّبى عن نافع بن أبى نعيم « أَوْ مَنْ كَانَ » بإسكان الواو . قال النحاس : يجوز أن يكون محمولا على المعنى، أى انظروا وتدبروا أغير الله أبتغى حكما . ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ قيل : معناه كان ميتا حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح فيه؛ حكاه ابن بحر . وقال ابن عباس : أو من كان كافرا فهديناه . نزلت فى حمزة بن عبد المطلب وأبى جهل . وقال زيد بن أسلم والسُّدّى : « فأحييناه » عمر . « كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ » أبو جهل . والصحيح أنها عامة فى كل مؤمن وكافر . وقيل : كان ميتا بالجهل فأحييناه بالعلم . وأنشد بعض أهل العلم ما يدل على صحة هذا التأويل لبعض شعراء العرب :

وفى الجهل قبل الموت موتٌ لأهله * فأجسامهم قبل القبور قبور
وإنّ امرأ لم يَحْيَ بالعلم ميت * فليس له حتى النشور نشور

والنُّور عبارة عن الهُدَى والإيمان . وقال الحسن : القرآن . وقيل : الحكمة . وقيل : هو النور المذكور فى قوله : « يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ »[2]، وقوله : « انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ »[3] . ﴿ يَمْشِى بِهِ ﴾ أى بالنور . ﴿ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ ﴾ أى كمن هو ؛ فمثل زائدة . تقول : أنا أكرم مثلك؛ أى أكرم منك . ومثله « فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ »[4] .

---

(١) راجع آية ٨١ . (٢) آية ١٢ سورة الحديد . (٣) آية ١٣ سورة الحديد .
(٤) آية ٩٥ سورة المائدة

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ »(١) . وقيل : المعنى كمن مثله مثل من هو في الظلمات . والمَثَل والمِثْل واحد . ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي زَيّن لهم الشيطان عبادةَ الأصنام، وأوهمهم أنهم أفضل من المسلمين .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ المعنى : وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا في كل قرية . ﴿ مُجْرِمِيهَا ﴾ مفعول أوّل لجعل ﴿ أَكَابِرَ ﴾ الثاني على التقديم والتأخير. وجعل بمعنى صير. والأكابر جمع الأكبر. قال مجاهد : يريد العلماء. وقيل : الرؤساء والعظماء . وخصهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد والمكر والحيلة في مخالفة الاستقامة . وأصله الفتل؛ فالماكر يَفْتِل عن الاستقامة أي يصرف عنها . قال مجاهد : كانوا أجلسوا على كل عقبة أربعةً ينفّرون الناس عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم؛ كما فعل من قبلهم من الأمم السالفة بأنبيائهم . ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ أي وبالُ مكرهم راجعٌ إليهم . وهو من الله عز وجل الجزاء على مكر الماكرين بالعذاب الأليم . ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ في الحال؛ لفرط جهلهم أن وبال مكرهم عائد إليهم .

قوله تعالى : وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ ﴾ بيّن شيئا آخر من جهلهم، وهو أنهم قالوا لن نؤمن حتى نكون أنبياء، فنؤتَى مثل ما أوتي موسى وعيسى من الآيات؛ ونظيره «بَلْ يُرِيدُ

---

(١) آية ١١ سورة الشورى .

كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً »[1] . والكناية فى « جاءتهم » ترجع إلى الأكابر الذين جرى ذكرهم . قال الوليد بن المغيرة : لو كانت النبوة حقًّا لكنت أَوْلَى بها منك؛ لأنى أكبر منك سِنًّا ، وأكثر منك مالا . وقال ابو جهل : والله لا نرضى به ولا نتبعه أبدا ، إلا أن يأتينا وَحْىٌ كما يأتيه ؛ فنزلت الآية . وقيل : لم يطلبوا النبوّة ولكن قالوا لا نصدّقك حتى يأتينا جبريل والملائكة يخبروننا بصدقك . والأول أصح ؛ لأن الله تعالى قال : «اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِه » أى بمن هو مأمون عليها وموضع لها . و «حيث » ليس ظرفا هنا ، بل هو آسم نُصب نَصب المفعول به على الآتساع ؛ أى الله أعلم أهل الرسالة . وكان الأصل الله أعلم بمواضع رسالته ، ثم حذف الحرف ، ولا يجوز أن يعمل «أعلم» فى «حيث» و يكون ظرفا ،لأن المعنى يكون على ذلك الله أعلم فى هذا الموضع ، وذلك لا يجوز أن يوصف به البارى تعالى ، وإنما موضعها نصب بفعل مضمر دلّ عليه «أعلم» . وهى اسم كما ذكرنا . والصَّغار : الضَّيم والذل والهوان ، وكذا الصُّغر (بالضم) . والمصدر الصَّغَر (بالتحريك) . وأصله من الصِّغَر دون الكبر ؛ فكأن الذلّ يصغر إلى المرء نفسه ، وقيل : أصله من الصَّغَر وهو الرضا بالذل ؛ يقال منه : صَغَر يَصْغُر بفتح العين فى الماضى وضمها فى المستقبل . وصَغِر بالكسر يَصْغَر بالفتح لغتان ، صَغَرًا وصَغارا ، واسم الفاعل صاغِر وصغير . والصاغر : الراضى بالضيم . والمَصْغُوراء الصَّغار . وأرض مُصْغِرَة : نبتها لم يَطُل ؛ عن آبن السِّكّيت . ﴿ عِندَ اللهِ ﴾ أى من عند الله ، فحذف . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، أى سيصيب الذين أجرموا عند الله صغار . الفراء : سيصيب الذين أجرموا صغار من الله . وقيل : المعنى سيصيب الذين أجرموا صغار ثابت عند الله . قال النحاس : وهذا أحسن الأقوال ؛ لأن « عند » فى موضعها .

قوله تعالى : فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

(١) آية ٥٢ سورة المدثر .

قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ أى يوسعه له ، و يوفّقه ويزيّن عنده ثوابه . و يقال : شرح شقّ ، وأصله التّوسعة . وشرح الله صدره وسّعه بالبيان لذلك . وشرحتُ الأمر : بيّنته وأوضحته . وكانت قريش تَشْرَح النساء شَرْحا ، وهو مما تقدّم من التّوسعة والبَسْط ، وهو وطء المرأة مستلقِيَةً على قَفاها . فالشّرح : الكشف ؛ تقول : شرحت الغامض ؛ ومنه تشريح اللحم . قال الراجز :

كم قد أكلتُ كَبِدًا و إنفحهْ ٭ ثم ٱدّخرت إلْيَــةً مُشَرَّحَهْ

والقطعة منه شريحة . وكل سمين من اللحم ممتد فهو شريحة . ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ ﴾ يُغويه ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ وهذا ردّ على القدرية . ونظير هذه الآية من السّنّة قوله عليه السلام : "من يُرِدِ الله به خيرا يفقّهه فى الدّين" أخرجه الصحيحان . ولا يكون ذلك إلا بشرح الصدر وتنويره . والدّينُ العبادات ؛ كما قال : «إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ» . ودليل خطابه أن مَن لم يُرِد الله به خيرا ضيّق صدره ، وأبعد فهمه فلم يفقهه . والله أعلم . ورَوى أنه عبد الله بن مسعود قال : يا رسول الله ، وهل ينشرح الصدر؟ فقال : "نعم يدخل القلبَ نور" فقال : وهل لذلك من علامة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : "التّجافِى عن دار الغرور والإنابةُ إلى دار الخلود والاستعدادُ للموت قبل نزول الموت" . وقرأ ابن كثير « ضَيْقًا » بالتخفيف ؛ مثل هَيْن ولَيْن لغتان . ونافع وأبو بكر « حَرِجًا » بالكسر ، ومعناه الضّيق . كرر المعنى ، وحَسُن ذلك لٱختلاف اللفظ . والباقون بالفتح . جمع حرجة ؛ وهو شدّة الضّيق أيضا . والحَرَجة الغَيْضَة ؛ والجمع حَرَج وحَرَجات . ومنه فلان يتحرّج أى يضيّق على نفسه فى تركه هواه للمعاصى ؛ قاله الهَرَوِى . وقال ٱبن عباس : الحَرَج موضع الشجر الملتفّ ؛ فكأنّ قلب الكافر لا تصل إليه الحكمة كما لا تصل الراعية إلى الموضع الذى ٱلتفّ شجره ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذا المعنى ؛ ذكره مَكّيّ والثّعلبي وغيرهما . وكل ضيّق حَرِجٌ وحَرَج . قال الجوهرى : مكان حَرِج وحَرَج أى ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية . وقرئ «يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا» و «حَرِجًا» . وهو بمنزلة الوَحَد والوَحِد والفَرَد والفَرِد

والدَّنَف والدَّنِف؛ في معنًى واحد، وحكاه غيره عن الفراء . وقد حَرِج صدره يَحْرَج حَرَجًا . والحَرَج الإثم . والحرج أيضا : الناقة الضامرة . ويقال : الطويلة على وجه الأرض ؛ عن أبي زيد، فهو لفظ مشترك . والحَرَج : خشب يُشَدّ بعضه إلى بعض يُحمل فيه الموتى؛ عن الأصمعيّ . وهو قول آمرئ القيس :

فإمّا تَرَيْــنِي في رِحالة جابرٍ * على حَرَجٍ كالقَرّ تَخْفق أكفاني (١)

وربمــا وضع فوق نعش النساء؛ قال عنترة يصف ظليما :

يَتْبعْن قُــلّةَ رأســه وكأنه * حَرَج على نَعْش لَهُنّ مُخَــيِّم (٢)

وقال الزجاج : الحَرَج : أضيق الضِّيق . فإذا قيل . فلان حَرَج الصدر ، فالمعنى ذو حَرَج في صدره . فإذا قيل : حرِج فهو فاعل . قال النحاس : حرِج آسم الفاعل، وحرَج مصدر وُصف به ؛ كما يقال : رجل عَدْلٌ ورضًا .

قوله تعـالى : ﴿ كأنّمَـا يَصّـعّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ قرأه آبن كثير بإسـكان الصاد مخففًا، من الصعود وهو الطلوع . شـبه الله الكافر في نفوره من الإيمـان وثقله عليه بمنزلة من تكلف ما لا يُطيقه ؛ كما أن صعود السماء لا يُطاق . وكذلك يصّاعد وأصله يتصاعد، أدغمت التاء في الصاد، وهي قراءة أبي بكر والنَّخَعي؛ إلا أن فيه معنى فعلِ شيء بعد شيء، وذلك أثقل على فاعله . وقرأ الباقون بالتشديد من غير ألف ، وهو كالذي قبله . معناه يتكلف ما لا يطيق شيئا بعد شيء؛ كقولك : يَتجرّع ويتفوّق (٣) . ورُوِي عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ « كأنما يَتَصَعّد » . قال النحاس : ومعنى هذه القراءة وقراءةِ من قرأ يَصْعَد ويصّاعد واحد . والمعنى فيهما أن الكافر من ضيق صدره كأنه يريد أن يصعد إلى السماء وهو لا يقدر على ذلك؛ فكأنه

---

(١) أراد بالرحالة الخشب الذي يحمل عليه في مرضه . وأراد بالأكفان ثيابه التي عليه ؛ لأنه قدر أنها ثيابه التي يدفن فيها . وخفقها ضرب الريح لها . وأراد بجابر جابر بن حني التغلبي ، وكان معه في بلاد الروم ، فلما آشتدت علته صنع له من الخشب شيئا كالقرّ يحمل فيــه ، والقر : مركب من مراكب الرجال بين الرحل والسرج . (عن اللسان مادة حرج) .

(٢) وصف نعامة يتبعها رئالها وهو يبسط جناحيه ويجعلها تحته .

(٣) تفوّق شرابه : شربه شيئا بعد شيء.

يستدعى ذلك . وقيل : المعنى كاد قلبه يصعد إلى السماء نبوّا عن الإسلام . (كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ) عليهم ؛ بجعله ضيق الصدر فى أجسادهم . وأصل الرِّجس فى اللغة النّتن . قال ابن زيد : هو العذاب . وقال ابن عباس : الشيطان ؛ أى يسلّطه عليهم . وقال مجاهد : الرجس ما لا خير فيه . وكذلك الرجس عند أهل اللغة هو النتن . فمعنى الآية والله أعلم : ويجعل اللّعنة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة (على الذين لا يؤمنون) .

قوله تعالى : وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

قوله تعالى : (وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا) أى هذا الذى أنت عليه يا محمد والمؤمنون دين ربّك لا ٱعوجاج فيه . (قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ) أى بيّناها (لقوم يذكرون) .

قوله تعالى : لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : (لَهُمْ) أى للمتذكرين . (دَارُ السَّلَامِ) أى الجنة ، فالجنة دار الله ؛ كما يقال : الكعبة بيت الله . ويجوز أن يكون المعنى دار السلامة ، أى التى يسلم فيها من الآفات . ومعنى (عِنْدَ رَبِّهِمْ) أى مضمونة لهم عنده يوصلهم إليها بفضله . (وَهُوَ وَلِيُّهُمْ) أى ناصرهم ومُعينهم .

قوله تعالى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ نصب على الفعل المحذوف، أى ويوم يحشرهم يقول . ﴿ جَمِيعًا ﴾ نصب على الحال . والمراد حشر جميع الخلق فى موقف القيامة . ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ ﴾ نداء مضاف . ﴿ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ أى من الاستمتاع بالإنس؛ فحذف المصدر المضاف إلى المفعول، وحرف الجر؛ يدل على ذلك قوله : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ وهذا يرد قول من قال : إن الجن هم الذين استمتعوا من الإنس؛ لأن الإنس قبلوا منهم . والصحيح أن كل واحد مستمتع بصاحبه . والتقدير فى العربية : استمتع بعضنا بعضا؛ فاستمتاع الجن من الإنس انهم تلذذوا بطاعة الإنس إياهم، وتلذذ الإنس بقبولهم من الجن حتى زنوا وشربوا الخمور بإغواء الجن إياهم . وقيل : كان الرجل إذا مر بوادٍ فى سفره وخاف على نفسه قال : أعوذ برب هذا الوادى من جميع ما أحذر . وفى التنزيل « وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا »(١) . فهذا استمتاع الإنس بالجن . وأما استمتاع الجن بالإنس فيما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والكهانة والسحر . وقيل : استمتاع الجن بالإنس أنهم يعترفون أن الجن يقدرون أن يدفعوا عنهم ما يحذرون . ومعنى الآية تقريع الضالين والمضلين وتوبيخهم فى الآخرة على أعين العالمين. ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ يعنى الموت والقبر، ووافينا نادمين. ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ ﴾ أى موضع مقامكم . والمثوى المقام . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ استثناء ليس من الأول . قال الزجاج : يرجع إلى يوم القيامة، أى خالدين فى النار إلا ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدتهم فى الحساب ؛ فالاستثناء منقطع . وقيل : يرجع الاستثناء إلى النار، أى إلا ما شاء الله من تعذيبكم بغير النار فى بعض الأوقات . وقال ابن عباس : الاستثناء لأهل الإيمان . فـ«ما» على هذا بمعنى مَن . وعنه أيضا أنه قال : هذه الآية توجب الوقف فى جميع الكفار . ومعنى ذلك أنها توجب الوقف فيمن لم يمت ، إذ قد يُسلم . وقيل : «إلا ما شاء الله» من كونهم فى الدنيا بغير عذاب . ومعنى هذه الآية معنى الآية التى فى «هود». قوله : «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ»(٢) وهناك يأتى مستوفى إن شاء الله . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ أى فى عقوبتهم وفى جميع أفعاله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمقدار مجازاتهم .

(١) آية ٦ سورة الجن . (٢) الآية ١٠٦ .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ المعنى وكما فعلنا بهؤلاء مما وصفته لكم من آستمتاع بعضهم ببعض أجعل بعض الظالمين أولياء بعض، ثم يتبرأ بعضهم من بعض غدًا . ومعنى «نُوَلِّى» على هذا نجعل وليًّا . قال ابن زيد : نسلّط ظلمة الجنّ على ظلمة الإنس . وعنه أيضا : نسلّط بعض الظلمة على بعض فيهلكه و يذلّه . وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلّط الله عليه ظالما آخر . و يدخل فى الآية جميعُ مَن يظلم أو يظلم الرعية، أو التاجر يظلم الناس فى تجارته أو السارق وغيرهم . وقال فُضيل بن عياض : إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم فقف، وآنظر فيه متعجّبًا . وقال آبن عباس : إذا رضى الله عن قوم وَلّى أمرَهم خيارَهم، و إذا سخط الله على قوم وَلّى أمرهم شرارهم . وفى الخبر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من أعان ظالما سلّطه الله عليه" . وقيل : المعنى نَكِل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر، كما نَكِلهم غدًا إلى رؤسائهم الذين لا يقدرون على تخليصهم من العذاب . أى كما نفعل بهم ذلك فى الآخرة كذلك نفعل بهم فى الدنيا . وقد قيل فى قوله تعالى « نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى » : نَكِله إلى ما وَكَل إليه نفسه . قال ابن عباس : تفسيرها هو أن الله إذا أراد بقوم شرًّا وَلّى أمرَهم شرارَهم . يدلّ عليه قوله تعالى : « وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ »[1] .

قوله تعالى : يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أى يوم نحشرهم نقول ألم يأتكم رسل، فحذف ؛ فيعترفون بما فيه افتضاحهم . ومعنى « منكم » فى الخلق والتكليف والمخاطبة . ولما

(١) آية ٣٠ سورة الشورى .

كانت الجن ممن يُخاطب ويعقل قال « منكم » وإن كانت الرسل من الإنس وغلّب الإنس في الخطاب كما يُغلّب المذكر على المؤنث . وقال ابن عباس : رسل الجن هم الذين بلّغوا قومهم ما سمعوه من الوحي ؛ كما قال : « وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ »(١) . وقال مُقاتِل والضحّاك : أرسل الله رسلا من الجن كما أرسل من الإنس . وقال مجاهد : الرسل من الإنس، والنُّذُر من الجن ؛ ثم قرأ « إلى قومهم منذرين » . وهو معنى قول ابن عباس، وهو الصحيح على ما يأتي بيانه في « الأحقاف »(٢) . وقال الكلبي : كانت الرسل قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم يُبعثون إلى الإنس والجن جميعا .

قلت : وهذا لا يصحّ ، بل في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعطيتُ خمسا لم يُعطهُنّ نبيّ قبلي كان كلّ نبيّ يُبعث إلى قومه خاصّةً وبُعثتُ إلى كلّ أحمرَ وأسودَ " الحديث . على ما يأتي بيانه في «الأحقاف» . وقال ابن عباس : كانت الرسل تُبعث إلى الإنس وإن محمدا صلى الله عليه وسلم بُعث إلى الجن والإنس؛ ذكره أبو الليث السَّمَرْقَنْدي . وقيل : كان قوم من الجن آستمعوا إلى الأنبياء ثم عادوا إلى قومهم وأخبروهم؛ كالحال مع نبينا عليه السلام . فيقال لهم رسل الله، وإن لم يُنَصّ على إرسالهم . وفي التنزيل « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ »(٣) أي من أحدهما، وإنما يخرج من المِلح دون العَذْب ، فكذلك الرسل من الإنس دون الجن ؛ فمعنى «منكم» أي من أحدكم . وكان هذا جائزا؛ لأن ذكرهما سبق . وقيل : إنما صيّر الرسل في مخرج اللفظ من الجميع لأن الثَّقَلين قد ضمّتهما عَرْصة القيامة ، والحساب عليهم دون الخلق ؛ فلما صاروا في تلك العَرْصة في حساب واحد في شأن الثواب والعقاب خوطبوا يومئذ بمخاطبة واحدة كأنهم جماعة واحدة؛ لأن بدء خلقهم للعبودية، والثوابُ والعِقاب على العبودية، ولأن الجن أصلهم من مارج من نار ، وأصلنا من تراب ، وخلقهم غير خلقنا ؛ فمنهم مؤمن وكافر .

---

(١) في قوله تعالى : « وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن ... » الخ آية ٢٩ سورة الأحقاف

(٢) في قوله تعالى : « قالوا يا قومنا إنا سمعنا ... » آية ٣٠ .   (٣) آية ٢٢ سورة الرحمن .

وعدوّنا إبليس عدوّ لهم، يعادى مؤمنهم ويُوالى كافرهم. وفيهم أهواء: شيعة وقدرية ومُرْجئة يتلون كتابنا. وقد وصف الله عنهم فى سورة «الجن» من قوله: «وَأَنَّا مِنَّا المُسْلِمُونَ وَمِنَّا القَاسِطُونَ». «وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً»(١) على ما يأتى بيانه هناك. «يَقُصُّونَ» فى موضع رفع نعت لرسل. ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ أى شهدنا أنهم بلّغوا. ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ قيل: هذا خطاب من الله للؤمنين؛ أى أن هؤلاء قد غرّتهم الحياة الدنيا، أى خدعتهم وظنّوا أنها تدوم، وخافوا زوالها عنهم إن آمنوا. ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى اعترفوا بكفرهم. قال مُقاتل: هذا حين شهدت عليهم الجوارح بالشرك.

قوله تعالى: ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ ﴾ فى موضع رفع عند سيبويه؛ أى الأمر ذلك. و«أنْ» مخففة من الثقيلة؛ أى إنما فعلنا هذا بهم لأنى لم أكن أهلك القرى بظلمهم؛ أى بشركهم قبل إرسال الرسل إليهم فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير. وقيل: لم أكن أهلك القرى بشرك من أشرك منهم؛ فهو مثل «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى». ولو أهلكهم قبل بعثة الرسل فله أن يفعل ما يريد. وقد قال عيسى: «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ»(٢) وقد تقدم. وأجاز الفراء أن يكون «ذلك» فى موضع نصب، المعنى: فعل ذلك بهم؛ لأنه لم يكن يهلك القرى بظلم.

قوله تعالى: وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ أى من الجن والإنس؛ كما قال فى آية أخرى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ»(٣) ثم قال: «وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ». وفى هذا ما يدل عن أن المطيع من الجن فى الجنة، والعاصى منهم فى النار؛ كالإنس سواء. وهو أصح

(١) آية ١١، ١٤ (٢) آية ١١٨ سورة المائدة. (٣) آية ١٨، ١٩ سورة الأحقاف.

ما قيل فى ذلك فاعلمه . ومعنى « ولكلٍّ درجاتٌ » أى ولكل عامل بطاعة درجاتٌ فى الثواب . ولكلّ عاملٍ بمعصية دركاتٌ فى العقاب . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ ﴾ أى ليس بلاهٍ ولا ساهٍ . والغفلة أن يذهب الشىء عنك لاشتغالك بغيره . ﴿ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قرأه ابن عامر بالتاء، الباقون بالياء .

قوله تعالى : وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ﴾ أى عن خلقه وعن أعمالهم . ﴿ ذُوالرَّحْمَةِ ﴾ أى بأوليائه وأهل طاعته . ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ بالإماتة والاستئصال بالعذاب. ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ ﴾ أى خلقا آخر أَمْثَل منكم واطوع . ﴿ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ والكاف فى موضع نصب ، أى يستخلف من بعدكم ما يشاء استخلافا مثل ما أنشأكم ، ونظيره « إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ»[1] . « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ»[2]. فالمعنى يبدّل غيركم مكانكم، كما تقول : أعطيتك من دينارك ثوبا .

قوله تعالى : إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾ يحتمل أن يكون من «أوعدت» فى الشرّ، والمصدر الإيعاد . والمراد عذاب الآخرة . ويحتمل أن يكون من « وعدت » على أن يكون المراد الساعة التى فى مجيئها الخير والشر فغلّب الخير. روى معناه عن الحسن . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى فائتين؛ يقال : أعجزنى فلان، أى فاتنى وغلبنى .

قوله تعالى : قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

---

(١) آية ١٣٣ سورة النساء . (٢) آية ٣٨ سورة محمد .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ وقرأ أبو بكر بالجمع «مكاناتكم» . والمكانة الطريقة . والمعنى : اُثبتوا على ما أنتم عليه فأنا أثبت على ما أنا عليه . فإن قيل : كيف يجوز أن يؤمروا بالثبات على ما هم عليه وهم كفار . فالجواب أن هذا تهديد ؛ كما قال عز وجل : « فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا »(١) . ودلّ عليه « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ » أي العاقبة المحمودة التي يحمد صاحبها عليها، أي من له النصر في دار الإسلام، ومن له وراثة الأرض، ومن له الدار الآخرة، أي الجنة . قال الزجاج : «مكانتكم» تمكّنكم في الدنيا . آبن عباس والحسن والنَّخَعيّ : على ناحيتكم . القُتَبيّ : على موضعكم . ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ على مكانتي؛ فحذف لدلالة الحال عليه . «ومن» من قوله «مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ» في موضع نصب بمعنى الذي؛ لوقوع العلم عليه . ويجوز أن تكون في موضع رفع؛ لأن الأستفهام لا يعمل فيه ما قبله فيكون الفعل معلقا . أي تعلمون أيّنا تكون له عاقبة الدار؛ كقوله : « لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى »(٢) . وقرأ حمزة والكسائيّ «من يكون» بالياء .

قوله تعالى : وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ فيه مسئلة واحدة :

ويقال : ذرأ يذرأ ذرءا، أي خلق . وفي الكلام حذف وآختصار، وهو وجعلوا لأصنامهم نصيبا؛ دلّ عليه ما بعده . وكان هذا مما زيّنه الشيطان وسوّله لهم، صرفوا من مالهم طائفة إلى الله بزعمهم وطائفة إلى أصنامهم؛ قاله آبن عباس والحسن ومجاهد وقتادة . والمعنى متقارب . جعلوا لله جزءا ولشركائهم جزءا ، فإذا ذهب ما لشركائهم بالإنفاق عليها وعلى سدنتها عوّضوا منه ما لله، وإذا ذهب ما لله بالإنفاق على الضِّيفان والمساكين لم يُعوّضوا منه شيئا، وقالوا :

---

(١) آية ٨٢ سورة التوبة . (٢) آية ١٢ سورة الكهف .

اللهُ مستغنٍ عنه وشركاؤنا فقراء . وكان هذا من جهالاتهم وبزعمهم . والزعم الكذب . قال شُريح القاضى : إن لكل شىء كُنْيَة وكُنْيَةُ الكذب زعموا . وكانوا يكذبون فى هذه الأشياء لأنه لم ينزل بذلك شرع . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله : « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » . قال ابن العربى : وهذا الذى قاله كلام صحيح، فإنها تصرفت بعقولها العاجزة فى تنويع الحلال والحرام سفاهةً بغير معرفة ولا عدل، والذى تصرّفت بالجهل فيه من اتخاذ الآلهة أعظمُ جهلا وأكبرُ جُرْما، فإن الاعتداء على الله تعالى أعظمُ من الاعتداء على المخلوقات . والدليل فى أن الله واحد فى ذاته واحد فى صفاته واحد فى مخلوقاته أبْيَن وأوضح من الدليل على أن هذا حلال وهذا حرام . وقد رُوى أن رجلا قال لعمرو بن العاصى : إنكم على كمال عقولكم ووفور أحلامكم عبدتم الحجر ! فقال عمرو : تلك عقول كادها باريها . فهذا الذى أخبر الله سبحانه من سخافة العرب وجهلها أمر أذهبه الإسلام، وأبطله الله ببعثه الرسول عليه السلام . فكان من الظاهر لنا أن نميته حتى لا يظهر، وننساه حتى لا يُذكر؛ إلا أن ربّنا تبارك وتعالى ذكره بنصه وأورده بشرحه ، كما ذكر كفر الكافرين به . وكانت الحكمة فى ذلك ــ والله أعلم ــ أن قضاءه قد سبق، وحكمه قد نفذ بأن الكفر والتخليط لا ينقطعان إلى يوم القيامة . وقرأ يحيى بن وثاب والسُّلَمى والأعمش والكسائى « بزُعمهم » بضمه الزاى . والباقون بفتحها، وهما لغتان . ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى إلى المساكين . ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى ساء الحُكم حكمهم . قال ابن زيد : كانوا إذا ذبحوا ما لله ذكروا عليه اسم الأوثان، وإذا ذبحوا ما لأوثانهم لم يذكروا عليه اسم الله، فهذا معنى «فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ» . فكان تركهم لذكر الله مذموما منهم وكان داخلا فى ترك أكل ما لم يذكر اسم الله عليه .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ المعنى : فكما زين لهؤلاء أن جعلوا لله نصيبا ولأصنامهم نصيبا كذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم . قال مجاهد وغيره : زينت لهم قتل البنات مخافة العيلة . قال الفراء والزجاج : شركاؤهم ها هنا هم الذين كانوا يخدمون الأوثان . وقيل : هم الغواة من الناس . وقيل : هم الشياطين . وأشار بهذا إلى الوأد الخفي وهو دفن البنت حية مخافة السباء والحاجة ، وعدم ما حرمن من النصرة . وسمى الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم . وقيل : كان الرجل في الجاهلية يحلف بالله لئن ولد له كذا وكذا غلاما لينحرن أحدهم ؛ كما فعله عبد المطلب حين نذر ذبح ولده عبد الله . ثم قيل : في الآية أربع قراءات ، أصحها قراءة الجمهور : «وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ» وهذه قراءة أهل الحرمين وأهل الكوفة وأهل البصرة . «شركاؤهم» رفع بزين ؛ لأنهم زينوا ولم يقتلوا . «قتل» نصب بزين . «وأولادهم» مضاف إلى المفعول ، والأصل في المصدر أن يضاف إلى الفاعل لأنه أحدثه ولأنه لا يستغنى عنه ويستغنى عن المفعول ؛ فهو هنا مضاف إلى المفعول لفظا مضاف إلى الفاعل معنى ؛ لأن التقدير زين لكثير من المشركين قتلهم أولادهم شركاؤهم ، ثم حذف المضاف وهو الفاعل كما حذف من قوله تعالى : « لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ »(1) أي من دعائه الخير . فالهاء فاعلة الدعاء ، أي لا يسأم الإنسان من أن يدعو بالخير . وكذا قوله : زين لكثير من المشركين في أن يقتلوا أولادهم شركاؤهم . قال مكي : وهذه القراءة هي الاختيار لصحة الإعراب فيها ولأن عليها الجماعة . القراءة الثانية «زُيِّنَ» (بضم الزاي) . «لكثير من المشركين قتلُ» (بالرفع) . «أولادِهم» بالخفض . «شركاؤهم» (بالرفع) قراءة الحسن . ابنُ عامر وأهل الشام «زُيِّنَ» بضم الزاي «لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم» برفع «قتل» ونصب «أولادهم» . «شركائِهم» بالخفض فيما حكى أبو عبيد ؛ وحكى غيره عن أهل الشام أنهم قرءوا « وكذلك زُيِّنَ » بضم الزاي « لكثير من المشركين قتلُ »

(1) آية ٤٩ سورة فصلت .

بالرفع « أولادهم » بالخفض « شركائهم » بالخفض ايضا . فالقراءة الثانية قراءة الحسن جائزة، يكون «قتل» اسم ما لم يُسم فاعله، «شركاؤهم» ؛ رفع بإضمار فعل يدلّ عليه « زُيِّن » ، أى زيّنه شركاؤهم . ويجوز على هذا ضُرِب زيدٌ عمرٌو، بمعنى ضربه عمرو، وأنشد سيبويه :

* لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ *

أى يبكيه ضارع . وقرأ ابن عامر وعاصم من رواية أبى بكر «يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ»[1] التقدير يسبحه رجال . وقرأ إبراهيم بن أبى عَبْلة « قُتِلَ أصحابُ الأُخْدُودِ النَّارُ ذَاتُ الوَقُودِ »[2] بمعنى قتلهم النار . قال النحاس : وأما ما حكاه أبو عبيد عن ابن عامر وأهل الشام فلا يجوز فى كلام ولا فى شعر، وإنّما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف لأنه لا يَفصل ، فأما بالأسماء غير الظروف فلحن . قال مكّىّ : وهذه القراءة فيها ضعف للتفريق بين المضاف والمضاف إليه ؛ لأنه إنما يجوز مثل هذا التفريق فى الشعر مع الظروف لاتساعهم فيها وهو فى المفعول به فى الشعر بعيد ، فإجازته فى القراءة أبعد . وقال المهدوىّ : قراءة ابن عامر هذه على التفرقة بين المضاف والمضاف اليه ، ومثله قول الشاعر :

فزججتها بمزجة * زجّ القلوصَ أبى مَزاده[3]

يريد : زجّ أبى مزادة القلوصَ . وأنشد :

تمُرّ على ما تستمرّ وقد شفت * غلائلَ عبدُ القيس منها صُدُورِها

يريد شفت عبدُ القيس غلائلَ صدورها . وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوى : قراءة ابن عامر لا تجوز فى العربية ؛ وهى زلّة عالم، وإذا زل العالم لم يجز اتباعه، ورُدّ قوله إلى الإجماع ، وكذلك يجب أن يُرَدّ من زلّ منهم أو سها إلى الإجماع ؛ فهو أولى من الإصرار

---

(١) آية ٣٦ سورة النور . (٢) آية ٤ سورة البروج .

(٣) ذكر الأخفش هذا البيت ولم يعزه إلى أحد . والزج هاهنا الطعن ، والمزجة بكسر الميم : رمح قصير كالمزارق . والقلوص بفتح القاف : الفتية من النوق . يخبر أنه زج امرأته بالمزجة كما زج أبو مزادة القلوص . وأبو مزادة كنية رجل . راجع شرح الشواهد الكبرى للعينى فى باب الإضافة .

على غير الصواب . وإنما أجازوا فى الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف ؛ لأنه لا يفصل . كما قال :

كما خُطّ الكتاب بكفِّ يومًا * يَهُـودِىٌّ يُقارِبُ أو يُزِيلُ (١)

وقال آخر :

كأنّ أصواتَ مِن إيغالهن بنا * أواخِرِ المَيْسِ أصواتُ الفَرارِيجِ (٢)

وقال آخر :

لمّـا رأت سَاتيـدَما اَستعبَرَتْ * للهِ دَرُّ اليـومَ مَنْ لَامَها (٣)

وقال القشيرى : وقال قوم هـذا قبيح ، وهذا محال، لأنه إذا ثبت بالتواتر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فهو الفصيح لا القبيح . وقـد ورد ذلك فى كلام العرب وفى مصحف عثمان « شركائهـم » بالياء وهـذا يدلّ على قراءة ابن عامر . وأضيف القتل فى هـذه القراءة إلى الشركاء؛ لأن الشركاء هم الذين زيّنوا ذلك ودَعَوا إليه؛ فالفعل مضاف إلى فاعله على ما يجب فى الأصل، لكنه فرق بين المضاف والمضاف إليه، وقدّم المفعول وتركه منصوبا على حاله ؛ إذا كان متأخرا فى المعنى، وأخر المضاف وتركه مخفوضا على حاله ؛ إذا كان متقدما بعد القتل . والتقدير : وكذلك زُيّن لكثير من المشركين قَتْلُ شركائهم أولادَهم . أى أَنْ قتـلَ شركاؤهم أولادَهم . قال النحاس : فأما ما حكاه غير أبى عبيد (وهى القراءة الرابعة) فهو جائز . على أن تبدل شركاءهم من أولادهم؛ لأنهم شركاؤهم فى النسب والميراث . ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ اللام لام كى

---

(١) البيت لأبى حية النميرى . والشاهد فيه إضافة الكف إلى اليهودى مع الفصـل بالظرف . وصف رسوم الدار فشبهها بالكتاب فى دقتها والاستدلال بهـا ، وخص اليهود لأنهم أهل كتاب . وجعل كتابته بعضها متقارب وبعضها مفترق متباين لاقتضاء آثار الديار تلك الصفة والحال . (عن شرح الشواهد) .

(٢) البيت لذى الرمة . والشاهد فيه إضافة الأصوات إلى أواخر الميس مع فصله بالمجرور ضرورة . والميس : شجر تعمل منه الرحال . والإيغال : سرعة السير . يقول : كأن أصوات أواخر الميس من شدة سير الإبل بنا واضطراب رحالها عليها أصوات الفراريج (عن شرح الشواهد) .

(٣) البيت لعمرو بن قميئة . والشاهد فيه إضافة « لله » من مع جواز الفصل بالظرف ضرورة إذ لم يمكنه إضافة الدر إليه . وصف امرأة نظرت إلى « ساتيدما » وهو جبل بينه بعيد من ديارها ؛ فذكرت به بلادها فاستعبرت شوقا إليها (عن شرح الشواهد للشنتمرى) .

والإرداء ، الإهلاك . ﴿ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ الذى ارتضى لهم . أى يأمرونهم بالباطل ويشككونهم فى دينهم . وكانوا على دين إسماعيل ، وما كان فيه قتل الولد ؛ فيصير الحق مغطًّى عليه ؛ فبهذا يلبسون . ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ بيّن أن كفرهم بمشيئة الله . وهو ردّ على القدرية . ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ يريد قولهم إن لله شركاء .

قوله تعالى : وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

ذكر نوعا آخر من جهالتهم . وقرأ أبان بن عثمان «حُجُر» بضم الحاء والجيم . وقرأ الحسن وقتادة « حَجْر » بفتح الحاء وإسكان الجيم ، لغات بمعنًى . وعن الحسن أيضا « حُجر » بضم الحاء . قال أبو عبيد عن هارون قال : كان الحسن يضم الحاء فى « حجر » من جميع القرآن إلا فى قوله : «بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا»[1] فإنه كان يكسرها هاهنا . ورُوى عن ابن عباس وابن الزبير « وَحَرْثٌ حِرْجٌ » الراء قبل الجيم ؛ وكذا فى مصحف أُبَىّ ؛ وفيه قولان : أحدهما أنه مثل جبذ وجذب . والقول الآخر ــ وهو أصح ــ أنه من الحرج ؛ فإن الحِرْج (بكسر الحاء) لغة فى الحَرَج (بفتح الحاء) وهو الضيق والإثم ؛ فيكون معناه الحرام . ومنه فلان يتحرج أى يضيق على نفسه الدخولَ فيما يشتبه عليه من الحرام . والحِجر : لفظ مشترك . وهو هنا بمعنى الحرام ، وأصله المنع . وسُمّى العقل حجرا لمنعه عن القبائح . وفلان فى حَجْر القاضى أى منعه . حجرت على الصبىّ حَجْرًا . والحِجر العقــل ؛ قال الله تعالى : « هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ » والحِجر الفرس الأنثى . والحِجر القرابة . قال :

يريدون أن يُقصُــوه عنّى وإنه * لذُو حَسَبٍ دانٍ إلىّ وذو حِجْــرِ

وحِجــر الإنسان وحَجره لغتان ، والفتح أكثر . أى حرّموا أنعاما وحرثا وجعلوها لأصنامهم وقالوا : ﴿ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ ﴾ وهم خدّام الأصنام . ثم بيّن أن هــذا تحكّم لم يرِد به

(١) آية ٥٣ سورة الفرقان .

شرع ؛ ولهذا قال : « بِزَعْمِهِمْ » . ﴿ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ يريد ما يسيّبونه لآلهتهم على ما تقدّم من التصيب . وقال مجاهد : المراد البَحِيرة والوصيلة والحام[1] . ﴿ وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ يعنى ما ذبحوه لآلهتهم . قال أبو وائل : لا يحجّون عليها . ﴿ ٱفْتِرَآءً ﴾ أى للافتراء ﴿ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ لأنهم كانوا يقولون : الله أمرنا بهذا . فهو نصبٌ على المفعول به . وقيل : أى يفترون افتراء، وانتصابه لكونه مصدرا .

قوله تعالى : وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا ﴾ هذا نوع آخر من جهلهم . قال ابن عباس : هو اللبن، جعلوه حلالا للذكور وحراما على الإناث . وقيل : الأجنّة، قالوا : إنها لذكورنا. ثم إن مات منها شيء أكله الرجال والنساء. والهاء فى «خالصة» للبالغة فى الخلوص، ومثله رجل علامة ونسابة؛ عن الكسائى والأخفش . و «خالصةٌ» بالرفع خبر المبتدأ الذى هو «ما» . وقال الفراء : تأنيثها لتأنيث الأنعام . وهذا القول عند قوم خطأ؛ لأن ما فى بطونها ليس منها؛ فلا يشبه «يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ» لأن بعض السيارة سيّارة، وذا لا يلزم الفراء؛ فإن ما فى بطون الأنعام أنعام مثلها؛ فأنّث لتأنيثها، أى الأنعام التى فى بطون الأنعام خالصة لذكورنا . وقيل : أى جماعة ما فى البطون . وقيل : إن

---

(١) البحيرة : الناقة التى نتجت خمسة أبطن، وكان آخرها ذكرا بحروا أذنها (أى شقوها) وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح، ولا تحلا (تطرد) عن ماء ترده، ولا تمنع من مرعى، وإذا لقيها المعيى المنقطع به لم يركبها .

والوصيلة : الناقة التى وصلت بين عشرة أبطن . ومن الشاء التى وصلت سبعة أبطن، عناقين؛ فان ولدت فى السابعة عناقا وجديا قيل : وصلت أخاها؛ فلا يشرب لبن الأم الا الرجال دون النساء .

والحامى : الفحل من الإبل يضرب الضراب المعدود، قيل عشرة أبطن؛ فإذا بلغ ذلك قالوا : هذا حام . أى حمى ظهره فيترك، فلا ينتفع منه بشيء ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

راجع تفسير قوله تعالى : «ما جعل الله من بحيرة ...» آية ١٠٣ سورة المائدة .

«ما» يرجع إلى الألبان أو الأجنّة؛ فجاء التأنيث على المعنى والتذكير على اللفظ . ولهذا قال: «ومُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا» على اللفظ . ولو راعى المعنى لقال ومحرمة . ويَعْضُد هذا قراءةُ الأعمش «خالص» بغير هاء . قال الكسائى : معنى خالص وخالصة واحد، إلا أن الهاء للمبالغة ؛ كما يقال : رجل داهية وعلامة؛ كما تقدّم . وقرأ قتادة «خالصةً» بالنصب على الحال من الضمير فى الظرف الذى هو صلة لـ«ما» . وخبر المبتدأ محذوف؛ كقولك : الذى فى الدار قائمًا زيد. هذا مذهب البصريين . وانتصب عند الفرّاء على القطع . وكذا القول فى قراءة سعيد بن جبير«خالصًا» . وقرأ ابن عباس «خالصهُ» على الإضافة يكون ابتداء ثانيا؛ والخبر «لذكورنا» والجملة خبر « ما » . ويجوز أن يكون « خالصه » بدلا من « ما » . فهذه خمس قراءات . ﴿ وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾ أى بناتنا؛ عن ابن زيد . وغيره : نساؤهم . ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً ﴾ قرئ بالياء والتاء؛ أى إن يكن ما فى البطون ميتة ﴿ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ أى الرجال والنساء . وقال «فيه» لأن المراد بالميتة الحيوان، وهى تقوى قراءة الياء، ولم يقل فيها . « مَيْتَةٌ » بالرفع بمعنى تقع أو تحدث . « ميتةً » بالنصب؛ أى وإن تكن النسمة ميتة . ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أى كذبهم وافتراءهم؛ أى يعذبهم على ذلك . وانتصب «وَصْفَهُمْ» بنزع الخافض؛ أى بوصفهم . وفى الآية دليل على أن العالم ينبغى له أن يتعلّم قول من خالفه وإن لم يأخذ به، حتى يعرف فساد قوله ، ويعلم كيف يردّ عليه ؛ لأن الله تعالى أعلم النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه قول من خالفهم من زمانهم؛ ليعرفوا فساد قولهم .

قوله تعالى : قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

أخبر بخسرانهم لوأدهم البنات وتحريمهم البَحِيرة وغيرها بعقولهم؛ فقتلوا أولادهم سَفَهًا خوف الإملاق، وحجروا على أنفسهم فى أموالهم ولم يخشوا الإملاق؛ فأبان ذلك عن تناقض رأيهم .

قلت : إنه كان من العرب من يقتل ولده خَشْية الإملاق؛ كما ذكر الله فى غير هذا الموضع . وكان منهم من يقتله سَفَهًا بغير حجة منهم فى قتلهم؛ وهم ربيعة ومُضَر، كانوا يقتلون بناتهم

لأجل الحَمِيّة . ومنهم من يقول : الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات بالبنـات . رُوِى أن رجلا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يزال مُغْتَمًّا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مالك تكون محزونا"؟ فقال : يارسول الله، إنى أذنبت ذنبا فى الجاهليـة فأخاف ألا يغفره الله وإن أسلمتُ ! فقال له : "أخبرنى عن ذنبك" . فقال : يارسول الله، إنى كنت من الذين يقتلون بناتهم، فوُلدت لى بنت فتشفّعت إلىّ امرأتى أن أتركها فتركتها حتى كبرت وأدركتْ، وصارت من أجمل النساء فخطبوها، فدخلتنى الحَمِيّة ولم يحتمل قلبى أن أزوجها أو أتركها فى البيت بغـير زوج، فقلت للمرأة : إنى أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا فى زيارة أقربائى فابعثيهـا معى، فسُرّت بذلك وزينتها بالثياب والحُلِىّ، وأخذتْ علىّ المواثيق بألا أخونها، فذهبتُ بها إلى رأس بئر فنظرتُ فى البئر ففطنت الجارية أنى أريد أن ألقيها فى البـئر، فالتزمتنى وجعلت تبكى وتقول : ياأبت! أيش تريد أن تفعل بى! فرحمتها، ثم نظرتُ فى البئر فدخلتْ علىّ الحَمِيّة، ثم التزمتنى وجعلت تقول: ياأبت ! لا تُضيّع أمانة أمّى، فجعلتُ مرّةً أنظر فى البئر ومرّة إليها وأرحمها، حتى غلبنى الشيطان فأخذتها وألقيتها فى البئر منكوسةً، وهى تنادى فى البئر : ياأبت، قتلتنى . فمكثتُ هناك حتى انقطع صوتها فرجعت . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقال : "لو أُمِرتُ أن أعاقب أحدا بمـا فعل فى الجاهلية لعاقبتك" .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَـرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَـرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّـهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

فيه ثلاث وعشرون مسئلة :

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿ أنشأ ﴾ أى خلق. ﴿جنات معروشات﴾ أى بساتين ممسوكات مرفوعات. ﴿ وغير معروشات ﴾ غير مرفوعات. قال آبن عباس: «معروشات» ما آنبسط على الأرض مما يعرش مثل الكروم والزروع والبطيخ. ﴿ وغير معروشات ﴾ ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار. وقيل : المعروشات ما آرتفعت أشجارها. وأصل التعريش الرفع. وعن آبن عباس أيضا: المعروشات ما أثبته ورفعه الناس. وغير المعروشات ما خرج فى البرارى والجبال من الثمار. يدل عليه قراءة على رضى الله عنه «مغروسات وغير مغروسات» بالغين المعجمة والسين المهملة.

الثانية ـ قوله تعالى : ﴿ والنخل والزرع ﴾ أفردهما بالذكر وهما داخلان فى الجنات لما فيهما من الفضيلة؛ على ما تقدم بيانه فى «البقرة» عند قوله «من كان عدوا لله»[1] الآية. ﴿مختلفا أكله﴾ يعنى طعمه من الجيد والدون. وسماه أكلا لأنه يؤكل. و«أكله» مرفوع بالابتداء. و «مختلفا» نعته؛ ولكنه لما تقدم عليه وولى منصوبا نصب. كما تقول : عندى طباخا غلام. قال :

الشر منتشر يلقاك عن عرض * والصالحات عليها مغلقا باب

وقيل : «مختلفا» نصب على الحال. قال أبو إسحاق الزجاج: وهذه مسألة مشكلة من النحو، لأنه يقال : قد أنشأها ولم يختلف أكلها وهو ثمرها؛ فالجواب أن الله سبحانه أنشأها بقوله : «خالق كل شيء» فاعلم أنه أنشأها مختلفا أكلها؛ أى أنه أنشأها مقدرا فيه الاختلاف. وقد بين هذا سيبويه بقوله : مررت برجل معه صقر صائدا به غدا؛ على الحال؛ كما تقول: لتدخلن الدار آكلين شاربين؛ أى مقدرين ذلك. جواب ثالث ـ أى لما أنشأه كان مختلفا أكله؛ على معنى أنه لو كان له أكل لكان مختلفا أكله. ولم يقل أكلهما؛ لأنه اكتفى بإعادة الذكر على أحدهما؛ كقوله : «وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها»[2] أى إليهما. وقد تقدم هذا المعنى.

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٦ طبعة ثانية. (٢) آخر سورة الجمعة.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ ﴾ عطف ﴿ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ نصب على الحال، وقد تقدم القول فيه. وفي هذه أدلة ثلاثة؛ أحدها ماتقدم من قيام الدليل على أن المتغيرات لابدّ لها من مغيّر. الثاني على المنّة منه سبحانه علينا؛ فلو شاء إذ خلقنا لا يخلق لنا غذاء، وإذا خلقه ألا يكون جميل المَنْظر طيب الطعم، وإذ خلقه كذلك ألّا يكون سهل الجَنَى؛ فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء؛ لأنه لا يجب عليه شيء. الثالث على القدرة في أن يكون الماء الذي من شأنه الرسوب يصعَد بقدرة الواحدِ علّامِ الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأ فيها أوراق ليست من جنسها، وثمرٌ خارج من صفته الجِرْم الوافر، واللون الزاهر، والجَنَى الجديد، والطعم اللذيذ؛ فأين الطبائع وأجناسها، وأين الفلاسفة وأناسها، هل في قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان، أو ترتّب هذا الترتيب العجيب! كلا! لا يتم ذلك في العقول إلا لحيّ عالم قديرٍ مُريدٍ. فسبحان من له في كل شيء آية ونهاية!

ووجه اتصال هذا بما قبله أن الكفار لما افتروا على الله الكذب وأشركوا معه وحلّلوا وحرّموا دلّهم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقا لهم.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ فهذان بناءان جاءا بصيغة افعل؛ أحدهما مباح كقوله: « فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ » والثاني واجب. وليس يمتنع في الشريعة اقتران المباح والواجب، وبدأ بذكر نعمة الأكل قبل الأمر بإيتاء الحق ليبيّن أن الابتداء بالنعمة كان من فضله قبل التكليف.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ اختلف الناس في تفسير هذا الحق ما هو؛ فقال أنس بن مالك وابن عباس وطاوس والحسن وابن زيد وابن الحنفية والضحاك وسعيد بن المسيّب: هي الزكاة المفروضة، العُشْر ونصف العُشْر. ورواه ابن وهب وابن القاسم عن مالك في تفسير الآية، وبه قال بعض أصحاب الشافعيّ. وحكى الزجاج أن هذه الآية قيل فيها أنها نزلت بالمدينة. وقال عليّ بن الحسين وعطاء والحكم وحماد وسعيد بن جُبير ومجاهد: هو حقّ في المال سوى الزكاة، أمر الله به ندبًا. وروى عن

ابن عمر ومحمد بن الحنفية أيضا، ورواه أبو سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال مجاهد: إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السُّنْبُل، وإذا جَذذت فالق لهم من الشماريخ، وإذا دوسته وذريته فاطرح لهم منه، وإذا عرفت كيله فأخرج منه زكاته. وقول ثالث وهو منسوخ بالزكاة؛ لأن هذه السورة مكية وآية الزكاة لم تنزل إلا بالمدينة «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً»[1]، «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ»[2]. روى عن ابن عباس وابن الحنفية والحسن وعطية العوفى والنخعى وسعيد بن جبير. وقال سفيان: سألت السُّدِّى عن هذه الآية فقال. نسخها العُشر ونصف العُشر. فقلت: عن من؟ فقال عن العلماء.

السادسة — وقد تعلق أبو حنيفة بهذه الآية وبعموم ما فى قوله عليه السلام: "فيما سقت السماء العُشر وفيما سُقى بنَضْح[3] أو دَالِية نصفُ العُشر" فى إيجاب الزكاة فى كل ما تنبت الأرض طعاما كان أو غيره. وقال أبو يوسف عنه: إلا الحطب والحشيش والقصب والتبن والسعف وقصب الذريرة[4] وقصب السكر. وأباه الجمهور، معولين على أن المقصود من الحديث بيان ما يؤخذ منه العشر وما يؤخذ منه نصف العشر. قال أبو عمر: لا اختلاف بين العلماء فيما علمتُ أن الزكاة واجبة فى الحنطة والشعير والتمر والزبيب. وقالت طائفة: لا زكاة فى غيرها. روى ذلك عن الحسن وابن سيرين والشعبى. وقال به من الكوفيين ابن أبى ليلى والثورى والحسن ابن صالح وابن المبارك ويحيى بن آدم، وإليه ذهب أبو عبيد. وروى ذلك عن أبى موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو مذهب أبى موسى، فإنه كان لا يأخذ الزكاة إلا من الحنطة والشعير والتمر والزبيب؛ ذكره وكيع عن طلحة بن يحيى عن أبى بُردة عن أبيه. وقال مالك وأصحابه: الزكاة واجبة فى كل مُقتات مُدَّخر؛ وبه قال الشافعى. وقال الشافعى. إنما تجب الزكاة فيما ييبس ويُدّخر ويقتات مأكولا. ولا شىء فى الزيتون لأنه إدام. وقال أبو ثور مثله. وقال أحمد أقوالا أظهرها أن الزكاة إنما تجب فى كل ما قاله أبو حنيفة إذا كان

---

(١) آية ١٠٣ سورة التوبة. (٢) آية ٤٣ سورة البقرة. (٣) النضح: سق الزرع وغيره بالسانية وهى الناقة يستق عليها. (٤) الذريرة: قصب يجاء به من الهند، كقصب النشاب أحمر يتداوى به.

يُوسق؛ فاوجبها فى اللّوز لأنه مكيل دون الجَوْز لأنه معدود . وآحتج بقوله عليه السلام : " ليس فيما دون خمسة أوْسُق من تمر أوحب صدقة " قال : فبيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن محل الواجب هو الوَسْق، وبيّن المقدار الذى يجب إخراج الحق منه . وذهب النَّخَعِيّ إلى أن الزكاة واجبة فى كل ما أخرجته الأرض، حتى فى عشر دساتج من بقل دستجةُ بقل[1] . وقد آختلف عنه فى ذلك، وهو قول عمر بن عبد العزيز فإنه كتب أن يؤخذ مما تنبت الأرض من قليل أو كثير العُشْر ؛ ذكره عبد الرزاق عن معمر عن سِمَاك بن الفضل ، قال : كتب ... ؛ فذكره . وهو قول حماد بن أبى سليمان وتلميذه أبى حنيفة . وإلى هذا مال آبن العربيّ فى أحكامه فقال : وأما أبو حنيفة فجعل الآية مرآته فأبصر الحق ، وأخذ يعضُده مذهب الحنفيّ ويقويه . وقال فى كتاب (القبس بما عليه الإمام مالك بن أنس) فقال : قال الله تعالى : « وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ » . وآختلف الناس فى وجوب الزكاة فى جميع ما تضمنته أو بعضه، وقد بيّنا ذلك، فى (الأحكام) لُبَابُه، أن الزكاة إنما تتعلق بالمُقتات كما بيّنا دون الخضراوات ؛ وقد كان بالطائف الرمان والفِرْسِك[2] والأُتْرُج فما آعترضه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ذكره ولا أحد من خلفائه .

قلت : هذا وإن لم يذكره فى الأحكام هو الصحيح فى المسألة ، وأن الخضراوات ليس فيها شيء . وأما الآية فقد آختلف فيها، هل هى مُحْكَمة أو منسوخة أو محمولة على النّدب . ولا قاطعَ يبيّن أحد محامِلها ؛ بل القاطع المعلوم ماذكره ابن بكير فى أحكامه : أن الكوفة آفتتحت بعد موت النبيّ صلى الله عليه وسلم وبعد آستقرار الأحكام فى المدينة ، أفيجوز أن يتوهّم متوهّم أو مَن له أدنى بصيرة أن يكون شريعة مثل هذه عُطّلت فلم يُعمل بها فى دار الهجرة ومستقَر الوَحْى ولا خلافة أبى بكر، حتى عَمِل بذلك الكوفيون . إن هذه لمصيبة فيمن ظنّ هذا وقال به !.

قلت : ومما يدلّ على هذا من معنى التنزيل قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ »[3] أتراه يكتم شيئا أُمِر بتبليغه أو بيانه، حاشاه عن ذلك!

(١) الدستجة : الحزمة. (٢) الفرسك (كزبرج): الخوخ أو ضرب منه أجرد أحمر، أوما ينفلق عن نواه.

(٣) آية ٦٧ سورة المائدة .

وقال تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »[1] ومن كمال الدين كونه لم يأخذ من الخضراوات شيئا . وقال جابر بن عبدالله فيما رواه الدارقطني : إن المقاثي[2] كانت تكون عندنا تخرج عشرة آلاف فلا يكون فيها شيء . وقال الزهري والحسن : تزكى أثمان الخضر إذا أينعت وبلغ الثمن مائتى درهم ؛ وقاله الأوزاعي فى ثمن الفواكه . ولا حجة فى قولهما لما ذكرنا . وقد روى الترمذي عن معاذ أنه كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن الخضراوات وهى البقول فقال : "ليس فيها شيء" . وقد روى هذا المعنى عن جابر وأنس وعلي ومحمد بن عبد الله بن جحش وأبي موسى وعائشة . ذكر أحاديثهم الدارقطني رحمه الله . قال الترمذي : ليس يصح فى هذا الباب عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء . واحتج بعض أصحاب أبي حنيفة بحديث صالح بن موسى عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فيما أنبتت الأرض من الخضر زكاة" . قال أبو عمر : وهذا حديث لم يروه فى ثقات أصحاب منصور أحد هكذا ، وإنما هو من قول إبراهيم .

قلت : وإذا سقط الاستدلال من جهة السنة لضعف أسانيدها فلم يبق إلا ما ذكرناه من *تخصيص عموم الآية، وعموم قوله عليه السلام : "فيما سقت السماء العشر" بما ذكرنا* .

وقال أبو يوسف ومحمد : ليس فى شيء من الخضر زكاة إلا ما كانت له ثمرة باقية سوى الزعفران ونحوه مما يوزن ففيه الزكاة . وكان محمد يعتبر فى العصفر والكتان البزر، فإذا بلغ بزرهما من القرطم والكتان خمسة أوسق كان العصفر والكتان تبعا للبزر ، وأخذ منه العشر أو نصف العشر . وأما القطن فليس عنده دون خمسة أحمال شيء ؛ والحمل ثلثمائة من بالعراقي . والورس والزعفران ليس فيما دون خمسة أمنان منها شيء . فإذا بلغ أحدهما خمسة أمنان كانت فيه الصدقة، عشرا أو نصف العشر . قال أبو يوسف : وكذلك قصب السكر الذى يكون منه السكر، ويكون فى أرض العشر دون أرض الخراج، فيه ما فى الزعفران . وأوجب عبد الملك بن الماجشون الزكاة فى أصول الثمار دون البقول . وهذا خلاف

(1) آية ٣ سورة المائدة . (٢) المقاثى (جمع مقثأة بفتح الثاء وضمها) : موضع القثاء .

ما عليه مالك وأصحابه ، لا زكاة عندهم لا فى اللّوز ولا فى الجَوز ولا فى الجِلَّوز[1] وما كان مثلها، وإن كان ذلك يدّخر . كما أنه لا زكاة عندهم فى الإجّاص[2] ولا فى التفاح ولا فى الكُمّثرى، ولا ما كان مثل ذلك كله مما لا ييبس ولا يُدّخر. وآختلفوا فى التين، والأشهر عند أهل المغرب ممن يذهب مذهب مالك أنه لا زكاة عندهم فى التّين . إلا عبد الملك بن حبيب فإنه كان يرى فيه الزكاة على مذهب مالك، قياسًا على التمر والزبيب . وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم البغداديين المالكيين، إسماعيل بن إسحاق ومن آتبعه . قال مالك فى الموطأ ؛ السنة التى لا آختلاف فيها عندنا، والذى سمعته من أهل العلم، أنه ليس فى شىء من الفواكه كلها صدَقة : الرمان والفِرْسِك والتّين وما أشبه ذلك . وما لم يشبهه إذا كان من الفواكه. قال أبو عمر : فأدخل التين فى هذا الباب، وأظنه (والله أعلم) لم يعلم بأنه ييبس ويُدّخر ويُقتات، ولو علم ذلك ما أدخله فى هذا الباب ؛ لأنه أشبه بالتمر والزبيب منه بالرمان . وقد بلغنى عن الأبهرىّ وجماعة من أصحابه أنهم كانوا يُفتون بالزكاة فيه، ويرونه مذهب مالك على أصوله عندهم . والتين مكيل يراعى فيه الخمسة الأوسُق وما كان مثلها وَزْنًا ، ويُحكم فى التين عندهم بحكم التمر والزبيب المجتمع عليهما . وقال الشافعىّ : لا زكاة فى شىء من الثمار غير التمر والعنب؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الصدقة منهما وكانا قوتا بالحجاز يُدّخر . قال : وقد يدخر الجوز واللوز ولا زكاة فيهما؛ لأنهما لم يكونا بالحجاز قوتا فيما علمت، وإنما كانا فاكهة. ولا زكاة فى الزيتون لقوله تعالى : «والزيتون والرمّان» . فقرنه مع الرمّان، ولا زكاة فيه. وأيضا فإن التين أنفع منه فى القوت ولا زكاة فيه. وللشافعىّ قول بزكاة الزيتون قاله بالعراق ، والأوّل قاله بمصر؛ فآضطرب قوله فى الزيتون، ولم يختلف فيه قول مالك . فدلّ على أن الآية مُحكَمة عندهما غيرُ منسوخة . وآتفقا جميعا على أن لا زكاة فى الرمّان، وكان يلزمهما إيجاب الزكاة فيه . قال أبو عمر : فإن كان الرمّان خرج بآتفاق فقد بان بذلك المراد بأن الآية ليست على عمومها، وكان الضمير عائدا على بعض المذكور دون بعض. والله أعلم.

---

(١) الجلوز : البندق . (٢) الإجاص : شجر معروف، واحدته إجاصة . ثمره حلو لذيذ .

قلت : بهذا استدل من أوجب العشر فى الخضراوات فإنه تعالى قال : « وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ» والمذكور قبله الزيتون والرمان، والمذكور عقيب جملة ينصرف إلى الأخير بلا خلاف؛ قاله الكيا الطبرى . ورُوى عن ابن عباس أنه قال ما لَقِحت رمانة قط إلا بقطرة من ماء الجنة . وروى عن على كرّم الله وجهه أنه قال : إذا أكلتم الرمانة فكلوها بشحمها فإنه دباغ المعدة . وذكر ابن عساكر فى تاريخ دمشق عن ابن عباس قال: لا تكسروا الرمانة من رأسها فإن فيها دُودةً يعترى منها الجُذام . وسيأتى منافع زيت الزيتون فى سورة «المؤمنين»[1] إن شاء الله تعالى. وممن قال بوجوب زكاة زيت الزيتون الزُّهْرِىُّ والأوزاعىّ والليث والثورىّ وأبو حنيفة وأصحابُه وأبو ثور . قال الزهرىّ والأوزاعىّ والليث : يُخرَص[2] زيتونا و يؤخذ زيتا صافيا . وقال مالك لا يخرص ، ولكن يؤخذ العُشر بعد أن يُعصر ويبلُغ كيله خمسة أوسق . وقال أبو حنيفة والثورىّ : يؤخذ من حبه .

السابعة ــ قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم «حصاده» بفتح الحاء ، والباقون بكسرها ، وهما لغتان مشهورتان ؛ ومثله الصَّرام والصِّرام والجَذاذ والجِذاذ والقَطَاف والقِطاف . واختلف العلماء فى وقت الوجوب على ثلاثة أقوال :

الأول ــ أنه وقت الجذاذ ؛ قاله محمد بن مَسْلمة ؛ لقوله تعالى : « يوم حصاده » .

الثانى ــ يوم الطِّيب ؛ لأن ما قبل الطيب يكون عَلفا لا قُوتا ولا طعاما ؛ فإذا طاب وحان الأكل الذى أنعم الله به وجب الحقّ الذى أمر الله به ، إذ بتمام النعمة يجب شكر النعمة ، ويكون الإيتاء وقت الحصاد لما قد وجب يوم الطِّيب .

الثالث ــ أنه يكون بعد تمام الخَرْص ؛ لأنه حينئذ يتحقق الواجب فيه من الزكاة فيكون شرطا لوجوبها . أصله مجىء الساعى فى الغنم ؛ وبه قال المُغيرة . والصحيح الأول لنص التنزيل . والمشهور من المذهب الثانى، وبه قال الشافعى . وفائدة الخلاف إذا مات بعد الطِّيب

(١) فى قوله تعالى : « وشجرة تخرج من طور سيناء ... » آية ٢٠ .

(٢) سيأتى معانى الخرص فى المسئلة التاسعة .

زكّيت على ملكه ، وقبل الخَرْص على ورثته . وقال محمد بن مسلمة : إنما قدّم الخرص توسعةً على أرباب الثمار ، ولو قدّم رجل زكاته بعد الخَرْص وقبل الجذاذ لم يُجْزه ؛ لأنه أخرجها قبل وجوبها . وقد ٱختلف العلماء في القول بالخرص وهي : —

الثامنة — فكرِهه الثوريّ ولم يُجِزْه بحال، وقال : الخرص غير مستعمل . قال : وإنما على ربّ الحائط أن يؤدّيَ عشر ما يصير في يده للساكين إذا بلغ خمسة أوْسُق . وروى الشيبانيّ عن الشعبيّ أنه قال : الخرص اليومَ بدعةٌ . والجمهور على خلاف هذا ، ثم ٱختلفوا فالمعظم على جوازه في النخل والعنب ، لحديث عَتّاب بن أَسِيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه وأمره أن يَخْرُص العنب كما يَخْرُص النخل وتؤخذ زكاته زبيبا كما تؤخذ زكاة النخل تمرا . رواه أبو داود . وقال داود بن عليّ : الخرص للزكاة جائز في النخل، وغير جائز في العنب ، ودفع حديث عتّاب بن أسيد لأنه منقطع ولا يتّصل من طريق صحيح ، قاله أبو محمد عبد الحق .

التاسعة — وصفة الخرص أن يُقَدّر ما على نخله رطبا ويقدّر ما ينقص لو يُتْمِر، ثم يعتدّ بما بقي بعد النقص ويضيف بعض ذلك إلى بعض حتى تكمل الحائط[1] وكذلك في العنب.

العاشرة — ويكفي في الخرص الواحدُ كالحاكم. فإذا كان في التمر زيادة على ما خرص لم يلزم ربُّ الحائط الإخراجُ عنه ، لأنه حكم قد نفذ؛ قاله عبد الوهاب . وكذلك إذا نقص لم تنقص الزكاة . قال الحسن : كان المسلمون يُخْرَص عليهم ثم يؤخذ منهم على ذلك الخرص .

الحادية عشرة — فإن استكثر ربّ الحائط الخرص خيّره الخارص في أن يعطيَه ما خَرَص وأخذ خرصه؛ ذكره عبد الرزاق أخبرنا ابن جُرَيج عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: خَرَص ٱبن رواحة أربعين ألف وَسْق، وزعم أن اليهود لما خيّرهم أخذوا التمر وأعطوا عشرين ألف وَسْق . قال ابن جريج فقلت لعطاء : فحقّ على الخارص إذا استكثر سيّدُ المال

(١) الحائط . البستان .

للخرّص أن يخيّره كما خيّر ابنُ رواحة اليهودَ ؟ قال : أىْ لعمرى ! وأىّ سُـنّة خيرٌ من سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة ـ ولا يكون الخرص إلا بعد الطِّيب؛ لحديث عائشة قالت : كان رسول صلى الله عليه وسلم يبعث ابن رواحة إلى اليهود فيَخْرُص عليهم النخلَ حين تطيب أوّل الثمرة قبل أن يؤكل منها، ثم يخيّر يهودًا يأخذونها بذلك الخرص أو يدفعونها إليه . وإنما كان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخرص لكى تحصى الزكاة قبل أن تؤكل الثمار وتُفَرّق . أخرجه الدّارَ قُطْنىّ من حديث ابن جريج عن الزهرىّ عن عروة عن عائشة . قال: ورواه صالح بن أبى الأخضر عن الزهرىّ عن ابن المسيِّب عن أبى هريرة ،*وأرسـله مالك ومَعْمر وعقيل عن الزهرىّ عن سعيد عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

الثالثة عشرة ـ فإذا خَرص الخارص فحكمه أن يُسقط من خرصه مقدارًا مّا ؛ لمـا رواه أبو داود والترمذىّ والبُسْتىّ فى صحيحه عن سهل بن أبى حَثْمة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يقول : " إذا خرصتم فخذوا ودَعُوا الثلث فإن لم تدعوا الثلث فدعوا الرّبع " . لفظ الترمذى . قال أبو داود : الخارص يدع الثلث للخُرْفة . وكذا قال يحيى القطّان . وقال أبو حاتم البُسْتىّ: لهـذا الخبر صفتان : أحدهمـا أن يترك الثلث أو الربع من العشر ، والثـانى أن يترك ذلك من نفس التمر قبل أن يُعشر، إذا كان ذلك حائطا كبيرا يحتمله . الخُرْفة بضم الخاء: ما يُخْتَرَف من النخل حين يُدرِك ثمره، أى يُجْتَنَى. يقال: التمر خرفةُ الصائم؛ عن الجوهرىّ والهَروىّ . والمشهور من مذهب مالك أنه لا يترك الخارِص شيئا فى حين خَرصه من تمر النخل والعنب إلا خَرصه . وقد روى بعض المدنيين أنه يخفف فى الخرص ويترك للعرايا[1] والصّلة ونحوها.

الرابعة عشرة ـ فإن لحِقت الثمرة جائحةٌ بعـد الخرص وقبل الجذاذ سقطت الزكاة عنه بإجماع من أهل العلم، إلا أن يكون فيما بقى منه خمسة أوسق فصاعدًا .

---

(١) العرايا (واحدتها عرية) وهى النخلة يعريها صاحبها رجلا محتاجا . والإعراء : أن يجعل له ثمرة عامها .

الخامسة عشرة — ولا زكاة فى اقل من خمسة أوْسُق ، كذا جاء مبيّنًا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهو فى الكتاب مُجْمَل ، قال الله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ »[1] . وقال تعالى : « وَآتُوا حَقَّهُ » . ثم وقع البيان بالعُشر ونصف العُشر . ثم لما كان المقدار الذى إذا بلغه المال أخذ منه الحق مُجملا بيّنه أيضا فقال : "ليس فيما دون خمسة أوْسق من تمر أو حب صدقة" وهو ينفى الصدقة فى الخضراوات، إذ ليست مما يُوسق؛ فمن حصل له خمسة أوْسق فى نصيبه من تمر أو حب وجبت عليه الزكاة، وكذلك من زبيب؛ وهو المسمّى بالنصاب عند العلماء. يقال: وِسْق ووَسْق (بكسر الواو وفتحها) وهو ستون صاعا، والصاع أربعة أمداد، والمد رطل وثلث بالبغدادىّ. ومبلغ الخمسة أوْسق من الأمداد ألف مدّ ومائتا مدّ، وهى بالوزن ألف رِطل وستمائة رِطل.

السادسة عشرة — ومن حصل له من تمر وزبيب معًا خمسةُ أوْسُق لم تلزمه الزكاة؛ لأنهما صنفان مختلفان . وكذلك أجمعوا على أنه لا يضاف التمر إلى البُر ولا البر إلى الزبيب؛ ولا الإبل إلى البقر، ولا البقر إلى الغنم . ويضاف الضأن إلى المَعْز بإجماع . واختلفوا فى ضم البُرّ إلى الشعير والسُّلْت وهى : —

السابعة عشرة — فأجازه مالك فى هذه الثلاثة خاصّةً فقط؛ لأنها فى معنى الصِّنف الواحد لتقاربها فى المنفعة واجتماعها فى المنبت والمحصد ، وافتراقها فى الاسم لا يوجب افتراقها فى الحكم كالجواميس والبقر والمعز والغنم . وقال الشافعىّ وغيره : لا يجمع بينها ؛ لأنها أصناف مختلفة، وصفاتها متباينة، وأسماؤها متغايرة، وطعمها مختلف ؛ وذلك يوجب افتراقها . والله أعلم . قال مالك : والقَطَانِىّ كلها صنف واحد ، يُضَمّ بعضها إلى بعض . وقال الشافعىّ : لا تُضم حبة عُرِفت باسم منفرد دون صاحبتها ، وهى خلافها مباينة فى الخلقة والطعم إلى غيرها . ويُضَمّ كل صنف بعضه إلى بعض، رَدِيئُه إلى جيّده ؛ كالتمر وأنواعه، والزبيب أسوده وأحمره، والحنطة وأنواعها من السمراء وغيرها . وهو قول الثّورِىّ

(١) آية ٢٦٧ سورة البقرة .

وأبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد وأبي ثور . وقال الليث : تُضم الحبوب كلها : القُطنية[1] وغيرها بعضها إلى بعض في الزكاة . وكان أحمد بن حنبل يَجْبُن عن ضم الذهب إلى الوَرِق، وضم الحبوب بعضها إلى بعض . ثم كان في آخر أمره يقول فيها بقول الشافعيّ .

الثامنة عشرة — قال مالك : وما استهلكه منه ربُّه بعد بَدْوِ صلاحه أو بعد ما أفْرَك حُسِب عليه، وما أعطاه ربُّه منه في حصاده وجذاذه، ومن الزيتون في التقاطه، تَحَرَّى ذلك وحُسِب عليه . وأكثر الفقهاء يخالفونه في ذلك؛ ولا يوجبون الزكاة إلا فيما حصل في يده بعد الدَّرْس . قال الليث في زكاة الحبوب : يُبدأ بها قبل النفقة، وما أكل من فريك هو وأهله فلا يحسب عليه، بمنزلة الرطب الذي يترك لأهل الحائط يأكلونه فلا يُخْرَص عليهم . وقال الشافعيّ : يترك الخارِص لربّ الحائط ما يأكله هو وأهله رطبا، لا يَخْرُصه عليهم . وما أكله وهو رطب لم يُحسب عليه . قال أبو عمر : ٱحتج الشافعيّ ومن وافقه بقول الله تعالى : « كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ » . وٱستدلّوا على أنه لا يُحتسب بالمأكول قبل الحصاد بهذه الآية . وٱحتجّوا بقوله عليه السلام : "إذا خرصتم فدعوا الثلث فإن لم تدعوا الثلث فدعوا الربع" . وما أكلت الدواب والبقر منه عند الدّرس لم يُحسب منه شيء على صاحبه عند مالك وغيره .

التاسعة عشرة — وما بيع من الفول والحِمّص والجُلبان أخضر، تُحَرّى مقدار ذلك يابسا وأخرجت زكاته حَبًّا . وكذا ما بيع من الثمر أخضر ٱعتبر وتُوُخّي وخُرِص يابسا وأخرجت زكاته على ذلك الخرص زبيبا وتمرا . وقيل : يخرج من ثمنه .

الموفية عشرين — وأما ما لا يتتمّر من ثمر النخل ولا يتزبّب من العنب كعنب مصر ونخيلها، وكذلك زيتونها الذي لا يُعصر، فقال مالك : تخرج زكاته من ثمنه، لا يكلَّف غير ذلك صاحبه، ولا يراعَى فيه بلوغ ثمنه عشرين مثقالا أو مائتي درهم، وإنما ينظر إلى ما يرى أنه يبلغه خمسة أوسق فأكثر . وقال الشافعيّ : عشره أو نصف عشره من وسطه تمرا إذا أكله أهله رطبا أو أطعموه .

(١) القطنية (بضم القاف وكسرها) : ما كان سوى الحنطة والشعير والزبيب والتمر .

الحادية والعشرون — روى أبو داود عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فيما سقت السماء والأنهار والعيون أو كان بَعْلًا العُشْر[1] . وفيما سُقى بالسَّوانى[2] أو النَّضح نصف العشر . وكذلك إن كان يشرب سَيْحا فيه العشر" وهو الماء الجارى على وجه الأرض؛ قاله ابن السِّكِّيت . ولفظ السَّيْح مذكور فى الحديث ، خرّجه النَّسائىّ . فإن كان يشرب بالسّيح لكن ربّ الأرض لايملك ماء وإنما يكتريه له فهو كالسماء،على المشهور من المذهب. ورأى أبو الحسن اللخمىّ أنه كالنضح ؛ فلو سُقِىَ مَرّة بماء السماء ومَرّة بدالية ؛ فقال مالك : يُنظر إلى ما تمّ به الزرع وحيى وكان أكثر؛ فيتعلّق الحكم عليه . هذه رواية ابن القاسم عنه . وروى عنه ابن وهب : إذا سُقى نصف سنة بالعيون ثم انقطع فسُقى بقيّة السنة بالناضح فإنّ عليه نصف زكاته عشرا ، والنصف الاخر نصف العشر . وقال مَرّة : زكاته بالذى تمت به حياته . وقال الشافعىّ : يُزَكّى كلُّ واحد منهما بحسابه . مثاله أن يشرب شهرين بالنضح وأربعة بالسماء؛ فيكون فيه ثلثا العشر لماء السماء وسدس العشر للنضح؛ وهكذا ما زاد ونقص بحسابه . وبهذا كان يُفْتِي بكّار بن قتيبة . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف : يُنظر إلى الأغلب فيزكّى ، ولا يلتفت إلى ما سوى ذلك . وروى عن الشافعىّ . قال الطحاوىّ : قد اتفق الجميع على أنه لو سقاه بماء المطر يوما أو يومين أنه لا اعتبار به ، ولا يجعل لذلك حصّة ؛ فدلّ على أن الاعتبار بالأغلب ، والله أعلم .

قلت : فهذه جملة من أحكام هذه الآية، ولعلّ غيرنا يأتى بأكثر منها على ما يفتح الله له . وقد مضى فى «البقرة»[3] جملة من معنى هذه الآية، والحمد لله .

الثانية والعشرون — وأمّا قوله صلى الله عليه وسلم : "ليس فى حب ولا تمر صدقة" لخرّجه النَّسائىّ . قال حمزة الكِنانِىّ : لم يذكر فى هذا الحديث "فى حب" غير إسماعيل بن أميّة ، وهو ثقة قرشىّ من ولد سعيد بن العاصى . قال : وهذه السنة لم يروها أحد عن

(١) البعل : هو ما ينبت من النخيل فى أرض يقرب ماؤها ، فرسخت عروقها فى الماء واستغنت عن ماء السماء والأنهار . (٢) السوانى : جمع سانية ، وهى الناقة التى يستقى عليها . (٣) راجع المسألة الرابعة جـ ٣ ص ٣٢١ طبعة أولى أو ثانيه .

النبيّ صلى الله عليه وسلم من أصحابه غير أبى سعيد الخُدْرِىّ . قال أبو عمر : هو كما قال حمزة، وهـذه سنة جليلة تلقّاها الجميع بالقبول ، ولم يروها أحد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجه ثابت محفوظ غيرُ أبى سـعيد . وقد روى جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل ذلك، ولكنه غريب، وقد وجدناه من حديث أبى هريرة بإسناد حسن .

الثالثة والعشرون ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ الإسراف فى اللغة الخطأ . وقال أعرابى أراد قوما : طلبتكم فسَرَفتكم، أى أخطأت موضعكم . وقال الشاعر :

وقال قائلهم والخيل تَخبِطهم * أسرفتم فأجبنا أننا سرف

والإسراف فى النفقة : التبذير. ومُسرف لقب مسلم بن عقبة المُرّى صاحب وقعة الحرّة؛ لأنه قد أسرف فيها . قال علىّ بن عبد الله بن العباس :

هُمُ منعوا ذِمارى يوم جاءت * كتائب مُسْرِف وبنى اللَّكيعة

والمعنى المقصود من الآية : لا تأخذوا الشىء بغـير حقه وتضعوه فى غير حقه ؛ قاله أصْبغ ابن الفرج . ونحوه قول إياس بن معـاوية : ما جاوزتَ به أمرَ الله فهو سَرَف و إسراف . وقال ابن زيد : هو خطاب للولاة، يقول : لا تأخذوا فوق حقكم وما لا يجب على الناس . والمعنيان يحتملان قوله عليه السلام : "المُعتَدى فى الصدقة كمانعها" . وقال مجاهد : لو كان أبو قُبيس ذهبا لرجل فأنفقه فى طاعة الله لم يكن مُسْرفا، ولو أنفق درهما أو مُدًّا فى معصية الله كان مسرفا . وفى هذا المعنى قيل لحاتم : لا خير فى السّرف، فقال : لا سَرَف فى الخير .

قلت : وهـذا ضعيف؛ يردّه ما رَوى ابن عباس أن ثابت بن قيس بن شَمّاس عَمَد إلى خمسمائة نخلة فجذّها ثم قسّمها فى يوم واحد ولم يترك لأهله شيئا، فنزلت « وَلَا تسرفوا » أى لا تعطوا كلّه . وروى عبد الرزاق عن ابن جريج قال : جَذّ معاذ بن جبل نخلة فلم يزل يتصدّق حتى لم يبق منه شىء؛ فنزل « ولا تسرفوا » . قال السدّى : « ولا تسرفوا » أى لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء . ورُوى عن معاوية بن أبى سفيان أنه سئل عن قوله تعالى « ولا تسرفوا » قال : الإسراف ما قصرتَ عن حقّ الله تعالى .

قلت : فعلى هذا تكون الصدقة بجميع المال ومنع إخراج حق المساكين داخلين فى حكم السّرف . والعدل خلاف هذا ؛ فيتصدق ويُبقى كما قال عليه السلام : "خير الصدقة ما كان من ظَهْرِ غِنًى"[1] إلا أن يكون قوىّ النفس غنيًّا بالله متوكّلا عليه منفردا لا عيال له ، فله أن يتصدّق بجميع ماله ، وكذلك يخرج الحق الواجب عليه من زكاة وما يَعِنّ فى بعض الأحوال من الحقوق المتعيّنة فى المال . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الإسراف ما لم يقدر على ردّه إلى الصلاح . والسَّرف ما يقدر على ردّه إلى الصلاح . وقال النَّضْر بن شُمَيل : الإسراف التبذير والإفراط ، والسرف الغفلة والجهل . قال جرير :

أعْطَوْا هُنيدةَ يحدُوها ثمانيةٌ • ما فى عطائهمُ مَنٌّ ولا سَرَفُ

أى إغفال . ويقال خطأ . ورجلٌ سَرِف الفؤاد ، أى مخطئ الفؤاد غافله . قال طَرَفة :

إنّ آمرأً سَرِفَ الفؤاد يرى • عَسَلًا بماء سحابة شَتْمِى

قوله تعالى : وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِنَ الأنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ عطف . أى وأنشأ حمولة وفرشا من الأنعام . وللعلماء فى الأنعام ثلاثة أقوال : أحدها — أن الأنعام الإبل خاصّة ؛ وسيأتى فى « النّحل » بيانه . الثانى — أن الأنعام الإبل وحدها ، وإذا كان معها بقر وغنم فهى أنعام أيضا . الثالث — وهو أصحها قاله أحمد بن يحيى : الأنعام كل ما أحله الله عز وجل من الحيوان . ويدلّ على صحة هذا قوله تعالى : « أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ »[2] وقد تقدّم . والحَمُولة ما أطاق الحَمْل والعمل ؛ عن آبن مسعود وغيره . ثم قيل : يختص اللفظ بالإبل . وقيل : كل ما آحتمل عليه الحىّ من حمار أو بغل أو بعير ؛ عن أبى زيد ، سواء كانت عليه الأحمال أو لم تكن .

---

(١) أى ما كان عفوا قد فضل من غنى . وقيل : أراد ما فضل من العيال . والظهر قد يزاد فى مثل هذا إشباعا للكلام وتمكينا ؛ كأن صدقته مستندة إلى ظهر قوى من المال (عن ابن الأثير) .

(٢) أول سورة المائدة .

قال عنترة :

ما رَاعني إلا حَمولةُ أهلِها * وسْط الدِّيار تَسَفُّ حَبَّ الخِمْخِم(1)

وفعولة بفتح الفاء إذا كانت بمعنى الفاعل ٱستوى فيها المؤنث والمذكر ؛ نحو قولك : رجل فروقة وٱمرأة فَروقة للجبان والخائف . ورجل صرورة وٱمرأة صرورة إذا لم يحجّا ؛ ولا جمع له . فإذا كانت بمعنى المفعول فرق بين المذكر والمؤنث بالهاء كالحَلوبة والرَّكوبة . والحُمولة (بضم الحاء) : الأحمال . وأما الحُمول (بالضم بلا هاء) فهى الإبل التى عليها الهوادج ، كان فيها نساء أو لم يكن ؛ عن أبى زيد . و « فَرْشًا » قال الضحاك : الحمولة من الإبل والبقر . والفرش : الغنم . النحاس : وٱستشهد لصاحب هذا القول بقوله « ثمانيةَ أزواج » قال : فثمانية بدل من قوله « حمولة وفرشا » . وقال الحسن : الحمولة الإبل . والفرش : الغنم . وقال ٱبن عباس : الحمولة كل ما حَمل من الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير . والفَرْش : الغنم . وقال ٱبن زيد : الحمولة ما يركب ، والفرش ما يؤكل لحمه ويحلب ؛ مثل الغنم والفِصلان والعجاجيل ؛ سُمّيت فرْشا للطافة أجسامها وقربها من الفرش ، وهى الأرض المستوية التى يتوطأها الناس . قال الراجز :

أورثنى حمولة وفرشا * أَمُشُّها فى كلّ يوم مَشّا(2)

وقال آخر :

وحَوَيْنا الفَرْش من أنعامكم * والحَمولات ورَبّات الحَجَل

قال الأصمعى : لم أسمع له بجمع . قال : ويحتمل أن يكون مصدرا سُمّىَ به ؛ من قولهم : فرشها الله فرشا ، أى بثّها بثًّا . والفَرْش : المفروش من متاع البيت . والفَرْش : الزرع إذا فرش . والفرش : الفضاء الواسع . والفَرْش فى رجل البعير : ٱتساع قليل ، وهو محمود . وٱفترش الشىءُ ٱنبسط ؛ فهو لفظ مشترك . وقد يرجع قوله تعالى : « وَفَرْشًا » إلى هذا . قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فيهما أن الحمولة المسخرة المذلّلة للحمل . والفَرْش ما خلقه الله عز وجل من الجلود والصوف مما يُجلس عليه ويُتمهّد . وباقى الآية قد تقدّم .

(1) الخمخم (بكسر الخاء المهملة ويقال بالحاء) : نبات تعلفه الإبل . (2) مش الناقة يمشها مشا : حلبها .

قوله تعالى : ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ « ثمانية » منصوب بفعل مضمر، أى وأنشأ ثمانيــة أزواج ؛ عن الكسائي . وقال الأخفش سعيد : هو منصوب على البدل من حمولة وفرش . وقال الأخفش علىّ بن سليمان : يكون منصوبا بـ « كلوا » ؛ أى كلوا لحم ثمانية أزواج . ويجوز أن يكون منصوبا على البدل من « ما » على الموضع . ويجوز أن يكون منصوبا بمعنى كلوا المباح ثمانية أزواج من الضأن آثنين . ونزلت الآية فى مالك بن عَوْف وأصحابه حيث قالوا : « مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ الْأَنعامِ خَالِصَـةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا » فنبّه الله عز وجل نبيّه والمؤمنين بهذه الآية على ما أحلّه لهم ؛ لئلا يكونوا بمنزلة من حرّم ما أحله الله تعالى . والزوج خلاف الفَرد ؛ يقال : زَوْج أو فَرْد . كما يقال : خَسًا أو زَكًا ، شَفْع أو وتر . فقــوله « ثمانية ازواج » يعنى ثمانية أفراد ، وكل فَرد عند العرب يحتاج إلى آخر يُسمّى زوجا ، فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج . ويقع لفظ الزوج للواحد وللاثنين ؛ يقال : هما زوجان ، وهما زوج ؛ كما يقال . هما سِيّان وهما سواء . وتقول : آشتريت زَوْجَى حمام . وأنت تعنى ذكرا وأنثى .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ مِنَ الضَّأْنِ آثْنَيْنِ ﴾ أى الذكر والأنثى . والضأن : ذوات الصوف من الغنم ، وهى جمع ضائن . والأنثى ضائنــة ، والجمع ضوائن . وقيل : هو جمع لا واحد له . وقيل فى جمعه : ضَئِين ؛ كعبد وعبيد . ويقال فيه : ضِئِين ؛ كما يقال فى شَعير شِعير

كسرت الضاد آتباعا . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « من الضأن آثنين » بفتح الهمزة ، وهى لغة مسموعة عنـد البصريين . وهو مطّرد عند الكوفيين فى كل ما ثانيـه حرفُ حلق . وكذلك الفتح والإسكان فى المعـز . وقرأ أبَان بن عثمان « منَ الضَّأن آثْنَانِ ومن المعز آثنـان » رفعا بالآبتـداء . وفى حرف أُبَىٍّ . « وَمنَ المَعْز آثنـان » وهى قراءة الأكثر . وقرأ آبن عامر وأبو عمرو بالفتح . قال النحاس : الأكثر فى كلام العرب المَعْز والضَّأن بالإسكان . ويدل على هذا قولهم فى الجمع : مَعيز ؛ فهذا جمع مَعْز . كما يقال عبد وعبيد . قال آمرؤ القيس :

ويَمْنَحُهَا بنو شَمَجَى بن جَرْم ٭ مَعِـيزَهُمُ حَنَانَك ذا الحَنان

ومثـله ضَأن وضَئِين . والمَعْـز من الغنـم خلاف الضأن ، وهى ذوات الأشـعار والأذناب القِصار ، وهو آسم جنس ، وكذلك المَعَز والمَعِيز والأُمْعُوز والمِعزى . وواحد المَعْز ماعز ؛ مثل صاحب وصَحْب وتاجر وتَجْر . والأنثى ماعزة وهى العنز ، والجمع مواعز . وأمعز القومُ كثرت معزاهم . والمَعّاز صاحب المِعزى . قال أبو محمـد الفَقْعَسِىّ يصف إبلا بكثرة اللّبن ويفضّلها على الغنم فى شـدة الزمان :

يكُلْنَ كَيْلًا ليس بالمَمْحُـوقِ ٭ إذ رَضِىَ المَعّـاز باللعُـوقِ

والمَعَز الصـلابة من الأرض . والأمْعـز : المكان الصُّلب الكثير الحصى ؛ والمَعْزاء أيضا . وآستمعز الرجل فى أمره : جَدّ . ﴿ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ ﴾ منصوب بـ « حَرّم » . ﴿ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾ عطف عليه . وكذا ﴿ أَمَّا آشْتَمَلَتْ ﴾ . ووردت مع ألف الوصـل مدّة للفرق بين الآسـتفهام والخبر . ويجوز حذف الهمزة لأن « أم » تدل على الآستفهام . كما قال :

٭ تَرُوحُ مِن الحَىِّ أم تَبْتَكِرْ ٭

الثالثــة ــ قال العلمـاء : الآية آحتجاج على المشركين فى أمر البَحِيرة وما ذُكر معها . وقولهم : « مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومُحَرَّم على أزواجنا » . فدلّت على إثبات المناظرة فى العلم ؛ لأن الله تعالى أمر نبيّه عليه السلام بأن يناظرهم ، ويبيّن لهم فساد قولهم . وفيها إثبات القول بالنظر والقياس . وفيها دليل بأن القياس إذا ورد عليه النص بطل القول به .

ويروى « إذا ورد عليه النقض » ؛ لأن الله تعالى أمرهم بالمقايسة الصحيحة ، وأمرهم بطرد علتهم . والمعنى : قل لهم إن كان حرّم الذكور فكل ذكر حرام . وإن كان حرّم الإناث فكل أنثى حرام . وإن كان حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، يعنى من الضأن والمعز ، فكل مولود حرام ، ذكرا كان أو أنثى . وكلها مولود فكلها إذًا حرام لوجود العلة فيها ، فبيّن انتقاض علتهم وفساد قولهم ؛ فأعلم الله سبحانه أن ما فعلوه من ذلك افتراء عليه . ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ ﴾ أى بعلم إن كان عندكم ، من أين هـذا التحريمُ الذى افتعلتموه ؟ ولا علم عندهم ، لأنهم لا يقرءون الكتب . والقول فى : ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ ﴾ وما بعده كما سبق . ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ ﴾ أى شاهدتم الله قد حرّم هذا . ولمّا لزمتهم الحجة أخذوا فى الافتراء فقالوا : كذا أمر الله . فقال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بيّن أنهم كذبوا؛ إذ قالوا بما لم يدل عليه دليل .

قوله تعالى : قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ أعلم الله عز وجل فى هذه الآية بما حرّم . والمعنى : قل يا محمد لا أجد فيما أوحى إلىّ محرما إلا هذه الأشياء ، لا ما تحرّمونه بشهوتكم . والآية مكية . ولم يكن فى الشريعة فى ذلك الوقت محرّم غير هذه الأشياء ، ثم نزلت سورة « المائدة » بالمدينة . وزيد فى المحرمات كالمُنْخَنِقَة والمَوْقُوذة[1] والمُتَرَدِّيَة والنَّطيحة والخمر وغير ذلك . وحرّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أكلَ كلِّ ذى ناب من السباع وكلِّ ذى مخلب من الطير .

---

(١) الموقوذة : الشاة المضروبة حتى تموت ولم تُذكَّ . والمتردية : التى تقع من جبل ، أو تطيح فى بئر ، أو تسقط من موضع مشرف فتموت .

وقد اختلف العلماء فى حكم هذه الاية وتأويلها على أقوال : الأول ـ ما أشرنا إليه من أن هذه الآية مكية ، وكل محرم حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أوجاء فى الكتاب مضموم إليها؛ فهو زيادة حكم من الله عز وجل على لسان نبيّه عليه السلام . على هذا أكثر أهل العلم من النظر، وأهل الفقه والأثر . ونظيره نكاح المرأة على عمتها وعلى خالتها مع قوله : «وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ»[1] وكحكمه باليمين مع الشاهد مع قوله : «فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ»[2] وقد تقدّم . وقد قيل : إنها منسوخة بقوله عليه السلام : "أكل كل ذى ناب من السباع حرام" أخرجه مالك ، وهو حديث صحيح . وقيل: الآية محكمة ولا يحرم إلا ما فيها، وهو قول يُرْوَى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة، ورُوى عنهم خلافه . قال مالك ، لا حرام بيِّنٌ إلا ما ذُكر فى هذه الآية . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : تضمّنت هذه الآية تحليلَ كلِّ شىء من الحيوان وغيره إلا ما استثنى فى الآية من الميتة والدّم المسفوح ولحم الخنزير . ولهذا قلنا : إنّ لحوم السباع وسائر الحيوان ما سوى الإنسان والخنزير مباح . وقال الكِيَا الطبرىّ : وعليها بنى الشافعىّ تحليلَ كلّ مسكوت عنه؛ أخذًا من هذه الآية، إلا مادلّ عليه الدليل . وقيل : إن الآية جواب لمن سأل عن شىء بعينه فوقع الجواب مخصوصا . وهذا مذهب الشافعىّ . وقد روى الشافعىّ عن سعيد بن جُبير أنه قال : فى هذه الآية أشياء سألوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابهم عن المحرمات من تلك الأشياء . وقيل : أى لا أجد فيما أوحى إلىّ أى فى هذه الحال حال الوحى ووقت نزوله ، ثم لا يمتنع حدوث وحى بعد ذلك بتحريم أشياء أخر . وزعم ابن العربى أن هذه الآية مدنية، مكّيه فى قول الأكثر، نزلت على النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم نزل عليه « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ »[3] ولم ينزل بعدها ناسخ فهى مُحكمة، فلا مُحرّم إلا ما فيها، وإليه أميل .

قلت : وهذا ما رأيته قاله غيره . وقد ذكر أبو عمر بن عبد البر الإجماعَ فى أن سورة «الأنعام» مكية إلا قوله تعالى : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ »[4] الثلاث الآيات، وقد

(1) آية ٢٤ سورة النساء . (2) آية ٢٨٢ سورة البقرة . (3) آية ٣ سورة المائدة .
(4) آية ١٥١ وما بعدها .

نزل بعدها قرآن كثير وسُنن جّمة . فنزل تحريم الخمر بالمدينة فى « المائدة » . وأجمعوا على أن نهيه عليه السلام عن أكل كل ذى ناب من السباع إنما كان منه بالمدينة . قال إسماعيل ابن إسحاق : وهذا كله يدل على أنه أمرٌ كان بالمدينة بعد نزول قوله : «قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ » لأن ذلك مكّيّ .

قلت : وهذا هو مَثار الخلاف بين العلماء . فعدل جماعة عن ظاهر الأحاديث الواردة بالنهى عن أكل كل ذى ناب من السباع؛ لأنها متأخرة عنها والحصر فيها ظاهر فالأخذ بها أولى؛ لأنها إما ناسخة لما تقدّمها أو راجحة على تلك الأحاديث . وأما القائلون بالتحريم فظهر لهم وثبت عندهم أن سورة « الأنعام » مكية؛ نزلت قبل الهجرة ، وأن هذه الآية قصد بها الرّد على الجاهلية فى تحريم البحيرة والسائبة والوَصيلة والحامى، ثم بعد ذلك حرّم أمورا كثيرة كالحُمُر الإنسية ولحوم البغال وغيرهما ، وكل ذى ناب من السباع وكلّ ذى مِخْلب من الطير . قال أبو عمر : ويلزم على قول من قال « لا محرم إلا ما فيها » ألا يحرم مالم يذكر اسم الله عليه عمدا ، وتُستحلّ الخمر المحرّمة عند جماعة المسلمين . وفى إجماع المسلمين على تحريم خمر العنب دليل واضح على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وجد فيما أُوحىَ إليه محرما غيرما فى سورة « الأنعام » مما قد نزل بعدها من القرآن . وقد اختلفت الرواية عن مالك فى لحوم السباع والحمر والبغال فقال : هى محرّمة؛ لما ورد من نهيه عليه السلام عن ذلك ، وهو الصحيح من قوله على ما فى الموطأ . وقال مرّة : هى مكروهة ، وهو ظاهر المدّونة ؛ لظاهر الآية؛ ولما روى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة من إباحة أكلها ، وهو قول الأوزاعىّ . روى البخارىّ من رواية عمرو بن دينار قال : قلت لجابر بن زيد إنهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية ؟ فقال: قد كان يقول ذلك الحكَم بن عمرو الغِفارىّ عندنا بالبصرة؛ ولكن أبَى ذلك البحرُ ابن عباس، وقرأ «قُلْ لا أجِدُ فيما أُوحِىَ إلىّ محرّما» . وروى عن ابن عمر أنه سئل عن لحوم السباع فقال : لابأس بها . فقيل له : حديث أبى ثعلبة الخُشَنىّ[1] .

(١) حديث أبى ثعلبة : أنه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أكل كل ذى ناب من السباع حرام » .

فقال : لاتدع كتابَ الله ربَّنا لحديث أعرابيّ يبول على ساقيه . وسئل الشّعبيّ عن لحم الفيل والأسد فتلا هـذه الآية . وقال القاسم : كانت عائشة تقول لمـا سمعت الناس يقولون حُرِّم كل ذى ناب من السباع : ذلك حلال، وتتلو هذه الآية «قل لا أجد فيما أوحىَ إلىّ محرّما» ثم قالت : أنْ كانت البُرْمة ليكون ماؤها أصفر من الدم ثم يراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يحرمها . والصحيح فى هـذا الباب ما بدأنا بذكره ، وأن ما ورد من المحرمات بعد الآية مضموم إليها معطوف عليها . وقد أشار القاضى أبو بكر بن العربيّ إلى هذا فى قبسه خلاف ما ذكر فى أحكامه قال : روى عن ابن عباس أن هذه الآية من آخر ما نزل ؛ فقال البغداديون من أصحابنا : إنّ كل ما عداها حلال ، لكنه يكره أكل السباع . وعند فقهاء الأمصار منهم مالك والشافعيّ وأبو حنيفة وعبد الملك أن أكل كل ذى ناب من السباع حرام ، وليس يمتنع أن تقع الزيادة بعد قوله «قل لا أجد فيما أوحىَ إلىّ محرما » بما يَرِد من الدليل فيها ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليـه وسلم : "لا يحلّ دم آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث" فذكر الكفر والزنا والقتل . ثم قال علمـاؤنا : إن أسـباب القتل عشرة بمـا ورد من الأدلة ، إذ النبيّ صلى الله عليه وسلم إنمـا يخبر بما وصل إليه من العلم عن البارى تعالى ؛ وهو يَمْحو ما يشاء ويُثبت ويَنْسَخ ويقدّر . وقد ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أكل كل ذى ناب من السباع حرام" وقد رُوى أنه نهى عن أكل كل ذى ناب من السباع وذى مخلب من الطير. وروى مسلم عن مَعْن عن مالك «نُهِىَ عن أكل كل ذى مخلب من الطير» . والأول أصح . وتحريم كل ذى ناب من السباع هو صريح المذهب . وبه ترجم مالك فى الموطأ حين قال : تحريم أكل كل ذى ناب من السـباع . ثم ذكر الحديث وعقبه بعـد ذلك بأن قال : وهو الأمر عندنا . فأخبر أن العمل اطرد مع الأثر . قال القشيريّ : فقول مالك « هـذه الآية من أواخر ما نزل » لا يمنعنا من أن نقول : ثبت تحريم بعض هذه الأشياء بعد هذه الآية ، وقد أحل الله الطيبات وحرم الخبائث ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع وعن أكل كل ذى مِخْلب من الطير ، ونهى عن لحوم الحمر الأهلية

عام خَيبر . والذى يدل على صحة هـذا التأويل الإجماعُ على تحريم العَذِرة والبَوْل والحشرات المستقْذرة والخُمر مما ليس مذكورا فى هذه الاية .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿مُحَرَّمًا﴾ قال ابن عطية : لفظة التحريم إذا وردت على لسان رسول الله صلى الله عليــه وسلم فإنها صالحـة أن تنتهى بالشيء المذكور غاية الحَظْر والمنع ، وصالحةٌ بحسب اللغة أن تقف دون الغاية فى حيّز الكراهة ونحوها ؛ فما اقترنت به قرينة التسليم من الصحابة المتأولين وأجمع الكل منهم ولم تضطرب فيه ألفاظ الأحاديث وجب بالشرع أن يكون تحريمه قد وصل الغاية من الحظر والمنع ، ولحق بالخنزير والميتة والدّم ، وهذه صفة تحريم الخمر . وما اقترنت به قرينة اضطراب ألفـاظ الأحاديث واختلفت الأئمـة فيه مع علمهم بالأحاديث كقوله عليه السلام : "أكْلُ كل ذى ناب من السباع حرام". وقد ورد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع ، ثم اختلفت الصحابة ومن بعدهم فى تحريم ذلك . فجاز لهذه الوجوه لمن ينظر أن يحمل لفظ التحريم على المنع الذى هو الكراهة ونحوها . وما اقترنت به قرينة التأويل كتحريمه عليه السلام لحوم الحمر الإنسيّة فتأول بعض الصحابة الحاضرين ذلك لأنها نَجَسٌ . وتأول بعضهم ذلك لئـلا تفنى حَمولة الناس . وتأول بعضهم التحريم المحض . وثبت فى الأمة الاختلاف فى تحريم لحمها ؛ فجائز لمن ينظر من العلماء أن يحمل لفظ التحريم بحسب اجتهاده وقياسه على كراهته أو نحوها .

قلت : وهـذا عقد حسَن فى الباب وفى سبب الخلاف على ما تقدم . وقد قيل : إن الحمار لا يؤكل ، لأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نَزَا على ذكر وتلوّط ؛ فسـمّى رجسا . قال محمد بن سـيرين : ليس شيء من الدواب يعمل عمـل قوم لوط إلا الخـنزير والحمار ؛ ذكره الترمذى فى نوادر الأصول .

الثالثـــة — روى عمرو بن دينار عن أبى الشّعثاء عن ابن عباس قال كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء ، فبعث الله نبيّه عليه السلام وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرّم حرامه ؛ فما أحلّ فهو حلال وما حرّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عَفْوٌ ، وتلا هذه الاية ﴿قُلْ لَا أَجِدُ

الآية . يعنى ما لم يبيّن تحريمه فهو مباح بظاهر هذه الاية . وروى الزُّهريّ عن عبيد الله بن عبد الله عن عبد الله بن عباس أنه قرأ «قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما» قال : إنما حرّم من الميتة أكلها، ما يؤكل منها وهو اللحم؛ فأما الجلد والعظم والصوف والشعر فحلال . وروى أبو داود عن مِلْقام بن تَلِب عن أبيه قال : صحبت النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم أسمع لحشرة الأرض تحريما . الحشرة : صغار دوابّ الأرض؛ كاليرابيع والضِّباب والقنافذ ونحوها؛ قال الشاعر :

أكلنا الرُّبَى يا أمّ عمرو ومن يكن * غريبا لديكم يأكل الحشرات

أى ما دبّ ودَرج . والرُّبَى جمع رُبْيَة وهى الفأرة . قال الخطّابيّ : وليس فى قوله « لم أسمع لها تحريما» دليلٌ على أنها مباحة ؛ لجواز أن يكون غيره قد سمعه . وقد اختلف الناس فى اليَرْبوع والوَبْر[(١)] والجمع وِبار ونحوهما من الحشرات؛ فرخّص فى اليربوع عروةُ وعطاء والشافعيّ وأبو ثور . قال الشافعيّ : لا بأس بالوَبْر . وكرهه ابن سيرين والحَكَم وحمّاد وأصحابُ الرأى . وكره أصحاب الرأى القنفذ . وسئل عنه مالك بن أنس فقال : لا أدرى . وحكى أبو عمر : وقال مالك لا بأس بأكل القنفذ . وكان أبو ثَوْر لا يرى به بأسا؛ وحكاه عن الشافعيّ . وسئل عنه ابن عمر فتلا « قُل لا أجِدُ فيما أوحىَ إلىّ محرّمًا » الاية؛ فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذُكر عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " خبيثةٌ من الخبائث " . فقال ابن عمر : إن كان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا فهو كما قال . ذكره أبو داود . وقال مالك : لا بأس بأكل الضّب واليربوع والوَرَل[(٢)] . وجائز عنده أكل الحيات إذا ذُكّيت؛ وهو قول ابن أبى ليلى والأوزاعيّ . وكذلك الأفاعى والعقارب والفار والعظاية[(٣)] والقنفذ والضفدع . وقال ابن القاسم : ولا بأس بأكل خشاش الأرض وعقاربها ودودها فى قول مالك؛ لأنه قال : موته فى الماء لا يفسده . وقال مالك : لا بأس بأكل فراخ النحل ودود الجبن والتمر ونحوه .

(١) الوبر (بالتسكين) : دويبة على قدر السنور غبراء أو بيضاء من دواب الصحراء حسنة العينين شديدة الحياء تكون بالغور . (٢) الورل : دابة على خلقة الضب إلا أنه أعظم منه ، يكون فى الرمال والصحارى .

(٣) العظاية : دويبة كسام أبرص .

والحجة له حديث مِلْقام بن تَلِب، وقول ابن عباس وأبي الدرداء : ما أحلّ الله فهو حلال وما حرّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عَفْوٌ. وقالت عائشة في الفارة : ما هي بحرام، وقرأت « قل لا أجد فيما أوحِيَ إليّ محرما ». ومن علماء أهل المدينة جماعةٌ لا يجيزون أكل شيء من خِشاش الأرض وهَوَامِّها؛ مثل الحيات والأوزاغ والفار وما أشبهه. وكل ما يجوز قتله فلا يجوز عند هؤلاء أكله، ولا تعمل الذكاة عندهم فيه. وهو قول ابن شهاب وعُروة والشافعيّ وأبي حنيفة وأصحابه وغيرهم. ولا يؤكل عند مالك وأصحابه شيء من سباع الوحش كلّها، ولا الهِرّ الأهلي ولا الوحشي لأنه سَبُع. وقال : ولا يؤكل الضبع ولا الثعلب، ولا بأس بأكل سباع الطير كلها : الرَّخَم والنُّسور والعِقبان وغيرها، ما أكل الجِيَف منها وما لم يأكل. وقال الأوزاعيّ : الطير كله حلال، إلا أنهم يكرهون الرَّخَم. وحجة مالك أنه لم يجد أحدا من أهل العلم يكره أكل سباع الطير، وأنكر الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "أنه نهى عن أكل كل ذي مِخْلَب من الطير". وروى عن أشهب أنه قال : لا بأس بأكل الفيل إذا ذُكِّى، وهو قول الشَّعْبيّ؛ ومنع منه الشافعيّ. وكره النعمان وأصحابُه أكل الضَّبُع والثعلب. ورخّص في ذلك الشافعيّ؛ وروى عن سعد بن أبي وقّاص أنه كان يأكل الضِّباع. وحجة مالكٍ عُموم النّهي عن أكل كل ذي ناب من السباع، ولم يخص سَبُعا من سَبُع. وليس حديث الضّبع الذي خرّجه النّسائيّ في إباحة أكلها مما يعارض به حديث النهي؛ لأنه حديث انفرد به عبد الرحمن بن أبي عمّار، وليس مشهورا بنقل العلم، ولا ممن يحتج به إذا خالفه من هو أثبت منه. قال أبو عمر: وقد رُوى النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع من طرق مُتواترة. روى ذلك جماعةٌ من الأئمة الثقات الأثبات، ومُحالٌ أن يعارَضوا بمثل حديث ابن أبي عمار. قال أبو عمر : اجمع المسلمون على أنه لا يجوز أكل القِرد لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكله، ولا يجوز بيعه لأنه لا منفعة فيه. قال : وما علمت أحدا رخّص في أكله إلا ما ذكره عبد الرزاق عن معمر عن أيوب. سئل مجاهد عن أكل القرد فقال : ليس من بهيمة الأنعام.

قلت : ذكر ابن المنذر أنه قال : روينا عن عطاء أنه سئل عن القرد يُقتل في الحَرَم فقال : يحكم به ذوا عَدْل. قال : فعلى مذهب عطاء يجوز أكل لحمه؛ لأن الجزاء لا يجب على

من قتل غير الصيد . وفى (بحر المذهب) للرويانى على مذهب الإمام الشافعى : وقال الشافعى يجوز بيع القرد لأنه يعلّم وينتفع به لحفظ المتاع . وحكى الكشفلى عن ابن شريح يجوز بيعه لأنه ينتفع به . فقيل : وما وجه الانتفاع به ؟ قال : تفرح به الصبيان . قال أبو عمر : والكلب والفيل وذو الناب كله عندى مثل القرد . والحجة فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا فى قول غيره . وقد زعم ناس أنه لم يكن فى العرب من يأكل لحم الكلب إلا قوم من فقعس . وروى أبو داود عن ابن عمر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل الجلّالة وألبانها . فى رواية عن الجلّالة فى الإبل أن يركب عليها أو يشرب من ألبانها . قال الحليمى أبو عبد الله : فأما الجلّالة فهى التى تأكل العذرة من الدواب والدجاج المخلّاة . ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن لحومها . وقال العلماء : كل ما ظهر منها ريح العذرة فى لحمه أو طعمه فهو حرام، وما لم يظهر فهو حلال . وقال الخطابى : هذا نهى تنزّه وتنظّف، وذلك أنها إذا اغتذت الجلّة وهى العذرة وجد نتن رائحتها فى لحومها، وهذا إذا كان غالب علفها منها ؛ فأما إذا رعت الكلأ واعتلفت الحب وكانت تنال مع ذلك شيئا من الجلة فليست بجلّالة ، وإنما هى كالدجاج المخلّاة، ونحوها من الحيوان الذى ربما نال الشىء منها وغالب غذائه وعلفه من غيره فلا يكره أكلها . وقال أصحاب الرأى والشافعى وأحمد : لا تؤكل حتى تحبس أياما وتعلف علفا غيرها ؛ فإذا طاب لحمها أكلت . وقد روى فى حديث أن البقر تعلف أربعين يوما ثم يؤكل لحمها . وكان ابن عمر يحبس الدجاج ثلاثا ثم يذبح . وقال إسحاق : لا بأس بأكلها بعد أن يغسل لحمها غسلا جيدا . وكان الحسن لا يرى بأسا بأكل لحم الجلّالة ؛ وكذلك مالك بن أنس . ومن هذا الباب نهى ان تلقى فى الأرض العذرة . روى عن بعضهم قال : كنا نكرى أرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشترط على من يكريها ألا يلقى فيها العذرة . وعن ابن عمر أنه كان يكرى أرضه ويشترط ألا تدمن (1) بالعذرة . وروى أن رجلا كان يزرع أرضه بالعذرة فقال له عمر : أنت الذى تطعم الناس ما يخرج منهم . واختلفوا فى أكل

---

(1) دمن الأرض (من باب نصر) : أصلحها بالسرجين.

الخيل ؛ فأباحها الشافعيّ ، وهو الصحيح ، وكرهها مالك . وأما البغـل فهو متولّد من بين الحمار والفرس، وأحدهما مأكول أو مكروه وهو الفرس، والآخر محرّم وهو الحمار؛ فغلّب حكم التحريم؛ لأن التحليل والتحريم إذا اجتمعا في عين واحدة غُلّب حكم التحريم . وسيأتي بيان هذه المسألة في «النحل» إن شاء الله بأوعب من هذا. وسيأتي حكم الجراد في «الأعراف»[1][2]. والجمهور من الخلف والسلف على جواز أكل الأرنب . وقد حكى عن عبد الله بن عمرو بن العاص تحريمه . وعن ابن أبي ليلى كراهته . قال عبد الله بن عمرو : جيء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جالس فلم يأكلها ولم ينْه عن أكلها، وزعم أنها تحيض. ذكره أبو داود. وروى النسائي مُرْسلا عن موسى بن طلحة قال : أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم بأرنب قد شواها رجل وقال : يا رسول الله ، إني رأيت بها دما ؛ فتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يأكلها، وقال لمن عنـده : "كُلُوا فإني لو آشتهيتها أكلتها" .

قلت : وليس في هذا ما يدل على تحريمـه، وإنما هو نحوٌ من قوله عليه السلام : "إنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه" . وقد روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال : مررنا فاستنفجنا[3] أرنباً بمرّ الظهران فسعَوْا عليه فلغبوا[4]. قال: فسعيت حتى أدركتها، فأتيت بها أبا طلحة فذبحها، فبعث بوركها وفخذيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبِله .

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ أي آكلٍ يأكله . وروى عن ابن عامر أنه قـرأ «أوحى» بفتح الهمزة . وقرأ عليّ بن أبي طالب «يطّعمه» مثقل الطاء، أراد يتطعمه فأدغم . وقرأت عائشة ومحمد بن الحنفية «على طاعم طعمه» بفعل ماض . ﴿ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ قرئ بالياء والتاء ؛ أي إلا أن تكون العين أو الجثـة أو النفس ميتةً . وقرئ «يكون» بالياء «ميتة» بالرفع بمعنى تقع وتحدث ميتةٌ . والمسفوح : الجاري الذي يسيل

(١) في قوله تعالى : «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ...» آية ٨ (٢) آية ١٣٣ .
(٣) قال النووي : معنى استنفجنا : أثرنا ونفرنا . ومر الظهران (بفتح الميم والظاء) : موضع قريب من مكة .
(٤) فلغبوا : أي أعيوا وعجزوا عن أخذها .

وهو المحرم . وغيره معفوٌّ عنه . وحكى الماوردى أن الدم غير المسفوح انه إن كان ذا عروق يجمد عليها كالكبد والطحال فهو حلال ؛ لقوله عليه السلام : " أحلّت لنا ميتتان ودمان " الحديث . وإن كان غير ذى عروق يجمد عليها، وإنما هو مع اللحم ففى تحريمه قولان: أحدهما أنه حرام؛ لأنه من جملة المسفوح أو بعضه . وإنما ذكر المسفوح لأستثناء الكبد والطحال منه . والثانى أنه لا يحرم؛ لتخصيص التحريم بالمسفوح .

قلت : وهو الصحيح . قال عمران بن حُدَير: سألت أبا مِجْلَز عما يتلطخ من اللحم بالدم، وعن القِدر تعلوها الحمرة من الدّم فقال : لا بأس به ، إنما حرّم الله المسفوح . وقالت نحوه عائشة وغيرُها، وعليه إجماع العلماء . وقال عكرمة : لولا هذه الآية لأتبع المسلمون من العروق ما تتبع اليهود . وقال إبراهيم النَّخَعِىّ : لا بأس بالدم فى عرق أو مخ . وقد تقدّم هذا وحكم المضطر فى «البقرة»[1] .

قوله تعالى : وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَا أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (١٤٦)

فيه ست مسائل :

الأولى – قوله تعالى : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ لما ذكر الله عز وجل ما حرّم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم عقّب ذلك بذكر ما حرّم على اليهود؛ لما فى ذلك من تكذيبهم فى قولهم : إن الله لم يحرّم علينا شيئا، وإنما نحن حرّمنا على أنفسنا ما حرّمه إسرائيل على نفسه . وقد تقدّم فى « البقرة » معنى « هادوا »[2] . وهذا التحريم على الذين هادوا إنما هو تكليف بَلْوَى وعقوبة . فأوّل ما ذكر من المحرّمات عليهم كلّ ذى ظُفر . وقرأ الحسن «ظُفْر» بإسكان الفاء. وقرأ أبو السَّمّال «ظِفْر» بكسر الظاء وإسكان الفاء. وأنكر أبو حاتم كسر

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢١٦ وما بعدها . طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٤٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

الظاء وإسكان الفاء، ولم يذكر هذه القراءة وهي لغة . « وظِفِر » بكسرهما . والجمع اظفار وأظفور وأظافير؛ قاله الجوهري . وزاد النحاس من الفراء أظافر وأظافرة[1] ؛ قال ابن السكيت : يقال رجل أظفر بين الظَّفَر إذا كان طويل الأظفار؛ كما يقال : رجل أشعر للطويل الشعر . قال مجاهد وقتادة : « ذي ظفر » ما ليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطير، مثل الإبل والنعام والإوز والبط . وقال ابن زيد: الإبل فقط . وقال ابن عباس : «ذي ظفر» البعير والنعامة ؛ لأن النعامة ذات ظفر كالإبل . وقيل : يعني كل ذي مِخْلَب من الطير وذي حافر من الدواب . ويُسمى الحافر ظفرا استعارة . وقال الترمذي الحكيم : الحافر ظفر، والمخلب ظفر؛ إلا أن هذا على قدره وذاك على قدره، وليس ههنا استعارة؛ ألا ترى أن كليهما يُقَص ويؤخذ منهما وكلاهما جنس واحد، عظم لين رِخْو. أصله من غذاء ينبت فيُقَصّ مثل ظفر الإنسان ، وإنما سُمّي حافرا لأنه يحفر الأرض بوقعه عليها. وسُمّي مِخْلَبا لأنه يخلب الطير برءوس تلك الإبر منها. وسُمّي ظفرا لأنه يأخذ الأشياء بظفره؛ أي يظفر به الآدمي والطير .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ قال قتادة : يعني الثُّرُوب وشحم الكُلْيَتين؛ قاله السُّدي . والثُّرُوب جمع الثَّرْب، وهو الشحم الرقيق الذي يكون على الكَرِش . قال ابن جُرَيج : حرّم عليهم كلّ شحم غير مختلط بعظم أو على عظم، وأحلّ لهم شحم الجنب والألية؛ لأنه على العُصْعُص .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ «ما» في موضع نصب على الاستثناء. «ظُهُورُهُمَا» رفع بـ«حملت» . ﴿ أَوِ ٱلْحَوَايَا ﴾ في موضع رفع عطفٌ على الظهور؛ أي أو حملت حواياهما ، والألف واللام بدل من الإضافة . وعلى هذا تكون الحوايا من جملة ما أحلّ . ﴿ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ «ما» في موضع نصب عطف على «ما حملت» أيضا . هذا أصح ما قيل فيه . وهو قول الكسائي والفراء وأحمد بن يحيى . والنظر يوجب أن يعطف الشيء على

(١) في نسخ الأصل : « ... أظافير وأظافرة ؛ مثل ضاربة وضوارب ... » . فقوله : مثل ضاربة وضوارب زيادة من النساخ .

ما يليه، إلا ألّا يصح معناه أو يدل دليل على غير ذلك . وقيل : إن الاستثناء في التحليل إنما هو ما حملت الظهور خاصّة، وقوله «أو الحوايا أو ما اختلط بعظم» معطوف على المحرم . والمعنى : حرمت عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم؛ إلا ما حملت الظهور فإنه غير محرّم . وقد احتج الشافعي بهذه الآية في أن من حلف ألا يأكل الشحم حنث بأكل شحم الظهور؛ لاستثناء الله عز وجل ما على ظهورهما من جملة الشحم .

الرابعــة ـ قوله تعالى : ﴿ أَوِ الْحَوَايَا ﴾ الحوايا : المباعر؛ عن ابن عباس وغيره . وهو جمع مَبْعَر؛ سمى بذلك لاجتماع البَعْر فيه . وهو الزبل . وواحد الحوايا حاوياء؛ مثل قاصعاء وقواصع . وقيل : حاوية مثل ضاربة وضوارب . وقيل : حَوِيّة مثل سفينة وسفائن . قال أبو عبيدة : الحوايا ما تَحوّى من البطن أي استدار . وهي مُنْحَوِية أي مستديرة . وقيل : الحوايا خزائن اللبن، وتصل بالمباعر وهي المصارين . وقيل : الحوايا الأمعاء التي عليها الشحوم . والحوايا في غير هذا الموضع : كساء يُحَوَّى حول سَنام البعير . قال امرؤ القيس :

جعلْنَ حَوَايَا واقْتَعَدْنَ قعائدًا ... وخفّفن من حَوْكِ العِراق المُنَمَّقِ

فأخبر الله سبحانه أنه كتب عليهم تحريم هذا في التوراة ردًّا لكذبهم . ونصّه فيها «حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وكلّ دابة ليست مشقوقة الحافر وكلّ حوت ليس فيه سفاسق» أي بياض . ثم نسخ الله ذلك كلّه بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم . وأباح لهم ما كان محرما عليهم من الحيوان، وأزال الحرج بمحمد عليه السلام، وألزم الخليقة دين الإسلام بحلّه وحرْمه وأمره ونَهْيه .

الخامســة ـ لو ذبحوا أنعامهم فأكلوا ما أحلّ الله لهم في التوراة وتركوا ما حرّم فهل يحلّ لنا؟ قال مالك في كتاب محمد : هي محرّمة . وقال في سماع المبسوط : هي محللة، وبه قال ابن نافع . وقال ابن القاسم : أكرهه . وجه الأول أنهم يدينون بتحريمها ولا يقصدونها عند الذكاة؛ فكانت محرّمة كالدم . ووجه الثاني وهو الصحيح أن الله عز وجل رفع ذلك التحريم بالإسلام، واعتقادُهم فيه لا يؤثّر؛ لأنه اعتقاد فاسد؛ قاله ابن العربي .

قلت : ويدلّ على صحته ما رواه الصحيحان عن عبد الله بن مُغَفَّل قال : كنّا محاصرين قصر خَيْبَر، فرمى إنسان بجراب فيه شحم فنزوتُ(1) لآخذه فالتفتُّ فإذا النبيّ صلى الله عليه وسلم فاستحييتُ منه . لفظ البخاري. ولفظ مسلم: قال عبد الله بن مُغَفَّل : أصبت جرابا من شحم يومَ خَيْبر، قال : فالتزمته وقلت : لا أعطى اليوم أحدا من هذا شيئا، قال : فالتفتُّ فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متبسما . قال علماؤنا : تبسّمه عليه السلام إنما كان لما رآه من شدّة حرص ٱبن مُغَفَّل على أخذ الجراب ومن ضنّته به، ولم يأمره بطرحه ولا نهاه . وعلى جواز الأكل مذهب أبي حنيفة والشافعيّ وعامّة العلماء؛ غير أن مالكا كرهه للخلاف فيه . وحكى ٱبن المنذر عن مالك تحريمها؛ وإليه ذهب كبراء أصحاب مالك . ومُتَمَسَّكهم ما تقدم؛ والحديثُ حجةٌ عليهم؛ فلو ذبحوا كلّ ذى ظفر قال أَصْبَغ : ما كان محرّما فى كتاب الله من ذبائحهم فلا يحلّ أكله؛ لأنهم يدينون بتحريمها . وقاله أشهب وٱبن القاسم، وأجازه ٱبن وهب . وقال ابن حبيب : ما كان محرّما عليهم، وعلمنا ذلك من كتابنا فلا يحلّ لنا من ذبائحهم، وما لم نعلم تحريمه إلا من أقوالهم واجتهادهم فهو غير محرّم علينا من ذبائحهم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى ذلك التحريم . فذلك فى موضع رفع، أى الأمر ذلك . ﴿ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ أى بظلمهم، عقوبة لهم لقتلهم الأنبياء وصدّهم عن سبيل الله، وأخذهم الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل . وفى هذا دليل على أن التحريم إنما يكون بذنب لأنه ضيق فلا يُعدَل عن السّعة إليه إلا عند المؤاخذة . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى أخبارنا عن هؤلاء اليهود عما حرّمنا عليهم من اللحوم والشحوم .

قوله تعالى : فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

---

(1) النزو : الوثب .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ شرط، والجواب « فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ » أى من سعة رحمته حلُم عنكم فلم يعاقبكم فى الدنيا . ثم أخبر بما أعدّه لهم فى الآخرة من العذاب فقال: ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وقيل : المعنى ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين إذا أراد حلوله فى الدنيا .

قوله تعالى : سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ قال مجاهد: يعنى كفار قريش . ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ يريد البحيرة والسائبة والوصيلة . أخبر الله عز وجل بالغيب عما سيقولون، وظنوا أن هذا متمسّكٌ لهم لما لزمتهم الحجة و تيقنوا باطل ما كانوا عليه. والمعنى: لو شاء الله لأرسل إلى آبائنا رسولا فنهاهم عن الشرك وعن تحريم ما أحلّ فينتهوا فاتبعناهم على ذلك . فردّ الله عليهم ذلك فقال : ﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ أى أعندكم دليل على أن هذا كذا . ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ فى هـذا القول . ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ لتوهموا ضعفتكم أن لكم حجّة . « ولا آباؤنا » عطف على النون فى «أشركنا» . ولم يقل نحن ولا آباؤنا؛ لأن قوله «ولا » قام مقام توكيد المضمر ؛ ولهذا حسن أن يقال : ماقمت ولا زيد .

قوله تعالى : قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ أى التى تقطع عذر المحجوج ، وتزيل الشك عن من نظر فيها . فحجّته البالغة على هـذا تبيينه أنه الواحد، و إرسالُه الرسل والأنبياء ؛ فبيّن التوحيد بالنظر فى المخلوقات، وأيد الرسل بالمعجزات، ولزم أمره كلّ مكلف . فأما علمه و إرادته

وكلامه فغيب لا يطّلع عليه العبد، إلا من ارتضى من رسول . ويكفى فى التكليف أن يكون العبد بحيث لو أراد أن يفعل ما أُمر به لأمكنه . وقد لبّست المعتزلة بقوله «ولو شاء الله ما أشركنا» فقالوا : قد ذم الله هؤلاء الذين جعلوا شركهم عن مشيئته . وتعلّقهم بذلك باطل؛ لأن الله تعالى إنما ذمّهم على ترك اجتهادهم فى طلب الحق . وإنما قالوا ذلك على جهة الهزء واللّعب . نظيره « وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ »[1] . ولو قالوه على جهة التعظيم والإجلال والمعرفة به لمَا عابهم؛ لأن الله تعالى يقول : « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا » . و « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ »[2] . « وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ »[3] . ومثله كثير . والمؤمنون يقولونه لعلم منهم بالله تعالى .

قوله تعالى : قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ﴾ أى قُل لهؤلاء المشركين أحضروا شهداءكم على أن الله حرّم ما حرمتم . و « هلم » كلمة دعوة إلى شئ، ويستوى فيه الواحد والجماعة والذكر والأنثى عند أهل الحجاز، إلا فى لغة نجد فإنهم يقولون : هَلُمَّا هَلُمُّوا هَلُمِّى، يأتون بالعلامة كما تكون فى سائر الأفعال . وعلى لغة الحجاز جاء القرآن ، قال الله تعالى : « وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا »[4] يقول : هَلُمَّ أى أحضر وادن . وهَلُمَّ الطعام، أى هاتِ الطعام . والمعنى هاهنا : هاتوا شهداءكم، وفتحت الميم لالتقاء الساكنين ، كما تقول : رُدَّ ياهذا ، ولا يجوز ضمها ولا كسرها . والأصل عند الخليل « ها » ضُمّت إليها « لُمّ » ثم حذفت الألف لكثرة الاستعمال . وقال غيره : الأصل « هل » زيدت عليها « لُمّ » . وقيل : هى على لفظها تدل على معنى هات . وفى كتاب العين للخليل : أصلها هلْ أؤمّ ، أى هل أقصدك، ثم كثر استعمالهم

---

(١) آية ٢٠ سورة الزخرف . (٢) آية ١٠٧، ١١١ من هذه السورة . (٣) آية ٩ سورة النحل .
(٤) آية ١٨ سورة الأحزاب .

إياها حتى صار المقصود يقولها ؛ كما أن يقال : أصلها أن يقولها المتعالي للمتسافل ؛ فكثر استعمالهم إياها حتى صار للمتسافل يقول للتعالي تعال .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا ﴾ أي شهد بعضهم لبعض ﴿فلا تَشْهَدْ معهم﴾ أي فلا تصدق أداء الشهادة إلا من كتاب أو على لسان نبيّ، وليس معهم شئ من ذلك .

قوله تعالى : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى – قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ﴾ أي تقدّموا واقرءوا حقًّا يقينا كما أوحى إليّ ربي، لا ظنًّا ولا كذبا كما زعمتم . ثم بيّن ذلك فقال : « أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » يقال للرجل : تعالَ ، أي تقدّم، وللمرأة تعالَيْ ، وللاثنين والاثنتين تعاليا ، ولجماعة الرجال تعالَوْا ، ولجماعة النساء تعالَيْن ؛ قال الله تعالى : « فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ »[1] . وجعلوا التقدّم ضربا من التعالي

(١) آية ٢٨ سورة الأحزاب .

والارتفاع ، لأن المأمور بالتقدّم فى أصل وضع هـذا الفعل كأنه كان قاعدا فقيل له تعال، أى ارفع شخصك بالقيام وتقدّم، واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشى؛ قاله ابن الشّجرِىّ .

الثانيـة — قوله تعالى : ﴿ مَا حَرَّمَ ﴾ الوجه فى « ما » أن تكون خبرية فى موضع نصب بأتل . والمعنى : تعالوا أتل الذى حرّمه ربكم عليكم؛ فإن علّقت « عليكم » بـ « حرّم » فهو الوجه ؛ لأنه الأقرب وهو اختيار البصريين . وإن علقته بـ « أتل » فجيّد لأنه الأسبق؛ وهو اختيار الكوفيين؛ فالتقدير فى هـذا القول أتل عليكم الذى حرم ربكم . ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا ﴾ فى موضع نصب بتقدير فعل من لفظ الأوّل، أى أتل عليكم ألا تشركوا؛ أى أتل عليكم تحريم الإشراك . ويحتمل أن يكون منصوبا بمـا فى « عليكم » من الإغراء ، وتكون « عليكم » منقطعة ممـا قبلها ؛ أى عليكم ترك الإشراك ، وعليكم إحسانا بالوالدين ، وألّا تقتلوا أولادكم وألّا تقربوا الفواحش . كما تقول: عليك شأنَك؛ أى الزم شأنك . وكما قال « عليكم أنفُسَكم » . قال جميعَه ابنُ الشَّجرِىّ . وقال النحاس: يجوز أن تكون «أن» فى موضع نصب بدلا من«ما»؛ أى أتل عليكم تحريم الإشراك . واختار الفَـرّاء أن تكون « لا » للنهى؛ لأن بعده «ولا» .

الثالثـة — هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيّه عليه السلام بأن يَدْعُوَ جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرّم الله . وهكذا يجب على مَن بعده من العلماء أن يبلّغوا الناس ويبيّنوا لهم ما حرّم عليهم مما حلّ. قال الله تعالى: «لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ»[1]. وذكر ابن المبارك أخبرنا عيسى ابن عمر عن عمرو بن مرّة أنه حدّثهم قال: قال ربيع بن خُثَيْم[2] لجليس له : أيسرّك أن تؤتى بصحيفة من النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يُفَكّ خاتمها؟ قال نعم. قال فاقرأ « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ » فقرأ إلى آخر الثلاث الآيات. وقال كعب الأحبار : هذه الآية مفتتح التوراة: "بسم الله الرحمن الرحيم قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم" الآية . وقال ابن عباس : هذه

---

(١) آية ١٨٧ سورة آل عمران . جـ ٤ ص ٣٠٥ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) قال صاحب تهذيب التهذيب : «فى التقريب (الربيع بن خثيم) بضم المعجمة وفتح المثلثة ، ولكن فى الخلاصة : بفتح المعجمة والمثلثة بينهما تحتانية ساكنة » .

الآيات المحكمات التي ذكرها الله في سورة « آل عمران » أجمعت عليها شرائع الخلق، ولم تنسخ قط في ملّة . وقد قيل : إنها العشر كلمات المنزّلة على موسى .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الإحسان إلى الوالدين برُّهما وحفظهما وصيانتهما وآمتثال أمرهما وإزالة الرّق عنهما وترك السّلطنة عليهما . و « إحسانا » نصب على المصدر، وناصبه فعل مضمر من لفظه؛ تقديره وأحسنوا بالوالدين إحسانا .

الخامســـة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ الإملاق الفقر، أى لا تَئِدوا ــ من الموءودة ــ بناتكم خشية العَيْلة ، فإني رازقكم وإياهم . وقد كان منهم من يفعل ذلك بالإناث والذكور خشية الفقر ، كما هو ظاهر الآية . أملق أى افتقر . وأملقه اى أفقره؛ فهو لازم ومتعد . وحكى النقاش عن مُؤَرِّج أنه قال : الإملاق الجوع بلغة لَخْم . وذكر منـذر بن سعيد أن الإملاق الإنفاق؛ يقال : أملق ماله بمعنى أنفقه . وذُكر أن عليًّا قال لأمرأته : أَمْلِقي من مالك ماشئت . ورجل مَلِق يُعطي بلسانه ما ليس في قلبه . فالمَلَق لفظ مشترك بيانه في موضعه .

السادســـة ــ وقد يستدلّ بهذا من يمنع العَزْل؛لأن الوأد يرفع الموجود والنّسل،والعزل منع أصل النسل فتشابها؛ إلا أن قتل النفس أعظم وِزْرا وأقبح فعلا،ولذلك قال بعض علمائنا : إنه يفهم من قوله عليه السلام في العزل : "ذلك الوأد الخفي" الكراهة لا التحريم . وقال به جماعة من الصحابة وغيرهم . وقال بإباحته أيضا جماعةٌ من الصحابة والتابعين والفقهاء؛ لقوله عليه السلام : "لا عليكم ألّا تفعلوا فإنما هو القَدَر" أى ليس عليكم جناح في ألّا تفعلوا . وقد فَهِم منه الحسن ومحمـد بن مُثَنَّى النّهيَ والزّجْر عن العزل . والتأويل الأوّل أَوْلى ؛ لقوله عليه السـلام : "وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء". قال مالك والشـافعيّ : لا يجوز العزل عن الحرّة إلا بإذنها . وكأنهم رأوا الإنزال من تمـام لذتها،ومن حقها في الولد، ولم يروا ذلك في الموطوءة بملك اليمين؛ إذ له أن يعزل عنها بغير إذنها؛ إذ لا حق لها في شيء مما ذُكر.

السابعة — قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نظيره « وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ »[1]. فقوله : « ما ظهر » نهى عن جميع أنواع الفواحش وهى المعاصى . « وما بطن » ما عقد عليه القلب من المخالفة. وظَهر وبَطن حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء . و « ما ظهر » نصب على البدل من «الفواحش» . «وما بطن» عطف عليه.

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الألف واللام فى « النفس » لتعريف الجنس ؛ كقولهم : أهلك الناس حُبّ الدرهم والدينار . ومثله «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا»[2] ألا ترى قوله سبحانه «إِلَّا الْمُصَلِّينَ» وكذلك قوله : «وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ» لأنه قال : «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا» .وهذه الآية نهيٌ عن قتل النفس المحرمة، مؤمنةً كانت أو معاهدة إلا بالحق الذى يوجب قتلها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصَمَ مالَه ونفسَه إلا بحقّه وحسابُهم على الله" . وهذا الحق أمور : منها منع الزكاة وترك الصلاة ؛ وقد قاتل الصدّيق مانعى الزكاة . وفى التنزيل «فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ»[3] وهذا بيّن . وقال صلى الله عليه وسلم :"لا يحلّ دَمُ آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة". وقال عليه السلام: "إذا بُويع لخليفتين فآقتلوا الآخر منهما"[4]. أخرجه مسلم. وروى أبو داود عن آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فآقتلوا الفاعل والمفعول به" . وسيأتى بيان هذا فى «الأعراف»[5] . وفى التنزيل : «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا»[6] . وقال : «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا»[7] الآية. وكذلك من شقّ عصا المسلمين وخالف إمامَ جماعتهم وفرّق كلمتهم وسعى فى الأرض فسادا بانتهاب الأهل والمال والبغى على السلطان والامتناع من حكمه يُقتَل . فهذا معنى قوله «إلا بالحق» .

---

(١) آية ١٢٠ من هذه السورة . (٢) آية ١٩ سورة المعارج . (٣) آية ٥ سورة التوبة .
(٤) أى فادفعوا الآخر بالقتل اذا لم يمكن دفعه بدونه . (٥) راجع المسألة الثانية فى قوله تعالى « ولوطا اذ قال لقومه ... » آية ٨٠ (٦) آية ٣٣ سورة المائدة . (٧) آية ٩ سورة الحجرات

وقال عليه السلام : "المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم لا يُقتل مسلم بكافر ولا ذو عهد فى عهده ولا يتوارث أهل ملّتين". وروى أبو داود والنسائى عن أبى بكْرة قال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من قتل مُعاهَدا فى غير كُنْهِه[1] حرّم الله عليه الجنة" . وفى رواية أخرى لأبى داود قال : " مَن قتل رجلا من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاما" . فى البخارى فى هذا الحديث "وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما" . خرّجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصى .

التاسعة ـ قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى هذه المحرمات. والكاف والميم للخطاب ، ولا حظّ لهما من الإعراب . ﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾ الوصيّة الأمر المؤكد المقدور . والكاف والميم محله النصب ؛ لأنه ضمير موضوع للمخاطبة . وفى وصّى ضمير فاعل يعود على الله . روى مطر الوراق عن نافع عن ابن عمر أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أشرف على أصحابه فقال : علَامَ تقتلونى! فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا يحلّ دَمُ رجل مسلم إلا بإحدى ثلاث رجل زنى بعد حصانة فعليه الرجم أو قتل عمدا فعليه القَوَد أو ارتدّ بعد إسلامه فعليه القتل" فوالله ما زنيتُ فى جاهلية ولا إسلام ، ولا قتلتُ أحدا فأقيد نفسى به ، ولا ارتددت منذ أسلمت ، إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، ذلكم الذى ذكرتِ لكم وصاكم به لعلكم تعقلون !

العاشرة ـ قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى بما فيه صلاحه وتثميره ، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه . وهذا أحسن الأقوال فى هذا ؛ فإنه جامع . قال مجاهد : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » بالتجارة فيه ، ولا تشترى منه ولا تستقرض .

الحادية عشرة ـ قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ يعنى قوته ، وقد تكون فى البدن ، وقد تكون فى المعرفة بالتجربة ، ولا بُدّ من حصول الوجهين ؛ فإن الأَشُدّ وقعت هنا مطلقة .

---

(1) كنه الأمر : حقيقته . وقيل : وقته وقدره . وقيل : غايته . يعنى من قتله فى غير وقته أو غاية أمره الذى يجوز فيه قتله . (عن ابن الأثير) .

وقد جاء بيان حال اليتيم في سورة « النساء » مقيدة، فقال : « وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا »[1] فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح وبين قوة المعرفة وهو إيناس الرشد ؛ فلو مُكِّن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة وبعدَ حصول القوة لأذهبه في شهواته وبقي صُعْلوكا لا مال له . وخصّ اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه وافتقاد الآباء لأبنائهم فكان الاهتبال بفقيد الأب أولى . وليس بلوغ الأشُدّ مما يبيح قُرْبَ ماله بغير الأحسن[2] ؛ لأن الحرمة في حق البالغ ثابتة . وخصّ اليتيم بالذكر لأن خصمه الله . والمعنى : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن على الأبد حتى يبلغ أشده . وفي الكلام حذف ؛ فإذا بلغ أشده وأونس منه الرشد فادفعوا إليه ماله . واختلف العلماء في أشُدّ اليتيم ؛ فقال ابن زيد : بلوغه . وقال أهل المدينة : بلوغه وإيناس رشده . وعند أبي حنيفة : خمس وعشرون سنة . قال ابن العربيّ : وعجبا من أبي حنيفة، فإنه يرى المقدّرات لا تثبت قياسا ولا نظرا وإنما تثبت نقلا، وهو يثبتها بالأحاديث الضعيفة، ولكنه سكن دار الضَّرْب فكثر عنده المُدَلَّس، ولو سكن المعدن[3] كما قيض الله لمالك لما صدر عنه إلا إبريز الدين . وقد قيل : إن انتهاء الكهولة فيها مُجْتَمع الأشُدّ ؛ كما قال سُحيم بن وَثِيل :

أخو خمسين مُجْتَمِع أشُدّي ... وتَجُذُّني مداورة الشئون[4]

يروى « نجدني » بالدال والذال . والأشُدّ واحد لا جمع له ؛ بمنزلة الآنُك وهو الرَّصاص . وقد قيل : واحده شَدّ ؛ كفَلْس وأفْلُس . وأصله من شَدّ النهار أي ارتفع ؛ يقال : أتيته شَدّ النهار ومَدّ النهار . وكان محمد بن محمد الضَّبيّ يُنشد بيت عنترة :

عَهْدِي به شَدَّ النهار كأنما ... خُضِبَ اللَّبانُ ورأسُه بالعِظْلِمِ[5]

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) كذا في الأصول . ولعلها : « الأهم » .

(٣) يريد بدار الضرب : بغداد . والمعدن : معدن الشريعة ومنجمها وهي المدينة المنورة . (٤) رجل مجذ (بالدال والذال) : جرب الأمور وعرفها وأحكمها . ومداورة الشئون : مداولة الأمور ومعالجتها .

(٥) اللبان (بفتح اللام) : الصدر . ويروى : « البنان » . والعظلم (بكسر العين واللام وسكون الظاء) : صبغ أحمر، وقيل هو الوسمة، شجر له ورق يختضب به .

آخـــر :

تُطيف شَــدّ النهـار ظَعينةٌ • طويلةُ أنقـاءِ اليدَيْن سُحُوق[1]

وكان سيبويه يقول : واحده شِـدّة . قال الجوهرى : وهو حَسَن فى المعنى ؛ لأنه يقال : بلغ الغلام شِدّته، ولكن لا تجمع فِعْلة على أفعُل، وأما أنعُم فإنما هو جمع نُعْم؛ من قولهم : يوم بُؤْس ويوم نُعْم. وأما قول من قال: واحده شَدّ، مثل كَلْب وأكلب، وشِدّ مثل ذِئب وأذؤب فإنما هو قياس . كما يقولون فى واحد الأبابيل : إبَّول ، قياسا على عِجَّوْل، وليس هو شيئا سُمِع من العرب . قال أبو زيد : أصابتنى شُـدَّى على فُعْلى ؛ أى شِدّة . وأشـدّ الرجل إذا كانت معه دابة شديدة .

الثانية عشرة ــ قوله تعالى : ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أى بالاعتدال فى الأخذ والعطاء عند البيع والشراء. والقِسط : العدل. ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى طاقتها فى إيفاء الكيل والوزن . وهذا يقتضى أن هذه الأوامر إنمـا هى فيما يقع تحت قُدرة البشر من التحفظ والتحرز. وما لا يمكن الاحتراز عنه من تفاوت ما بين الكَيْلين، ولا يدخل تحت قُدرة البشر فمعفوٌ عنه . وقيـل : الكيل بمعنى المِكْيَال . يقال : هـذا كذا وكذا كَيْلا ؛ ولهـذا عطف عليه بالميزان . وقال بعض العلماء : لمـّا علم الله سبحانه من عباده أن كثيرا منهم تَضيق نفسُه عن أن تَطيب للغير بمـا لا يجب عليهـا له أمر المعطى بإيفاء ربّ الحق حقّه الذى هو له، ولم يكلفه الزيادةَ ؛ لمـا فى الزيادة عليه من ضيق نفسه بها . وأمر صاحبَ الحقّ بأخذ حقه ولم يكلفه الرضا بأقلّ منه ؛ لمـا فى النقصان من ضيق نفسه . وفى موطأ مالك عن يحيى بن سعيد أنه بلغه عن عبد الله بن عباس أنه قال : ما ظهر الغلول فى قوم قطُّ إلا ألقى الله فى قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنى فى قوم إلا كَثُر فيهم الموت، ولا نقص قوم المِكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق، ولا حَكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدّم ، ولا خَفَر قوم بالعهد إلا سلّط عليهـم الله العـدو . وقال ابن عباس أيضا : إنكم معشرَ الأعاجم قـد وُليتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم .

---

(١) السحوق : المرأة الطويلة .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ يتضمن الأحكام والشهادات . ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أى ولو كان الحق على مثل قرابتكم ؛ كما تقدم فى «النساء»(١) . ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ عام فى جميع ما عهد الله إلى عباده . ويحتمل أن يراد به جميع ما عقد بين إنسانين . وأضيف ذلك العهد إلى الله من حيث أمر بحفظه والوفاء به . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون .

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم ؛ فإنه لما نهى وأمر حذر هنا عن اتباع غير سبيله ، فأمر فيها باتباع طريقه على ما نبينه بالأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف . « وأنّ » فى موضع نصب ، أى وأتل أن هذا صراطى ؛ عن الفرّاء والكسائى . قال الفرّاء : ويجوز أن يكون خفضا ، أى وصّاكم به وبأن هذا صراطى . وتقديرها عند الخليل وسيبويه : ولأن هذا صراطى ؛ كما قال : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ »(٢) وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى « وإنّ هذا » بكسر الهمزة على الاستئناف ؛ أى الذى ذكر فى هذه الآية صراطى مستقيما . وقرأ ابن أبى إسحاق ويعقوب «وأنْ هذا» بالتخفيف . والمخففة مثل المشددة ، إلا أن فيه ضمير القصة والشأن ؛ أى وأنه هذا . فهى فى موضع رفع . ويجوز النصب . ويجوز أن تكون زائدة للتوكيد ؛ كما قال عز وجل : « فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ »(٣) . والصراط : الطريق الذى هو دين الإسلام . ﴿ مُسْتَقِيمًا ﴾ نصب على الحال ، ومعناه مستويا قويما لا اعوجاج فيه . فأمر باتباع طريقه الذى طرقه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه ونهايته الجنة . وتشعبت منه طرق فمن سلك الجادّة نجا ، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى تميل . وروى الدارمى أبو محمد فى مسنده بإسناد صحيح : أخبرنا عفان حدثنا حماد بن زيد حدثنا عاصم بن بَهْدَلة عن أبى وائل عن عبد الله ابن مسعود قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا ، ثم قال : " هذا سبيل

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٤١٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ١٨ سورة الجن .
(٣) آية ٩٦ سورة يوسف .

الله " ثم خطّ خطوطا عن يمينه وخطوطا عن يساره ثم قال " هذه سُبُلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها " ثم قرأ هذه الآية . وأخرجه ابن ماجه في سننه عن جابر عن عبد الله قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فخطّ خطًّا ، وخطّ خطّين عن يمينه ، وخط خطين عن يساره ، ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال : " وهذا سبيل الله — ثم تلا هذه الآية — وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتّبعوا السُّبُلَ فتفرّق بكم عن سبيله " . وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع ، وغير ذلك من أهل التعمّق في الجدل والخوض في الكلام . هذه كلّها عرضة للزلل ، ومظنة لسوء المعتقد ؛ قاله ابن عطية .

قلت : وهو صحيح . ذكر الطبري في كتاب أدب النفوس : حدّثنا محمد بن عبد الأعلى الصّنعاني قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن أبان أن رجلا قال لابن مسعود : ما الصراط المستقيم ؟ قال : تركنا محمد صلى الله عليه وسلم في أدناه وطرفُه في الجنة ، وعن يمينه جَوادّ[1] وعن يساره جوادّ ، وثَمّ رجال يدعون من مرّ بهم فمن أخذ في تلك الجوادّ انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة ، ثم قرأ ابن مسعود : «وأن هذا صراطي مستقيما» الآية . وقال عبد الله بن مسعود : تعلّموا العلم قبل أن يُقبض ، وقبضه أن يذهب أهله . ألا وإياكم والتنطّع والتعمّق والبدع ، وعليكم بالعتيق[2] . أخرجه الدّارِمِيّ . وقال مجاهد في قوله «ولا تتّبعوا السُّبُلَ» قال : البدع . قال ابن شهاب : وهذا كقوله تعالى : «إنّ الّذين فرّقُوا دينَهُم وكانُوا شيَعًا»[3] الآية . فالهَرَبَ الهربَ ، والنّجاءَ النجاءَ ! والتمسّك بالطريق المستقيم والسّنن القويم ، الذى سلكه السلف الصالح ، وفيه المتجر الرابح . روى الأئمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهوا " . وروى ابن ماجه وغيره عن العِرْباض بن سارية قال : وَعَظَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت

---

(١) الجوادّ (بتشديد الدال) : الطرق ، واحدها جادّة وهي سواء الطريق ، وقيل معظمه ، وقيل وسطه .

(٢) العتيق : القديم .　　(٣) آية ١٥٩ من هذه السورة

منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا : يا رسول الله، إن هذه لموعظةُ مودّع، فما تعهد إلينا ؟ فقال : " قد تركتم على البيضاء[1] ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدى عَضُّوا عليها بالنواجذ وإياكم والأمورَ المحدَثات فإن كلّ بدعة ضلالة وعليكم بالطاعة وإنْ عبدًا حبشيًّا فإنما المؤمن كالجَمَل الأَنِف[2] حيثما قِيد انقاد " أخرجه الترمذى بمعناه وصححه .

وروى أبو داود قال حدثنا ابن كَثير قال أخبرنا سفيان قال : كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر، فكتب : أما بعد ، فإنى أوصيك بتقوى الله والاقتصاد فى أمره واتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنّتُه ، وكُفُوا مؤونتَه . فعليك بلزوم الجماعة فإنها لك بإذن الله عصمة . ثم اعلم أنه لم يبتدع الناسُ بدعةً إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرةٌ فيها ؛ فإن السنة إنما سَنّها من قد عَلِم ما فى خلافها من الخطأ والزلل، والحمق والتعمق؛ فارض لنفسك ما رضى به القوم لأنفسهم؛ فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وإنهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى. فإن كان الهُدَى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه. ولئن قلتم إنما حدث بعدَهم فما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم ورَغِب بنفسه عنهم ؛ فإنهم هم السابقون، قد تكلّموا فيه بما يكْفِى ووصفوا ما يَشْفِى؛ فما دونَهم من مقصر، وما فوقهم من محسر. وقد قصر قوم دُونهم فجَفَوْا، وطمَح عنهم أقوام فغَلَوْا وإنهم مع ذلك لَعَلَى هُدًى مستقيم . وذكر الحديث . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : عليكم بالاقتداء بالأثر والسنة ، فإنى أخاف أنه سيأتى عن قليل زمانٌ إذا ذكر إنسانٌ النبىّ صلى الله عليه وسلم والاقتداءَ به فى جميع أحواله ذمّوه ونفروا عنه وتبرءوا منه وأذلّوه وأهانوه . قال سهل : إنما ظهرت البدعة على يدى أهل السنة لأنهم ظاهروهم وقاولوهم ؛ فظهرت أقاويلهم وفَشَت فى العامّة فَسَمِعه من لم يكن يسمعه ؛ فلو تركوهم ولم يكلموهم

---

(١) البيضاء . يريد صلى الله عليه وسلم الملة والحجة الواضحة التى لا تقبل الشبه أصلا .

(٢) الأنف (ككتف) ، المأنوف ، وهو الذى عقر الخشاش أنفه؛ فهو لا يمتنع على قائده للوجع الذى به .
وقيل : الأنف الذلول .

لمات كل واحد منهم على ما فى صدره ولم يظهر منه شىء وحمله معه إلى قبره . وقال سهل": لا يُحدث أحدكم بدعةً حتى يحدث له إبليس عبادة فيتعبد بها ثم يُحدث له بدعة ، فإذا نطق بالبدعة ودعا الناس إليها نزع منه تلك الخدمة . قال سهل : لا أعلم حديثا جاء فى المبتدعة أشدّ من هذا الحديث: "حجب الله الجنة عن صاحب البدعة". قال : فاليهودىّ والنصرانىّ أرجى منهم . قال سهل: من أراد أن يكرم دينه فلا يدخل على السلطان، ولا يخلُوَنّ بالنسوان، ولا يخاصِمنّ أهل الأهواء . وقال أيضا : اتبعوا ولا تبتدعوا ، فقد كُفيتم . وفى مسند الدارِمىّ: إن ابا موسى الأشعرى جاء إلى عبد الله بن مسعود فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى رأيت فى المسجد آنفا شيئا أنكرته ولم أر والحمد لله إلا خيرا ! قال : فما هو ؟ قال: إن عشتَ فستراه، قال : رأيتُ فى المسجد قوما حِلَقًا حِلَقًا جلوسا ينتظرون الصلاة ؛ فى كل حَلْقة رجل وفى أيديهم حَصًى فيقول لهم: كَبِّروا مائة؛ فيكبرون مائة . فيقول: هَلِّلُوا مائة فيهلّلون مائة . ويقول : سبّحوا مائة فيسبحون مائة . قال : فماذا قلتَ لهم ؟ قال : ما قلتُ لهم شيئا ؛ انتظارَ رأيك وانتظار أمرك . قال : أفلا أمرتَهم أن يَعُدّوا سيئاتهم وضَمِنت لهم ألّا يضيع من حسناتهم . ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حَلْقة من تلك الحِلَق ؛ فوقف عليهم فقال : ما هذا الذى تصنعون ؟ قالوا : يا أبا عبد الرحمن، حَصًى نَعُدّ به التكبير والتهليل . قال : فعُدّوا سيئاتكم وأنا ضامن لكم ألّا يضيع من حسناتكم شىء . ويحكم يا أمّة محمد ! ما أسرعَ هَلَكَتَكم . أوَ مُفْتتِحِى باب ضلالة ! (1) قالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ، ما أردنا إلا الخير . فقال : وكم من مريد للخير لن يصيبه . وعن عمر بن عبد العزيز وسأله رجل عن شىء من أهل الأهواء والبدع ؛ فقال : عليك بدين الأعراب والغلام فى الكُتّاب ، والْهُ عمّا سِوَى ذلك . وقال الأوزاعى قال إبليس لأوليائه : من أىّ شىء تأتون بنى آدم؟ فقالوا : من كل شىء . قال : فهل تأتونهم من قبل الاستغفار ؟ قالوا : هيهات! ذلك شىء قُرِن بالتوحيد

---

(1) كذا فى الأصول . والذى فى سنن الدرامى المطبوعة والمخطوطة : « ... ما أسرع هلكتكم . هؤلاء صحابة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون ، وهذه ثيابه لم تبل ، وآنيته لم تكسر . والذى نفسى بيده إنكم لعلى ملة هى أهدى من ملة محمد . أو مفتتحى باب ... » الخ . وقد كتب على هامش المطبوع : « أو مفتتح » بغير ياء .

قال : لأبثّن فيهم شيئا لا يستغفرون الله منـه . قال : فبثّ فيهم الأهواء . وقال مجاهد : ولا أدرى أىّ النعمتين علىّ أعظم إن هـدانى للإسلام ، أو عافانى من هـذه الأهواء . وقال الشعبى : إنمـا سُمُّوا أصحاب الأهواء لأنهم يهوون فى النار . كله عن الدارمىّ . وسئل سهل بن عبـد الله عن الصـلاة خلف المعـتزلة والنكاح منهم وتزويجهم . فقـال : لا ، ولا كرامة ! هم كفار ، كيف يؤمن من يقـول : القرآن مخلوق ، ولا جنـة مخلوقة ولا نار مخلوقة ، ولا لله صراط ولا شـفاعة ، ولا أحد من المؤمنين يدخل النـار ولا يخرج من النار من مذنبى أمة محمد صـلى الله عليه وسـلم ، ولا عذاب القـبر ولا منكر ولا نكير ، ولا رؤية لربنا فى الآخرة ولا زيادة ، وأنّ علم الله مخلوق ، ولا يَرون السلطان ولا جمعة ، ويكفّرون من يؤمن بهـذا . وقال الفُضيل بن عِياض : من أحبّ صاحب بدعة أحبط الله عمله ، وأخرج نور الإسلام من قلبه . وقد تقدّم هـذا من كلامه وزيادة . وقال سفيان الثّورىّ : البدعة أحبّ إلى إبليس من المعصية ؛ المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها . وقال ابن عباس : النظر إلى الرجل من أهل السنة يدعو إلى السُّنّة وينهى عن البدعة ، عبادةٌ . وقال أبو العالية : عليكم بالأمر الأوّل الذى كانوا عليـه قبل أن يفترقوا . قال عاصم الأحْول : فحدّثت به الحسن فقال : قـد نصحك والله وصـدقك . وقد مضى فى « آل عمران » معنى قوله عليـه السلام : " تفرقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين ملّة وأن هـذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين " . الحديثَ[1] . وقد قال بعض العلماء العارفين : هذه الفرقة التى زادت فى فرق أمة محمد صلى الله عليه وسلم هم قوم يعادون العلماء ويبغضون الفقهاء ، ولم يكن ذلك قطّ فى الأمم السالفة . وقـد روى رافع بن خَديج أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يكون فى أمتى قوم يكفرون بالله وبالقـرآن وهم لا يشـعرون كما كفرت اليهود والنصارى " . قال فقلت : جُعلت فداك يا رسول الله ! كيف ذاك ؟ قال : " يُقرّون ببعض ويكفرون ببعض " . قال قلت : جُعلت فداك يا رسول الله ! وكيف يقولون ؟ قال : " يجعلون إبليس عدلا لله فى خلقه

---

(١) راجع ج ٤ ص ١٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

وقوته ورزقه ويقولون الخير من الله والشر لإبليس ". قال : فيكفرون بالله ثم يقرءون على ذلك كتاب الله، فيكفرون بالقرآن بعد الإيمان والمعرفة ؟ قال : " فما تلقى أمتى منهم من العداوة والبغضاء والجدال أولئك زنادقة هذه الأمة ". وذكر الحديث . ومضى فى «النساء» وهذه السورة النَّهْىُ عن مجالسة أهل البدع والأهواء، وأن من جالسهم حكمه حكمهم فقال : «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا» الآية [1]. ثم بيّن فى سورة «النساء» وهى مدنية عقوبة من فعل ذلك وخالف ما أمر الله به فقال : «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ» الآية [2]. فألحق من جالسهم بهم . وقد ذهب إلى هذا جماعة من أئمة هذه الأمة وحكم بموجب هذه الآيات فى مجالس أهل البدع على المعاشرة والمخالطة منهم أحمد بن حنبل والأوزاعى وابن المبارك فإنهم قالوا فى رجل شأنه مجالسة أهل البدع قالوا : يُنْهى عن مجالستهم، فإن انتهى وإلا ألحق بهم . يعنون فى الحكم . وقد حمل عمر بن عبد العزيز الحدّ على مجالسة شَرَبة الخمر، وتلا «إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ» . قيل لهم : فإنه يقول إنى أجالسهم لأباينهم وأردّ عليهم . قالوا : يُنْهى عن مجالستهم، فإن لم ينته ألحق بهم .

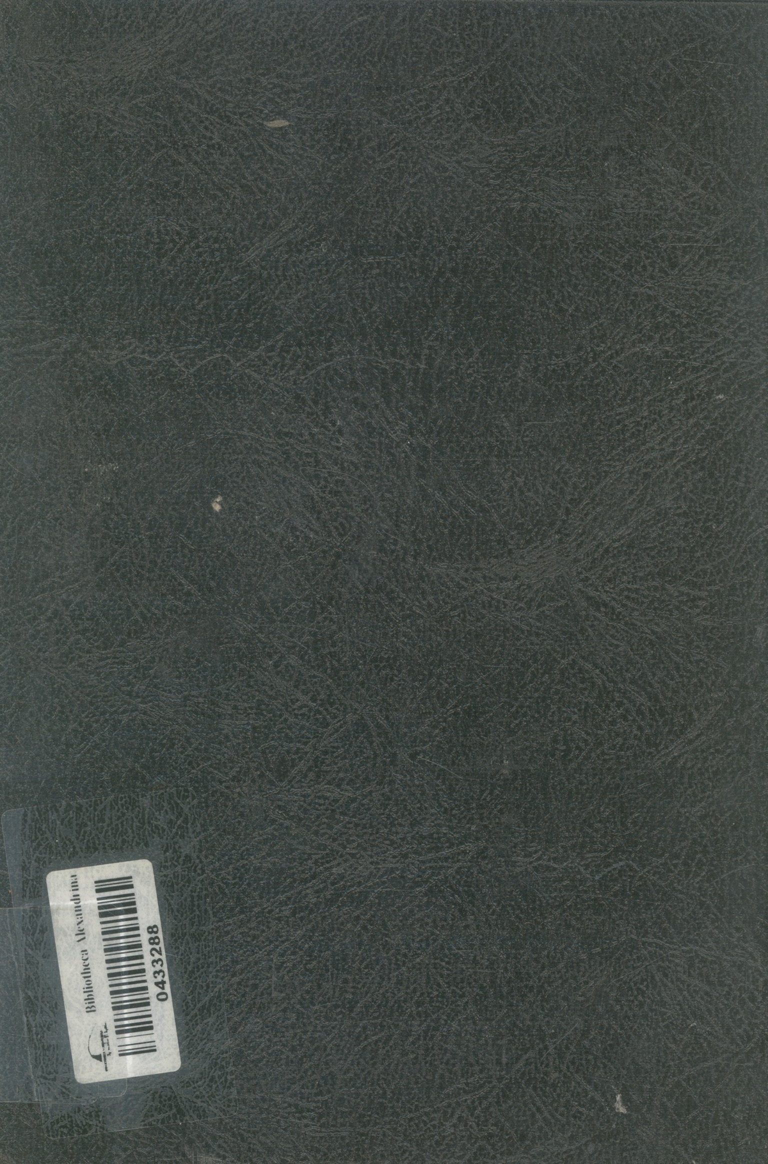
قوله تعالى : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ مفعولان . ﴿تَمَامًا﴾ مفعول من أجله أو مصدر . ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قرئ بالنصب والرفع . فمن رفع ـ وهى قراءة يحيى بن يَعْمَر وابن أبى إسحاق ـ فعلى تقدير: تماما على الذى هو أحسنُ . قال المَهْدَوِىّ : وفيه بعدٌ من أجل حذف المبتدأ العائد على الذى . وحكى سيبويه عن الخليل أنه سمع « ما أنا بالذى قائل لك شيئا » . ومن نصب فعلى أنه فعل ماض داخل فى الصِّلة ؛ هذا قول البصريين . وأجاز الكسائى والفراء

(١) آية ٦٨ من هذه السورة .   (٢) آية ١٤٠ راجع جـ ٥ ص ٤١٧ طبعة أولى أو ثانية .

اذا كان « القرطبي » سيجلد في مجلد واحد فتنزع هذه الورقة

مكتبة دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني - ت ١٩٩١


Bibliotheca Alexandrina
0433288